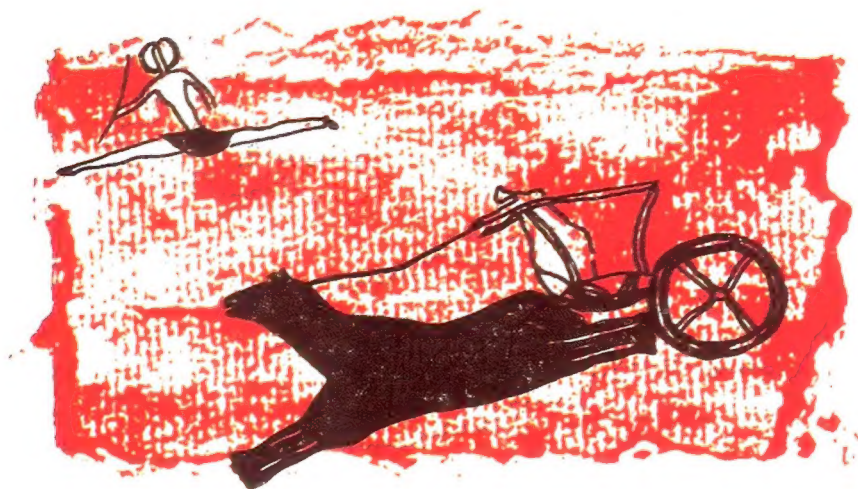


ابراهيم الكوني

المجنوس



رواية

الجزء الاول



الشاعر

www.books4all.net

المجوس

ابراهيم الكوني

المجنون

رواية

الجزء الاول

* إبراهيم الكوني : المجوس الجزء الأول .

* الطبعة الثانية : ١٩٩٢ .

* جميع الحقوق محفوظة .

* الناشر : دار التنوير للطباعة والنشر

تاسيلي للنشر والاعلام

133 Makarios Avenue

Classic House Building-Office No.4

Tel: (357-5) 387463

Fax: (357-5) 387464

Limassol - Cyprus

* المركز الرئيسي :

المنيرة - أول نزلة اللبان - بناية عساف -

الطابق السابع - تلفون ٨٠٦٣٥٩

ص. ب ٦٤٩٩ - ١١٣ بيروت - لبنان

القسم الاول

١ - القبلي

«الريح تذهب إلى الجنوب وتدور إلى الشمال. تذهب دائرة دوراناً وإلى مداراتها ترجع الريح».

المعهد القديم - سفر «الجامعة»

(١)

لن يذوق طعم الحياة مَنْ لم يتنَفَّسْ هواءَ الجبال.

هنا، فوق القمم العارية، يقترب من الآلهة. يتحرَّر من البدن ويصبح بمقدوره أن يمدَّ يده ويقطف البدر أو يجني النجوم.

من هذا الموقع يروق له أن يراقب الناس في حضيضهم. يتسابقون بنشاط النمل فيظن أنهم قد حققوا المعجزة. ينزل إلى أرضهم فيجد أنهم دراويش أشقياء يجدّون في البحث ولكنهم لا يجنون سوى الباطل.

دم يبدو سعيهم مضحكاً وقيحاً من المنازل العليا!

عن سلسلة «أكاكوس» المكابرة انفصل جبلان خرافيان وتاهما في الصحراء. أحدهما استلقى جنوباً إلى جوار السلسلة الأم فبدا أقصر قامة من شقيقه الضال وإن جراه في التطاول نحو السماوات بينائين جبارين. أما الجبل الشمالي، الهاجع في الطرف الآخر من السهل، فتشق قممه الحزينة، الغامضة، ذات الأبراج الأربعة، الفضاء في جلال.

غمر الغسقُ المناهة الغربية بالأرجوان، تناثرت أسبال السحب العقيمة على طول الأفق. في السهل الممدود بين الجبلين لاحت قافلة، يتقدمها مشاة يجرون هودجاً مهيباً يتهايل فوق جمل محاط بالعبيد. في أثر الهودج الفخم

تتابع جمال مَحْمَلَة بالمتاع، ولكن عظمة الموكب تحوَّلت، من القمة المعلقة، إلى مشهد مضحك. لاحظ أن الجبل يحوِّل كل الأشياء التي تبدو على الأرض منفوشة، جليلة، إلى ألعاب. المهاري تصير فئراناً. والرجال المثلثون، المهيون، المنفوخون كالطواويس، يصبحون دمي تثير الضحك أو الرثاء. حتى شيخ القبيلة النبيل بلباسه الأزرق الذي يثير الرهبة في النفوس، رآه من قمته دمية صغيرة عاجزة أضحكته كثيراً. ولاحظ أيضاً أن عبث القمة بأحجام الناس ونشاطهم يزداد قساوة كلما بالغوا في الجدية والتحلي بالكبرياء. وكثيراً ما يقول لنفسه وهو يصافح نبلاء القوم المتعجرفين: «انتظروا، سوف أصعد الجبل وسأرى ما إذا كنتم حقاً آلهة أم انكم مجرد فئران!». وكان السرّ يشيره ويدهشه. لماذا تعتمد القمة الساوية أن تسخر من العظماء والمكابرين وتحوِّلهم إلى دراويش بؤساء؟ ولكن وحيّاً قال له إن القمة معصومة من الخطأ، وهي إذا أظهرت المكابرين كدمى فإن تلك هي الحقيقة. السهل هو الذي يزيّف الناس ويحوِّلهم إلى وهم. وأولئك المندفعون الجارون في نشاطهم أكثر من غيرهم يبدون مضحكين، لأنهم في الواقع الأرضي، واهمون أكثر من الجميع، أودعوا أرواحهم في قبضة الشيطان.

الجادون لقمة أسهل على إبليس.

وكما الجبل محراب الآلهة فإن السهل مملكة الأبالسة.

(٢)

نصبت معسكرها في السفح. انتشرت الإبل في الوديان الشرقية يهشها بعض الزوج في حين انهمك فريق آخر في وضع الأسس الأولى للمستوطنة.

سرحت «تينيري» في الخلاء لتحرر ساقها وتعوّدها على المشي من جديد. الحبس الطويل في الهودج أنساها المشي وشلّها عن الحركة، تعثرت في خطوها وهي تسلك الشُعَب الضيقة المنحدرة من أعالي الجبل. أدهشها العجز عن المشي فضحكت بصوت مرح مسموع. سمعت صوته كأنه يأتي من المجهول:

- لأول مرة أرى حسناء تضحك لنفسها.

نظرت حولها في حيرة فلم تر شيئاً. همست ببعض التعاويذ وقالت بصوت عال:

- هل أنت إبليس؟

- لا. أنا الملاك.

وقهقه عالياً.

ثم خرج من مخبئه خلف الصخرة واعتذر بلباقة.

وقفت طويلاً تتأمله دون أن تردّ على تحيته أو تقبل الاعتذار عن تطفله. ابتسامة خفيفة تعلو شفثيها. لم تسارع لتغطية وجهها الجميل.

الوجه يشع بتعبير مدهش، ذلك التعبير الجريء الذي يعلو وجوه ناس يخفون سرّاً.

كشفت ابتسامتها عن صفين نضيدتين من الأسنان. قالت بشقاوة:

- لا يطلع من الجبل إلا شبح أو إبليس الرحيم.

- إبليس يسكن السهل والأشباح تسكن جبال الشمال، هناك.

أشار بإصبعه نحو «ايدنان» الشمالي. أحكم عمامته حول فمه وأعقب الإشارة بضحكة. تمردت ضفيرة كبيرة سوداء وخرجت من مخبئها تحت اللحاف. انزلقت واستلقت على صدر نافر، لم تسارع باخفائها. ظلت تراقب، بفضول، ثم تحركت تصعد المنحدر. سيطرت على عجزها. انتصبت بقامتها ومشت بحرية، بكبرياء. عرف «اوداد» أنه يمشي بجوار امرأة من دنيا الخرافات: حورية من الفردوس، أو جنية من الجنّيات. ارتجف وشعر بالجلال والحجل. قالت دون أن تنظر إليه:

- لم أظن أن ألقى إنسياً في هذا الخلاء.

- يوجد إنس في كل مكان، حتى تحت الأحجار وفوق رؤوس الجبال.
- لن أشك بعد اليوم في ذلك. هل تسكن في القمة أم في الكهوف.
- يوم أفكر في الاستقرار فلن أجد لي مقاماً أنسب من القمة. الكهوف خائفة.

ضحكت. كتمت ضحكتها. قالت:

- كالودان؟

لوى قطعة الشاش الخضراء حول وجهه. بدأ يتحرّر من الخجل. وافقها بطفولة:

- كالودان.

بدأ المنحدر يستقيم في صعوده. تباطأت ثم جلست على صخرة على الحافة. سأله:

- هل أنت مقطوع؟

أشار إلى الغرب حيث ركعت الشمس في قرص أحمر كبير وقال:

- منتجع القبيلة هناك.

سكت لحظة ثم أضاف فجأة:

- لو تنازلت وقبِلت ضيافتي في القمة لآثرتُ البقاء هناك إلى الأبد.

حَدَجَتْهُ بنظرة. لم تعلق. ازداد التعبير الخفي على وجهها غموضاً وسحراً.

أخيراً علّقت:

- أنت كالطفل. لم أقابل أطفالاً مثلك.

- أن أكون طفلاً أفضل من أن أكون رجلاً فخماً يسكن السهل. أهل

السهول رجال ولكنهم عبيد. أيها أحسن: عبد أم طفل؟

انطلق في ضحكة .

أحكمت لحافها حول وجهها :

- كل الرجال أطفال . كل الناس عبيد .

احتقن الأفق بالعمّة . من الجنوب زحفت سحب سوداء . قال «اوداد» :

- الجوّ يبشرُ بالأمطار . مجيئك فال خير .

علّقت بلا مبالاة :

- لا أظنّ .

ثم ابتسمت بحزن .

عاد يسأل بعد صمت :

- إعذريني عن تأخر السؤال : هل جئتنا من آير؟

- هل تقرأ الغيب أيضاً؟

أربكه الجواب فأنقذته بدعابة :

- جئتُ من آير . أبحث عن مأوى يحميني من الريح . هل تجد لي كهفاً

يحميني من القبلي .

دقَّ على قلبه بقبضته واستجاب لدعابتها بدعابة :

- هنا أجد لك مأوى أكثر أماناً من كل الكهوف . هذا القفص هو المكان

الوحيد الذي لن يدخله الريح .

لم تحفل بالدعابة . راقبت الأفق الكثيب .

(٣)

أكد الزعيم على ضرورة وضع التحصينات حول البشر بعد أن فرغ من

احتساء الكوب الأخير من الشاي واختتم حديثاً طويلاً عن النبل والحرب .

أوكلَ له «أوخا» بالمهمة .

أوخا من النبلاء، يمت بقراة للزعيم. طويل. رفيع. وموهوب. يقرض الشعر ويؤلف الأغاني. فارس في ركوب المهاري. اشترك في ثلاث غزوات إلى نهر «كوكو»، فأشاد به الشيوخ وأثنوا كثيراً على مآثره. عشقته كل الصبايا وانتظرن أن يتنازل عن كبريائه يوماً ليفرن به زوجاً.

قطع الوادي وصعد المرتفع يحيط به الأصحاب المنفوشون كقطيع من الطواويس. على الروابي الجنوبية، إلى يمين المتجع، انتشر العبد والأتباع وتنادوا بأصوات عالية وهم يحملون المعاول والفؤوس ويتجمعهرون. بعضهم انتظم في طابور طويل يفتفون أثر بعضهم كما تفعل قوافل الغزلان في الهجرات.

تغضنت الصحراء وقطب الأفق حاجبه لليوم الثاني. احتقنت السماء بالشحوب والعممة وغرقت أبراج «ايدنان» الشمالي في عمامة كالغيم.

ولكن الخبراء أكدوا أن الصحراء عندما تتلثم بالعممة والحداد فإن أكثر السحب جوداً بالمطر سرعان ما تتخلّى عن عزمها وتسلم الأمر للقبلي. وتروي العجائز أن الخصمين الأبديين قد قاما من قديم الزمان بتقاسم الصحراء: فأصبحت الصحراء الجنوبية منطقة نفوذ القبلي. وفاز المطر بالحمادة الشمالية. ولم يخل الطرفان بالميثاق إلا في حالات نادرة. ما لبث أهل الخلاء أن حفروها في قلوبهم وأرخوا بها حياتهم في الصحراء. ويروى أيضاً أن أصوات الطبول التي قرعها المجهول في حبيبات الرمل ما هي إلا نداء الصحراء الرملية للمطر وحنينها الفاجع للماء والحياة. وفي بعض الأحيان يستمر هذا النغم الحزين ليالٍ متتالية. وكثيراً ما تحوّل عند الفجر إلى نحيب وعويل فيصليّ التقاة ويطلبوا من الله أن يلهم الرملة الصبر على مصيرها البائس. بعضهم يذبح الفرائين كي يغفلص الصحراء الجنوبية من الميثاق الظالم الذي حرمهم الحياة وسحاب المطر.

ولكن قلب الآلهة في السماوات لا يرق، ولعنة العطش أبدية. حتى في المرآت القليلة، البعيدة، التي يؤرّخ بها الأهالي حياتهم وجادت فيها السماوات

بالمطر، فإن ذلك حدث إما عن خطأ ارتكبه الأقدار وإما بسبب نزاع عابر بين الصحراءين الرملية والجبلية وأحياناً نادرة نجم عن عدوان مبيت وميت من أحد الجانبين. وفي مواجهات كهذه كانت الصحاري الرملية تشبع من الماء حتى تسيل الوديان وتفيض مرتفعاتها المغمورة بالغيبار. ولكن عليها أن تنتظر أعواماً قاسية إذا أسفر التلاحم عن غلبة القبلي. وقتها يفقد صوابه ويهيم على الصحراء لأسابيع وشهور وقد يتهاذى فيغزو مرتفعات الحمادة في حملات انتقامية تشمل جبل نفوسة وتجتازة إلى سهل الجفارة وتضرب سواحل البحار في الشمال فتشت فلول السحاب إلى سنوات طويلة.

فوق البئر فوجيء «أوخا» بقافلة كثيفة تتكأ فوق الجاية وتزاحم على الماء. أحاطت بالقافلة قبيلة من رجال الزنوج ذوي الأجسام النحيلة والوجوه الممضوعة. فريق منهم انهمك في اقتناء الماء من البئر، في حين اعتنى آخرون بالإبل ووزعوا عليها الماء. وصل أتباعه وزنوجه. طوّقوا الرابية المطلّة على البئر وكوّنوا جزاءً صامتاً من الرجال.

من قافلة الغرباء خرج شيخ وقور. طويل أيضاً وممضو الوجنتين. تقدّم نحو «أوخا» دون غيره. عدل لثامه وصمت طويلاً. تكلم أخيراً فقال إنه رسول الأميرة ويريد أن يقابل الزعيم.

(٤)

قالت «تامغارت» للعرّافة:

- أعجزني. يقول إن السهل عش الشياطين، والشياطين في رأسه. تعاوذك الفقيه المرحوم أضاعها رغم أي على يقين أنه أتلّفها عمداً. سمعت نصيحة الحكيمات وأردت أن أقيده بالجلل الوحيد الذي يمكن أن يشد رجلاً إلى الأرض: المرأة! زوجته بنت «آما». صبية شهية ولا ينقصها شيء إذا تغاضينا عن الخبرة. تركته يفلت قبل أن يكمل الأيام السبعة. وتحجج بالإبل

ومكث في تادرات شهرين . هل سمعت في الصحراء كلها رجلاً يهجر مخدع
العروس قبل إتمام الأسبوع ويهرب إلى الجبال؟

شدّت لحافها الأسود حول رأسها وقربت نحوها قفة السعف التي جاءت
بها ثم واصلت :

- قلت للبلهاء إن المرأة لا تحافظ على رَجُلِهَا بالجمال والدلال وإنما
بهايتين . . .

وضربت على فخذها العجفاوين بيديها حتى تهلّل وجه العرّافة الكئيب
بابتسامة خيثة . استمرّت «تامغارت» وهي تخرج محتويات السلّة وتطرحها
أمام الزنجية العجوز :

- والآن أريدك أن تكتبي له حجاباً ينزله من أبراجه في الجبال ويعيده إلى
الأرض والصواب .

همّت العرّافة بالاعتراض ولكن «تامغارت» لم تمنحها فرصة :

- ليس حجاباً مكتوباً . سوف يتلفه كما فعل مع حرز المرحوم الفقيه .
حجاب آخر يمكن أن يشربه مع الماء أو الشاي أو الحليب . شيء يأكله مع
الطعام .

راقبت العرافة ضيفتها وهي تفرش هديتها على قطعة قماش . قالت
بجفاء :

- لقد أقلعت عن تعاطي هذه الأشياء من زمان . أنت تعرفين .
ولكن الضيفة لم تسمع الاعتراض :

- البنت عادت إلى بيت أهلها ولم يرها منذ ذلك اليوم . طلبتُ منه أن
يذهب ويعتذر لأهلها ويستردّها ولكنه ركب رأسه . رأسه أكسح من الكبش
ومن الودّان . قال إن المرأة تقيد أقوى الرجال بسلسلة طولها سبعون ذراعاً . يا
حفيظ !

- ذاكِرتي صَدَّأتْ بالعجز وبصري ضعف بحجاب العميان. المدة
طالت. نسيت المهنة.

- إذا استمرَّ وملَكهُ الجبل فسأفقدّه إلى الأبد.

أزاحت قفة السعف جانباً وكشفت عن هداياها: زجاجة عطر ومراة
وبخور وأربع بيضات دجاج. «تامغارت» أول مَنْ تجاسر على تربية الدجاج في
الصحراء. فعانت من احتقار القبيلة طويلاً لهذا السبب. وعندما يتهيأ النجع
للرحيل كانت ترشو الصبيان بالبيض وبعود أخرى سرية كي يتعاونوا
ويقبضوا لها على الدجاجات في اليوم السابق على الهجرة، فتحبسها في سلال
السهف حتى الصباح لتحملها مع الأمتعة على ظهور الجمال.

وتامغارت اللثيمة تعرف أن العرافة تحب البيض أكثر من أي شيء في
الصحراء. فجاءت لها بأربع بيضات مقابل أن تقنعها في تدبير الحصن. قالت
مشجعة:

- الفقيه مات. وأنا لست ثرثرة.

- ظَلْتُ تحدِّقُ في البيض الناصع ثم مدَّت يدها وسحبت نحوها قطعة
القماش:

- رحم الله مَنْ مات. ولكني لم أخفهُ يوماً.

رفرت أطراف الخيمة وصفقت فجأة.

عصف العجاج. من زاوية الخباء مرق الدرويش.

٢ - شيخ الطريقة

«إياكم والأنبياء الكذبة، يأتونكم بشباب الحملان وهم
ذئاب خاطفة».

إنجيل متى

(١)

أول ما فعله الفقيه لزرع بذور الحقيقة أن شن حملة على المنجمين والعرّافين وشعائر المجوس .

جاء مع قافلة من مرزق عائداً إلى بلاده في «توات» وقال إنه من أتباع الطريقة القادرية هدفه هداية الناس إلى صراط الحرية . ولم يفته في تعريفه بنفسه التشديد على خلافه مع فقهاء السنّة . وقال للزعيم «آدّه» الذي استضافه في بيته : «أنا لا أشير إلى خلافي مع الفقهاء تقرباً لكم وتزكية لنفسي . لأنني أعرف ما عانته قبائل الصحراء على أيديهم من نهب ونشل باسم الدين ، ولكن الخلاف في المنهج . هم جرّدوا الدين من لغة الإيماء وترجموا التعاليم إلى لغة الحروف والشرع . أخرجوا الشيطان من معقله في النفس ودعوا البسطاء كي يطاردوه في الدنيا طمعاً في قتله فتمكّن منهم وفقدوا أنفس جوهرية وهبها الله لمخلوق وشكّل بها جوهر كل دين ؛ «الحرية» . ورأى الشيخ أن هذا الخطأ هو الذي قلب الآية فغلبهم الشيطان وقاد مسعاهم في الحياة فأفسدوا وتحولوا جميعاً إلى ثماريد وعاد الدين غريباً كما كان .

فرح به الزعيم ونحّر على شرفه الذبائح وأحاط به الشيوخ والوجهاء طوال ثلاثة أيام ورقّعت عليه صبايا القبيلة بالغناء والطرب البريء . وفي اليوم الرابع تشاور الزعيم مع وجهاء العشائر وطلب منه ، نيابة عنهم ، أن يبقى

معهم ليكشف لهم ما خفي عنهم من أمور الدين ويعلم أولادهم القرآن . طلب مهلة للتفكير . ثم استأذن في الذهاب إلى بلاده «توات» لإنجاز أشغال دنيوية على أن يعود بعد شهر للإقامة النهائية . شيعه النبلاء ووضعوا إبلاً عملة بالزاد والماء والعبيد تحت تصرفه ولكنه ما لبث أن عاد من منتصف الطريق . قال لتبرير قراره المفاجيء بالعودة أن أمور الدنيا لا تستحق شقاء الرحلة وعلى الإنسان أن يبدأ الخلاص من نفسه إذا شاء أن يقنع الآخرين بالصراط الجديد .

ولما كان أهل الصحراء يجهلون صراع الفرق في الإسلام فلانهم لم يفهموا ما قاله عن خلافه مع الفقهاء واستمروا بتلقيه بـ «الفقيه» . قرّر في البداية أن يربي أتباعاً . فعلم الأولاد القرآن وحرص أن يتلقوا التعاليم نقية دون وسيط . ثم قرر أن يخطو إلى الأمام فكوّن من مريدي الحقيقة فرقاً تساعد في تنفيذ خطة أعدّها لمحاربة البدع الجاهلية وشعائر المجوس . علّق في رقبة كل مريد حصناً وسلّطهم كي يرحموا العرّافة «تيميّط» بالحجارة . نصب خيمة خاصة فوق الرابية المطلّة على البئر واتخذها مقراً للذكر وتلاوة القرآن والاجتماع بمريديه . وكثيراً ما انبعث منها ضجيج الدفوف وأصوات المغنين وهم يترنمون بالأوراد الصوفية . ومن هذه الصومعة الإلهية ابتكر الفقيه أساليب الهداية لصراط الخلاص والحرية . فبعد أن نجح في التخلص من كهنوت العرّافة وأجبرها على اعتزال الناس والمهنة والإقلاع عن قراءة الغيوب وتحرير التائم الشيطانية ، أنزل مريديه إلى النجع لتنفيذ الخطوة التالية من الدعوة . فاجتمع قبلها بالأعيان والوجهاء في خيمة الزعيم «آده» وطلب منهم أن يبدأوا بأنفسهم إذا أرادوا الفوز بالفردوس . ارتبكوا وتبادلوا نظرات حائرة فقال شيخ القادرية :

- حان الوقت كي تتوقفوا عن غزو الدغل والنهر .

إزدادت دهشتهم فتكلّم الزعيم :

- وماذا سنفعل بدون سبايا وبدون عبيد؟

- كل مالك مملوك . وليس من حق مملوك أن يطمع في نعيم الحرية .
- ولكننا لا نصطاد السبايا والعبيد فقط في غزواتنا وإنما نبشّر بالإسلام أيضاً .
- لن يبشّر بالإسلام مَنْ يصطاد عبيد الله كالأنعام ليحوّلهم إلى عبيد لنفسه .

عمّ الصمت فمضى الشيخ في هجومه إلى أبعد :

- هذا لن يكفي .
- التفتوا إليه في استنكار فقال دون أكثرات :
- عليكم أن تعتقوا كل أمةٍ سبيّة وكل عبد منهوب .
- سكتوا طويلاً ثم تكلم الزعيم مرة أخرى :
- ما فات مات . عفا الله عمّا سلف .
- بل كل شيء مكتوب في لوح محفوظ .
- ولكن أكثر هؤلاء الأعيان اتخذوا من سباياهم خليلات ، وآخرون اتخذوا منهنّ زوجات على سنة الله ورسوله .
- السبايا محرّمات والزوجات مغتصبات بحدّ السيف .

عمّ وجوم طويل . ثم حاول الزعيم مرة أخرى :

- هل تريدنا أن نطلقهن ؟
- خير البرّ عاجله .
- ولكن الطلاق أبغض الحلال عند الله .
- أبغض الحلال عند الله عندما تكون الشركة برضى الطرفين أصلاً .
- وإذا رفض العبيد حريتك وطلبوا البقاء في عصمة السيد ماذا ستفعل ؟
- هل نجبرهم على تركنا ؟
- طبعاً . لا بدّ من إجبارهم . كل الناس تفضّل الاختباء في العبودية هرباً

من الحرية. الخلاص وِرْزُ كبيرٍ وعلينا أن نبدأ بالعبيد إذا شئنا أن نغيّر ما بأنفسنا ونبدأ العمل المقدس.

- تعاليمك قاسية.

- لن يذوق طعم النعيم مَنْ لم يولد مرتين. كل التعاليم الربانية قاسية.

وكما توقّع الزعيم الحكيم فإن تحرير العبيد لم يكن سهلاً. إذ رفضوا الحرية وتجمهروا في السهل. انضمت إليهم الزنجيات المطلقات يجرجرن أولادهن المهجنين وتوجّهوا إلى خيمة الأذكار. تظاهروا هناك وصرخوا باللعنات ورجوا بالحجارة. تصدّى لهم المريدون واشتبكوا بالعصي والهراوات والقبضات.

أسفّر الصدام عن جرحى وقتيل واحد. ابتهج خصوم القادرية من الوجهاء، ولكن الشيخ قرر أن يواجه الموقف بأنفس تعويذتين في الحياة أثبتتا نجاحهما في كل زمان ومكان: الصبر والحيلة.

خرج في الغد عندما تجمّعوا أمام الخيمة وخطب قائلاً:

- أعرف أن ليس هناك ما هو أصعب من الانتصار على النفس. ولكن لا تنسوا أن الجزاء لا يكون إلاّ بقدر العطاء. ولنا مثال في الصحابة. طلبوا الموت فكتب لهم نَعْمُ الحياة. إذا لم تولدوا اليوم فلن تولدوا غداً. . .

قاطعه أكثر من صوت:

- لا نريد أن نولد غداً. دعنا في يومنا وارحل عنا.

ولكنه واصل صابراً:

- خلّقنا أحراراً. . .

قاطعه بهتاف جماعي:

- لا نريد الحرية. إرحل عنا. نريد أن نعيش تحت رحمة أسيادنا.

- سيدكم الله. والجنة تحت أقدام الحرية.

- لا نريد الجنة، دعنا وارحل .
 - تقولون هذا لأنكم لم تذوقوا الحرية . أمهلوني أسبوعاً وسوف ترون
 بأنفسكم كيف تُبعثون .
 عمّ الصمت لحظات . همّ بأن يستمر ولكن امرأة ماردة صاحت وهي
 تلوح أمام وجهه بطفل يبكي :
 - يَتمت أطفالنا وحرمتهم حنان الآباء .
 وتبعها أخرى :
 - نريد أن نعود إلى أزواجنا .
 سكت الشيخ فسمع نحيباً ولعنات . أيقن بقساوة ما أقدم عليه ولكنه
 قرّر ألا يعود من منتصف الطريق . رأى العرّافة بينهن وسمع صوتاً فاجعاً :
 - نريد أن نعود إلى عشاقنا . لا نريد أن نذهب إلى جنتك بالسلاسل .
 مسح وجهه بكلتا يديه وتمتم بيأس :
 - أعوذ بالله . اتقوا الله . لا حول إلا بالله .
 كاد ييأس ويسلّم بالهزيمة لو لم تهرع لنجدته زوجات الوجهاء .

(٢)

تاريخ الشقاء بين النساء النبيلات يعود إلى غزوة قام بها الزعيم إلى
 الأدغال . وكثيراً ما أرّخن لبداية نكبتهن بذلك اليوم الحزين الذي وُصل فيه
 رسوله يمتطي صهوة مهر أبلق ضامر كالغزال ليأخذ جملاً بقرب الماء ويستقبل
 به المقاتلين الذين يبعدون عن النجع مسافة يوم واحد . وقد فهمن من تجارب
 سابقة، عندما كان الفرسان يعودون من الغزوات ضد القبائل الأخرى، أن
 الفارس الرسول إنما جاء لينبئهن بموعد وصول الفرسان حتى يعطينهن الفرصة
 لترتيب مراسم الاستقبال للرجال الظافرين . فيسارعن لتخضيب أيديهن
 وأرجلهن بالحناء ويتغسلن ويدخن أجسادهنّ بالبخور والزهور البرية ويتطين
 بعطر «تيديت» النادر يستعرنه من بعضهن فتطوف الزجاجة، المخبأة

خصيصاً لمثل هذه المناسبات، على كل النساء المتزوجات في المجتمع. فمن
بهذه الطقوس أيضاً في ذلك اليوم.

ارتدت كل امرأة أفخر اللباس. «الرفيعة» الناصعة، فوقها ثوب
«الطاري» الأزرق ثم رداء «تامبركامت» الأرجواني. في الأصابع المخضبة
بالحناء لملت الخواتم الفضية. في الأذان تدلّت الأقراط، وفي المعاصم
الرفيعة استقرت الأساور. وقلائد الخرز الملون استقرت، يومها، في كل جيد.
وحرصن على التخلص من حلي الذهب تحسباً للسوء الذي يجلبه المعدن
الشيطاني. أعددن الطبول وهيّأن الستهن للزغاريد وحنجرهن لأغاني الحنين
الحزين.

خرجت الجموع مبكراً وتحرك الموكب الجليل عبر الروابي العارية ووديان
الطلح، إلى الجنوب حيث تتناول قمم «آكاكوس» نحو السماوات. وكانت
دهشتهم عظيمة عندما شاهدن حصيلة الغنائم: فإلى جانب قطعان الإبل
والأبقار والأغنام سار قطع آخر من الزنوج والزنجيات في طابور طويل يهشه
عدد من الأتباع المردة كما يهش أتباع آخرون قطعان الماشية المنهوبة. فهات
أغاني الشوق على شفاههن.

استيقظ وحش الغيرة. إذ ليس صعباً على امرأة، ترى حتى في ظل
الرجل ضرة تنافسها على امتلاكه، أن ترى ما يمكن أن تشكّله الحبشيات
الفارعات، كنساء الأساطير، من خطر على رجال خبيرن فيهم ضعف
النفوس، فتترأى لهم طلحة فرعاء في ضوء البدر حورية هيفاء من حريم
الفردوس.

تقاسموا الغنائم وتخاصموا طويلاً على السبايا. تدخل الزعيم وورّع
الأنصاب بحكمته. قال: «العدل يقضي أن يكون الحكم للقرعة فهي القانون
الذي لم نسمع أنه ظلم أحداً في الصحراء». اهتزت العياملات المنفوشة
بالموافقة وارتحت القبضات على مقابض السيوف فواصل الزعيم: «كل سبية

يقابلها ثلاثة رؤوس من العبيد . فهل من اعتراض ؟ على بركة الله .

انتهت القسمة وبدأت متاعب النساء .

في اليوم الثالث على العودة دعا الزعيم أحد الفقهاء الجوالين وعَقَدَ له على سبيل حشيشة ماردة . رأى الرجال في ذلك افتتاحاً للمباراة فتسابقوا للدخول على أسيراتهم على سَنَةِ الله ورسوله وعلى مرأى ومسمع من زوجاتهم وأولادهم .

هكذا شَقَّ الشقاء طريقه في نفوس النساء النيلات السعيدات .

(٣)

وما أَنْ سمعن بدعوة الفقيه لتحرير النفس والعبيد حتى كَبُرْنَ وابتهلن لله أن ينصر هذا المهدي الذي انتظرنه طويلاً كي يأتي ليعيد الرجال إلى العقل والصراط ويحررهن من استبداد الضرّات الزنجيات .

قام عدد منهن بزيارة خيمة الأذكارِ فقالت زوجة أحد النبلاء :

- كنت أتوهم أني حرة ونبيلة ولم أظن يوماً أن تستعبدني زنجية سبيّة !

أيدها رفيقتها :

- كنا نظن أننا سيدات فأصبحنا مستعبدات ذليلات !

هتف شيخ الطريقة مواسياً :

- أَسْتَغْفِرُ الله . ما نحن جميعاً إلاّ عبيد للواحد الأحد .

بكت صبية حسناء تبدو حديثة العهد بالزواج واشتكت :

- . . . إلاّ نحن ، فعبداً للعبد .

- حاشا الله .

وعادت المرأة الأولى تحرّض :

- هل يرضيك أن تصبح الحرّة عبدة لعبدة ؟

- لا سمح الله. الحرية ديني. ولكن ما أشقى أن يتحرر الإنسان.
- سنقف معك. سنضع ما غلك تحت تصرفك. إذا أمرت أطعنا. فقط
هون علينا وحرّم الزواج من سبايا الأدغال. نسلنا النبيل مهدد بالزوال في
الدم الزنجي يا سيدنا.
- سبق وقلت كلمتي جهاراً في هذا الشأن.
- الله ينصر دينك يا سيدنا الفقيه!
ردّد الوفد السري في أغنية شجّة:
- الله ينصر دينك يا سيدنا الفقيه. خلّصنا الله يخلصك من كل عدو
كاره. آمين.

وشهرن أيدهن لقراءة الفاتحة.

هذا ما ترويه الأساطير عن ذلك الاجتماع الخفي. ولا أحد يعرف عمّا إذا
كان ثمة بنود سرّية أخرى في ذلك الميثاق، أم أن ما تردد في النجع مجرد
مبالغة أخرى من مبالغات كثيرة اعتادها الناس من الرواة.

اليقين أن العطايا تدفقت في اليوم التالي على بيت الأذكار. فتلقى
الأساور والأقراط ومصنوعات الفضة. وجاءه الأتباع والمريدون بالتموين
والأغذية. متاريس من أكياس القمح والشعير والقصب والذرة والتمور.
وأقبلت الصبايا يحملن قصع الكسكي على الرؤوس. ولا يعرف أحد حتى
اليوم أي تعويذه استخدمتها السيدات النيبلات حتى استطعن أن يقنعن جيش
العبيد بالطاعة للفقيه والقبول بواقع التحرير. وأجمع الجميع على استبعاد أن
يكون للعرّافة دور السحريّ لما عرف عمّا بينها وبين الفقيه من عداوة.

أقام الشيخ معسكراً لأنصاره الجدد في العراء الممتد وراء البئر، وبعد
أيام فوجيء به النجع يقرأ الفاتحة ويزفّ أربعة عشر شاباً من مريديه
ويدخلهم أزواجاً على المطلقات الزنجيات. واستمرّ يعقد الزيجات حتى فاز
أغلب الأتباع بأشهى النساء ولم يبق إلا عدد قليل من الحبشيات المتكبرات

تطوعن لخدمة بيت الأذكار وتوسّلن إليه أن يتخذهن جواري. وترددت شائعات عاصفة تقول إنهن كنّ له مجرد محظيات. وأيقظت هذه الشائعة الوحشية غير النبلاء وأزواجهن السابقين فطلبوا من الزعيم أن يسمح لهم بالاحتكام إلى السيوف. ولكن الرجل الحكيم أحجلهم بعبارة هادئة: «مَنْ قبل أن يكون طرفاً في اللعبة منذ البداية فعليه أن يتحمّل النتائج في النهاية».

ولكن المفاجآت لم تنته عند هذا الحد. فما أن فاقَت القبيلة (رجال القبيلة خصوصاً) حتى تلقّى الوجهاء ضربة اعتبروها أقسى من كل الضربات.

(٤)

أدركوا منذ البداية أنه يتعمّد ضرب كبريائهم. إذ استدعاهم إلى بيت الأذكار في موقعه الجديد وسط معسكر الأنصار، وأجلسهم على الأرض في مدخل الخيمة. لم يجرؤ أحد أن يحتجّ. ربما لأنهم شعروا أن مجرد الاحتجاج سوف ينزلهم درجة أخرى في سلّم الانحطاط. لأن الإهانة لا تكون إهانة موجهة لك إذا لم تلاحظها وتوجّه اهتمام الناس إليها. هذا ما يقوله قاموس النبل. سكتوا على عارهم وتحمّل الزعيم، صابراً، الجلوس في العراء بجوار الوُتدِ في بيت الأذكار. بل لم يفهم أن يلاحظوا الابتسامة التي لم تفارق شفثيه طوال الجلسة.

قال الشيخ تمادياً في التعذيب:

- لا تظنّوا أنني أسيء معاملتكم عن جهل بمراسم الضيافة ولكن تعمّدت أن أجلسكم على الأرض في مدخل الخيمة حتى تذوقوا ذلاً كان بالأمس أهون ما يتلقاه منكم عبيدكم وأتباعكم.

الإشارة إلى الذل تأكيد على الذل. العار لحقهم إلى الأبد. حاول الزعيم أن ينقذ الموقف بحكمته.

- أنا أرى أنه لم يلحقنا أي ذل حتى الآن. والجلوس في العراء بين

أتباعنا وعبيدنا كان من شيمتنا دائماً. نحن يا فضيلة الفقيه على استعداد أن ندفع أي ثمن خلاق بأن يمرر أرواحنا ويعلمنا أصول الدين.

هتف الشيخ :

- أحسنت. أحسنت. أنا لا أعرف لماذا لا تأخذوا العبرة وتحتذوا بسلوك الزعيم الحكيم؟ أول ما يجب أن يتجرّد منه المؤمن بدين الحق والخلاص هو التكبر والكبرياء. الكبر لله في السماوات والتعالي على العباد من شيم الشيطان الرجيم. لن يذوق طعم الخلاص رجل في قلبه ذرة من كبرياء أو غرور.

سكت فتبادل الوجهاء النظرات. استمر بعد زمن قصير:

- مع العمامات المنفوشة وثياب الطواويس سيكون لنا شأن في المستقبل القريب. أما اليوم فقد استدعيتكم لأمر أهم.

جاءته جارية حبشية بقدرح من الحليب. شرب جرعتين ومسح شفثيه بطرف زمالته الهزيلة. قال:

- طهرتم بيوتكم من الحرام وعليكم أن تطهروا أموالكم وتؤتوا الزكاة. تؤثر الصمت بأعصاب مشدودة. جاءت جارية فلأتية ووزعت الشاي. لم يستطع أحد أن يتناول مجرد رشفة. غرسوا الكؤوس أمامهم في التراب وحذقوا في فقاعات الرغوة منكسي الرؤوس.

في النهاية تشجّع الزعيم. تدخّل:

- الحق أننا لم نقعاس عن أداء الفريضة يوماً. وكنا نؤتي الزكاة في كل عيد.

تكلم الشيخ كأنه كان ينتظر هذا الجواب:

- زكاة الأعياد شيء وزكاة تطهير المال شيء آخر. بذل المال أحقر البذل لمن أراد أن يخلص روحه من الشيطان. ولا أعتقد أن فيكم غنياً واحداً ييخل بماله في سبيل الله.

أدخل يده في جيبه وأخرج قرطاساً وقرأ منه تفاصيل القانون المدهش الذي سنّه لإنشاء بيت المال، وتنظيم الضرائب على الدّخل والمواشي، وأتاوات جديدة قرّر أن يضعها على قوافل التجارة.

(٥)

هال النبلاء مصير القبيلة وأحزنهم أن يروا القانون الجائر وهو يأخذ طريقه إلى التنفيذ فتنتقل السلطات الفعلية إلى الشيخ الداهية. ونُبّهوا إلى أن في تنفيذ هذا القانون عدوان على سلطان الزعيم وسلطانه، ولكنه قال لهم في خيمة الاجتماع:

- لا يقف في وجه السيل إلاّ مجنون!

كان أكثرهم صبراً على البلاء فتحدّث طويلاً عن ضرورة التضحية بكلّ الأملاك في سبيل الخلاص والفوز بالجنّات. لم يرهبه انكسارهم ولا الهزيمة التي تنطق بها عيونهم. استنكر أحدهم:

- أعطيناه أولادنا ليعلمهم القرآن وأصول الدين فصنع منهم أتباعاً له ومريدين.

وافقه ثان:

- صنع منهم جيش الأنصار ليحاربونا.

هتف ثالث:

- ألّب علينا العبيد وأجبرنا على تطليق زوجات غنمناها بحدّ السيف. الدين يقول: «وما ملّكت أيمانكم» فكيف يدّعي الدعوة لدين الرسول من يحوّض على أبغض حلال عند الله؟

ابتسم الزعيم فاشتكى رابع:

- لم يكفه هذا كله فتهادى وسرق منا الزوجات!

- يا للعار!

تشجع المتطرفون فهتفوا:

- لن يقف في وجه الدّعي إلّا السيف. لن يحو هذا العار إلّا الدم.

تكلم أحد الشيوخ الوجهاء فحرّض قائلاً:

- بل أغفلتم أفعالاً أكثر خزيّاً. أنسيتم أنه ينوي نهب أموالنا بعد كل

هذا؟

عمّ صمت طويل. ثم اندفع شاب يتوّج رأسه بعمامة فخمة:

- وأسوأ من كل هذا أنه يريد أن يجرد رؤوسنا من الأقنعة بدعوى محاربة

التكبر والمكابرين. أفضل الموت على أن أسير في النجع حاسر الرأس كعبيد
الأدغال.

عاد الوجه المهيّب يقول:

- الحق أنه لم يبق ما يدل على أننا رجال!

ثم التفت نحو الزعيم:

- كيف تريدنا يا جناب الزعيم أن نسكت على هذا؟ نحن الآن عبيد

وأسوأ من أعبد العبيد.

أجاب «آده» بهدوء وهو يركع فوق رموز يرسمها بإصبعه على التراب:

- وهل كنتم تطمعون في الفرووس بدون ثمن؟

صرخ أحد المتطرفين:

- لا نريد فردوساً ثمنه الهوان. الموت أشرف.

فرددت أصوات يخنقها الغضب:

- ضاع الشرف. الموت أشرف.

في هذه اللحظة العvisية نهض رجل كان يجلس في الزاوية، صامتاً طوال

الاجتماع. تقدّم من الزعيم وكشف سرّاً:

- منذ أيام قابلت فقيهاً في مراعي «تاسيلي». هل تدرون ما قال عن دين فقيها؟

رمى الوجهاء بنظرة شاملة ثم همس:

- قال إنه يدعو لدين المجوس.

تساءل الزعيم بدهشة:

- دين المجوس؟!!

ولكن الوجهاء عجزوا عن التعليق.

(٦)

وجد الزعيم نفسه وحيداً، معزولاً مهملاً، فاستأذن من شيخ الطريقة للهجرة لصحراء الحمادة. أمّا الشيخ نفسه فاستولى على طرق القوافل وضاعف الأتاوات على التجار وحارب القبائل الأخرى وقام بغزوات إلى الأدغال وسلب السبايا والعبيد والقطعان. ولكنه ارتكب خطأ خفياً.

قيل إنه قبل هدية من تجار إحدى القوافل القادمة من «تينكتو». وكانت الهدية صندوقاً صغيراً مليئاً بتر الذهب. ولا أحد يعرف حتى اليوم كيف فات الشيخ الحكيم أمر هذا المعدن الشيطاني المنحوس. وردّد بعض اللّؤماء رواية تؤكّد أن العرافة هي التي دبرّت له هذه المكيدة. ولم يكن التاجر إلا وسيطها السري لتسليم التعويذة السحرية في يد خصمها القديم. ولم يكن الأهالي ليحيطوا الصندوق الغامض بهذه الهالة الجليلة لو لم يعامل الشيخ نفسه هديته كتعويذة، يحملها معه أينما ذهب. ويدسّها تحت الوسادة عندما يهجع للراحة أو يخلد للنوم. وكثيراً ما شاهدته الأعوان والمريدون يخجّء الصندوق تحت عجيزته أثناء جلساته الشعائرية في بيت الأذكار. وما أدّھش الأتباع أنهم لم يعرفوا في شيخهم المهيب حبّ الكنوز أو الاكتناز، بل إنه كثيراً ما يلعن المال وعبدّة المال ونُقِلَتْ عنه أقوال تصف المعدن الأصفر بأنه أصل بلاء العالمين. احتار المريدون في أمر الصندوق وكثيراً ما قالوا إنه يخفي سرّاً غير تبر النحاس!

إلى أن جاء يوم الخروج إلى «تيمنوكالين». وهو اليوم الذي ضربت فيه القوى المجهولة المملكة الأسطورية وأزالها مرة واحدة. وكل من بقي على قيد الحياة بعد تلك المعركة العجيبة تدرّوش وفقد العقل أو لزم الصمت الأبدي وأصيب بفقدان الذاكرة.

واليوم المشهود سبقته استعدادات شاملة لغزوة وصفها الشيخ بأنها ستعبر تاريخ الصحراء. ولكنه تكتّم على التفاصيل كعادته عندما يتخذ قراراته المصيرية.

وكثيراً ما اعتبر أعداؤه هذه السياسة (التكتّم والتعتيم) سرّاً نجاحه. وحتى في تلك الغزوة، التي لم تكتُب لها القوى الخفية أن تتم، كان المقاتلون يظنون طوال الوقت أنهم سيتحركون جنوباً، نحو الأدغال، ولكن الشيخ فاجأهم في آخر لحظة بالخطّة. أعطى الأمر للعودة على الأعقاب والتوجّه إلى الشمال الغربي. وعند الجبل الضال، «ايدينان» المسكون، انفصل الجيش إلى قسمين، حاصرين في مسيرتهما الجبل المعزول الغامض، ووضعوا الأبراج الساوية المقامة على قممه بين فكي كباشة من طابور بشري لا ينتهي، مثقل بأثقل أسلحة الصحراء، يتدفّق في الخلاء نحو عدوّ مجهول.

توقّفت القافلة فوق بئر «تيمنوكالين» وأمر الشيخ بالتزوّد بالماء وإعطاء الفرصة للدواب كي تلتقط أنفاسها وتزوّد بالماء أيضاً استعداداً لمواصلة الرحلة الخفيّة.

في هذه اللحظة سمعوا هديرًا وهبّة عاصفة مفاجئة وبدأت المذبحة. أعداء مجهولون، لم ير وجوههم أحد، ولم يتمكن أحد من الدفاع، أعملوا فيهم السيف وذبحوهم كالخراف. وكان الشيخ أول المقتولين. لم يستطع أحد أن ينجو بالحرب. وحتى أولئك القليلون الذين نجوا كانوا شبه أموات. إذ يُعتقد أن جيش المجهول مشط الجثث بحثاً عن الجرحى الأحياء. فكانوا حريصين أن يجهزوا على الجرحى الذين بقت في صدورهم بقية من حياة. ولم

يعرف أحد هوية هؤلاء الجند، ولا ماذا يريدون، وعمّا إذا كان الشيخ قد حشد الجيش لمحاربتهم أم أنهم أعداء آخرون. وما حيرَ الشيوخ الذين بقوا في المضارب ومنعهم المرض والشيخوخة من الالتحاق بالجيش، أن الأعداء لم يتركوا أثراً. إختفوا كما جاءوا. نبتوا من فراغ وعادوا إلى الفراغ. شيء واحد أثار اهتمام الناس: اختفاء الصندوق!.

ولم يكن غريباً أن يرجعوا سبب النكبة إلى الهباء الملعون.

(٧)

عاد الزعيم «أده» من منفاه في الحمادة. جمّع ما تبقى من أتباعه القدامى ومن بقي على إخلاصه من الأعوان والشيوخ واجتمع بهم أياماً. عاد إلى السهل المهاجرون والمنفيون المشتون في الصحراء، وحكم الزعيم بالعرف الصحراوي والتقليد القديم.

٣ - الرسول

(١)

العمامة الشفافة التي يتنّع بها «ايدينان» الضال ازدادت قتامة ونزلت من
البرج السماوي الأول إلى البرج الثالث فجردَ القبليّ الجبل من جلاله وغموضه
وغطرسته وأجبره أن يتحلّى بالتواضع ويتشبه بقرينه الجنوبي الأقصر قامه.

حامت فوق السهل سحابة من التجهم والعبوس استمرّت أياماً قبل أن
يتمخّض الأفق عن الهباء والغبار. هبّت ريح متقطعة، مجرّدة من الذرات،
متغيرة الاتجاهات، في اليوم الأول، وظلّت حبيبات الرمل معلقة في الأجواء
العليا ولم تهبط من سهاواتها المجهولة إلّا في اليوم الثاني. قوّضت الريح الأولى
الخيم في المنتجع وطيرت الأردية والعمامات المنفوشة. غمرّت الأفواه والأذان
والعيون وصرعت العجزة والأطفال وشتت قطعان المواشي.

في الصباح نفذت مكيدة قديمة وبدأت في دفن البشر.

في المنخفض، حول الفوهة، تحلّق عدد من الرجال. بعضهم تعلّق
بسلم الليف وتدلى داخل البئر وتداولوا قفّة لتفريغ التراب النديّ من القاع
المغمور بالرمل، وتجمّع فريق آخر في الخارج يقيم التحصينات ويبيّن طوقاً
مدوراً حول الفوهة يشبه قبور الأولين المستديرة. من المنخفض انطلق نحو
الجبل الجنوبي طابور طويل من العبيد والأتباع يشمّرون عن السواعد

ويتعاونون في اقتناء الأحجار وتسليمها لبعضهم فتتناقلها الأيدي وتجلبها إلى تجمع المنخفض.

على الرابية وقف «أوخا» متلفعاً بثيابه الزرقاء، يمسك بيده مقبض السيف ويتابع خلية الرجال مثل شبح من الجبل المسكون. تنفخ الريح لباسه الفضفاض فتدفعه إلى أسفل ثم تعيده إلى الوراء نحو المرتفع في غزوات استفزازية، ولكن يده اليمنى لم تتخل عن مقبض السيف كأنه يتأهب لأن يشهره في وجه الريح.

زحفت عتات المساء ولكن الريح استمرت.

تقدّم رجل بائس يرتدي عمامة سوداء هزيلة عقرها الغبار. وقف بجواره دون أن ينطق بكلمة. وقفا متجاورين صامتين، في عتمة العجاج والمساء، مثل جبل «ايدينان» وقرينه الضال في الشمال.

مضى وقت طويل قبل أن يحسّ الشاب المنفوش برهة خفية ويعرف في الشيخ البائس رسول آير.

(٢)

في الجانب الآخر من السهل، على طول العراء المجاور لـ «ايدينان» الجنوبي، تطاول عبيد الأميرة في السماء وبدأوا في تشييد البنيان أيضاً. انتشروا على السفوح منذ صباح اليوم التالي للوصول وبدأوا يصففون الأحجار بجوار المضارب. احتجبت الأميرة في الحباء وتعاون الزنوج في تثبيت أوتاد الخيمة الجلدية الكبيرة الموسومة بنقوش الزينة ورموز التعاويذ. في الليل طوّفها الريح بحزام من الرمال فجاء الأتباع في الصباح بالجمال وأفرغوها في الغرائر ثم عادوا بالجمال وعقلوها في طوق لحماية الخيمة من غزوات الغبار ورجعوا إلى الجبال لاستجلاب صخور البناء.

جئمت الجمال الصبورة تجرّ وتصفني لصفير الريح في العتات. هرول

الرسول بين السهل والسفع وتفقد النشاط وسير العمل .
بعد يومين استقبل قافلة جديدة قادمة من آير . فاضت الصحراء بأشباح
الرجال .

(٣)

في الخيمة خيم السكون وبدأت شعائر الاجتماع .
هدأ القبلي وارتفع اللهب ورائحة الشواء .
سعل الزعيم مرتين قبل أن يختم مراسم الاحتفاء ويمارس صلاحيات
الزعامة .

أحكَمَ القناع الأزرق حول وجهه وقال :
- بلغني أنكم تطلبون الإذن بالجوار والاستقرار ؟
تابع الرسول مثلثات الكلم بسبابته النحيلة وأجاب بعد صمت جليل :
- حق .

أقبل أحد الأنباع وطاف على الحاضرين يوزع الدور الأول من الشاي .
رشف الزعيم ووضع الكأس بجوار الركيزة . قال :
- ولكننا قوم لا نطبق الاستقرار في مكان ولا يطيب لنا المقام بأرض .
اليوم في سهل «ايدينان» وغداً في الطريق إلى «تادارات» وقد نهاجر إلى الحماة
في أقصى الدنيا إذا هبّ البحري وبشرنا بالمواسم الممطرة . هذا قانون قديم .
سكت لحظة ثم سأل فجأة :

- هل تستطيعون إقرار هذا القانون ؟
- حكم الضيف في يد المضيف ، وقانونكم يسري علينا منذ اليوم .
- ولكن أميرتكم تورطت في البنيان . هذه مخالفة صريحة للقانون .
البنيان يعني استقراراً ، والاستقرار يعني الاسترخاء والقيد والعبودية . هذا
هو الناموس .

- لم نفعل ذلك إلا لتتقي شرّ الريح . القبلي لعنة تطاردنا يا سيدنا الزعيم
والله على ما أقول شهيد .

- هذا فال يجلب السوء في عرفنا . إذا طلبت النجاة من الريح أو المطر أو
الشمس بالبنان صنعت لنفسك حبساً دون أن تدري . تهرب من شرّ صغير
فتقع في شرّ أشر .

- لا بدّ من فعل شيء .

- الدين نفسه أذان العناد والمعاندين والله قال إنهم من أخوان الشياطين .

- وقال : « قل اعملوا . . . » أيضاً .

- ولكنه لم يقل اعملوا ضد رُسُلِهِ وآياته .

تابع الرجال المباراة باهتمام . في الركن جلس الإمام ولكنه لم يتدخل .
طاف عليهم الأتباع بالكبد المشوي مغروساً في أعواد طويلة محروقة بالنار .
قال الرسول بتسليم :

- حدّثني تجار القوافل كثيراً عن حكمتك كما أشادوا بفلسفتك في
الإمساك بالعصا من الوسط .

- لو لم أفعل ذلك لما وجدتني أجلس أمامك الآن .

- نعم . بلغتنا الأخبار عن مخلوقات أرادت لكم الاستقرار وبشّ المصير .

تبادل الرجال النظرات من تحت العمامات . نكس الزعيم رأسه وصمت
طويلاً قبل أن يعلّق :

- تقصد بليتنا في شيخ الطريقة ، توقّعت أن تأتي على ذكره .

- لم يكن في إيمائي ظل من سوء النية . يعلم الله ، ولكن نفوذه وصل آير
وأضاع . أذلّ شعوباً وقبائل وعانت من غزواته الأدغال وبلاد السودان .

- مغامر إدّعى أنه من أتباع القادرية ، وعدّنا بتحرير النفس من سلطان
الشیطان فمكّنه من أنفسنا وسمحنا له بأن يرينا أصول الدين ففسّد وأفسّد ،
انحرف واستعبد .

- كما يحدث في الحياة .

تابع المثلثات البيضاء فوق الكلمة التواتية بسبابة وأضاف :

- يبدأ أصيلاً وعادلاً وينتهي إلى الضدّ.

عَوَّثَ الريح مرة أخرى. عَمَّت الصحراء العتَمَات. قال الزعيم :

- لماذا ينتهي كل شيء إلى الضدّ؟ الأصالة إلى زيف والعدالة إلى فساد.

سبحان الله .

لم يتدخل الإمام. استمرّ الضيف :

- صَدَقْتُ. الخير ينحرف عن الطريق ما أن يتحوّل إلى طريقة. الخير خير

ما يَبْقَى بكرةً طليقاً يَسْرَحُ في البرية على هواء، فإنّ مسّته يد بني آدم وتبّنته

طريقة انقلب. كالماء والهواء. إذا حبست الماء ركذ وإذا سجنت الهواء فسد.

هتف الزعيم بحماس مفاجيء :

- ينصر دينك. هل أنت عرّاف؟

ولكن الرسول لم يبال بالسؤال :

.. كنز مختم بطلمس. الخير سرّ تغرّب عنا منذ تغرّبنا عن أنفسنا.

عاد الزعيم إلى حماسه :

- فهمتك. السرّ في تلك الثمرة التي كانت سبباً في إخراجنا من فردوس

«واو» أم أنني أخطأت التقدير؟

رمقه الضيف بنظرة غامضة في ضوء النار الخافت فعاد الزعيم يبلّخ :

- هل أنت عرّاف؟

ولكن الضيف قفز إلى عهد الشيخ البائد :

- بلغني أنكم تحلّيتُم في المحنة بصبر الأنبياء.

أحنى الشيخ رأسه وعاد يستند بمرفقه على الوسادة بجوار الركيزة. قال :

- ليس في ذلك بطولة. كل ما في الأمر أني وجدت نفسي مضطراً

للاستحباب فهاجرت. إذا لم تستطع أن تواكب الموكب فالأجدر أن نخي الهامة

حتى تمرّ العاصفة.

- أهل الوسط في نعيم.

في الزاوية تلملح الإمام . سحب لثامه الأبيض إلى أعلى فلمعت عيناها
بنظرة خفية .

(٤)

توقفت الريح عن العواء .

هَجَعَ النَّجْعُ فخرج الزعيم لتشجيع الرسول . سار إلى جواره صامتاً ،
يدحرج الحجارة بنعله ويردّد التعاويذ . صعدا رابية تشرف على بنيان
الوافدين . توقّف فجأة وباغت ضيفه :

- بلغني أنكم ارتددتم عن الدين وضللتكم الصراط .

القناع والظلمات : حجابان تعاونا على إخفاء سرّ أراد الزعيم أن يقرأه
باستفرازه . انتصب بينهما صمت ومناهة من العتمة . عبثت موجات القبلي
بالأقنعة وفضفضت الثياب . عاد الزعيم :

- هذا يثير قلقنا . لا أخفي عليك .

طالت المواجهة . أضاف الغبار للظلمات ستاراً آخر . انهار الرسول
وتفرّص فوق الرابية . انتظر الزعيم لحظات ثم جلس على رؤوس أصابعه .

قرر الضيف أن يفتح قلبه :

- لا أنكر أن شعوباً وقبائل ارتدّت بعد انتشار الدعوة واختفاء التبر من
الأرض . ولكن ثمة قلة استطاعت أن تثبت على الصراط وإن عملت
لدنياها .

- لم يجتمع مال مع الله في قلب عبد .

- اختفاء الذهب فجيعته أزهت ضعاف النفوس فارتدّوا . أمّا نحن
فرضينا بالقليل وهاجرنا بديننا . ألم تقل إن الحكيم مَنْ يخي الهامة عند هبوب
الزوبعة ؟

- لا أنفي أن المنفى حجاب المظلومين . ولكن لا تنس أن التبر سحر من
صنع الشيطان .

- لا أجهل عداوتكم لهذا الهباء برغم أن الفضل يرجع له في تخليصكم من الشيخ وطريقته ولكن النذر القليل رزق دنيوي يقوي الإيمان والدين .
- ما أسكر كثيره فقليله حرام . رأي الشرع في الحلال والحرام أوضح من الشمس .

اندفعت الريح في غزوة مفاجئة . نفث الثياب الفضفاضة وعبث بقناعيهما .
وقفا صامتين يعاركان العاصفة . قال الزعيم :
- لا يسعني إلا أن أرحب بالمهاجرين . ولكن لن أحيّد عن رأيي أيضاً :
لم أسمع يوماً أنهما اجتماعاً في قلب مخلوق .
لم يعلّق الرسول . استمرّ يعاند الريح فأضاف الزعيم :
- . . الله والتبر .

ضاعت الكلمات في غبار القبلي وظلمات الفلوات .

(٥)

في طريق العردة مرّ بجوار البشر . تناوب الرجال فوق رأسه واستمرّوا يقاومون موجات الرملة . تجنّبهم وانحرف يمينا . صعد عدداً من الروابي قبل أن يبلغ السفح الجنوبي . هناك أيضاً سهر الرجال . تطاولوا في البنيان وتناوبوا على العمل . يوقدون المشاعل والنيران ، تطفئها الريح فيعاودون إشعالها في عناد . تحت صخور السفح القاسية قامت جدران حجرية مسقوفة بسعف النخيل وأعواد الطلح كما اصطفت أبنية أخرى في طور الكمال .

عبر أكوام حجارة ومشاريع شوارع وجدراناً يتسلقها العبيد والأتباع كالذباب . يترأّون تحت وميض الأضواء المتلامعة ، كأشباح شريرة . دفعته موجة مفاجئة فراجع إلى الوراء حتى حاصرته إلى جدار حجري قصير القائمة . غرّزت أنفه رائحة حادة . ثبتت عمامته بيديه حتى عبرت موجة الغبار . ازدادت الرائحة شراسة وحدة . شعر بالغثيان . التفت فوجد فوق رأسه زنجياً مارداً يشدّب حجراً بالفأس ويحاول أن يسويّه على الحدار بعناية . سدّ أنفه بطرف

قناعه وقفز إلى الجدار المقابل. بصق اللعاب ممزوجاً بالتراب ودخل إلى بيت مسقوف بالنخل والطلح. من الخارج تعلوه ألواح رقيقة من الحجارة. أمّا من الداخل فامتدّت خيمة جلدية موسومة برموز السحرة وتعاويز العرافين، لتشكّل بطانة السقف.

قُسّم الخباء من الداخل بستائر متعددة من البسط التواتية والأردية الجبالية الملونة. من أقصى الخباء انبعث ضوء. وقف وأعلن عن وصوله بالسعال. بعد لحظات مرق شبح في العتمة. شبح امرأة عجوز يقتفي أثرها زنجي بائس يرتدي عمامة رمادية. وقف بجوار الجدار الحجري وحدّق نحوه في العتمة ببصر خفي. انتظر أن يتكلّم فلم ينبس. أشاح بوجهه نحو بصيص النور فاختنفى الشبح. خرجت «تينيري» من خبائها فسأل:

- ماذا تفعل الجنيّة هنا؟

ابتسمت في الظلمة قبل أن تجيب:

- لا يعيب الغريب أن يتسلّى ويسامر الناس.

جلس فوق كومة من الرمل مفروشة بكليم وقال بخشونة:

- تعرفين أيّ لا أحب العرافين ولا العرافات!

- ولكنها عرافة ليست ككل العرافات. تعزف على «أمزاد» ونقول الشعر.

- لن آمن جانب عرافة حتى لو تمتعت بمواهب الآلهة.

جاءت الجارية فسألت الفتاة:

- هل أشعل النار؟

تجاهل السؤال وقال بلهجة أخرى:

- هنيئاً بالإقامة. فوز وبشارة!

أمرت الجارية أن توقد النار. دخلت إلى الخباء وعادت تتلفح بلحاف سميك. جلست في المواجهة وقالت باسمّة:

- لا يُلَيِّقُ أَنْ يُخْتَفَى بِبِشَارَةِ فِي الظَّلَامِ .

انتظرت حتى اختفت الجارية الحبشية بحثاً عن الحطب فأكملت بلغة
العرّافين :

- ذلك يجلب السوء .

أنصت لعواء العدو القديم وهو يندفع في الصحراء السمحاء وابتسم
بكآبة . حاول أن يطرد الذكريات فقفز إلى فكرة أخرى :

- قلت له أن الخير، مثل الحق، ملاك يسعى في البرية على هواه فإن
أَمَسَكَتُهُ يَدُ بَنِي آدَمَ ووضعتَه في القمقم تحوّل إلى مارد شرير . هذا سرّ
الانقلاب مع شيخ الطريقة .

شدّت اللحاف حول رأسها فلم يتبين أيّ تعبير على وجهها .

أكمل :

- سرّ بالتفسير حتى ظنّ أنني عرّاف !

استلقت برأسها إلى الوراء ضاحكة :

- لا يعرف حقيقة علاقتك بهم .

في الزاوية ارتفعت ألسنة النار والدخان . تبيننا بعضها في العتمة فرأت
شحوباً في وجنة برزت تحت اللثام الرمادي . أَحْكَمَ اللثام حول العينين
وأضاف ببرود :

- ولكن لا أخفي عليك أنه حذّرني .

رمقته مستفهمة . قال :

- قال إنها لا يجتمعان في قلب العبد : الله والمعدن النفيس !

تفحصها بنظرة سريعة فتحصّنت باللحاف . بدأت الجارية الحبشية في
تخضير الشاي بجوار الجدار الحجري . استمرّ :

- لن يطول وصول القافلة من الشمال. يجب أن تحرّضي الحدّادين لإعداد ما يمكن أن نبیض به وجوهنا. للخطوة الأولى في المعاملات التجارية مفعول السحر.

- لن يستطيعوا أن يعملوا في العراء. لا يمنعهم القبلي وإنما عيون الأهالي.

- علينا ألاّ ننتظر رحمة القبلي أيضاً. سيشتدّ في الأيام القادمة.

- ما أبشعه. لا أحد يستطيع أن يتنبأ بنواياه.

- ولكن علينا توقع الأسوأ في كل الأحوال.

- لا عاصم منه إلاّ الجبل، تقول النبوءة القديمة. وها نحن في حماه.

- لا أصدّق نبوءات العرافين!

ساد الصمت. ارتفع الدخان. اندفع بموجة جديدة كأنه يشارك في الحوار. أنزل حجاباً من الغبار رأى ذرّاته العنيدة وهي تحاول أن تستر ضوء النار. اهتزّت الأسطح ورفرفت الخيم. قال فجأة:
- في مثل هذه المواقف لا تنفع إلاّ المصاهرة!

راقبها تحت اللثام ولكنه عجز من مشاهدة ردّة فعلها. حجاب الرملة أخفى عنه وجهها. استمرّ:
- أنا لا أوّمن إلاّ بالعرف والإرث القديم. هذا القانون يؤكّد أنّ رابطة الدم أقوى من العهد والوعد والميثاق.

صمت ثم أكمل وهو يصلّب يديه حول صدره ويحدّق في ظلمات الفجوة:

- لأنها ميثاق سماوي.

رمقته بفضول.

بعدها رأى في عينيها الوميض.

٤ - القرين الضال

الدّونيا نـ - تزید یرات کرّاس
ود یسیقیم أر ایدینان غاس
وساس کود یری آضو یغلا یاس
أد کومبت سابده تکراس فولّاس^(*)

(*) يا دنيا خلقت للصبر والخذاع
لا يتحمل عبثك سوى جبل «ايدینان»
وحده لا يعبأ بحصار الريح
ولا يقيم وزناً لمهامة الغبار.

(١)

انفصل القرينان عن السلسلة الأم هرباً من الريح واتفقا أن يتولّى «ايدينان» استطلاع الصحراء. توجّه شمالاً متوجّجاً بأعظم صرّحٍ شهدته الصحراء على رأس جبل. ولم يكد يقطع السهل حتى اعترضه ملك الجنّ وقال له: «نحن أيضاً قرّرنا أن نستقرّ في أرض ونبي لشتاتنا وطناً. أنهكنا التسكع في الفلوات وعانينا من اضطهاد الإنس الرجيم. جاء إلى الصحراء البكر الأغراب والمغامرون واللصوص. انتهكوها ونهبوا كنوزنا. ولم نجد في القارة الصحراوية كلها سكناً أنسب ولا مأوى آمن من هذا الصرح العظيم الذي يقف على رأسك. فهل تبيعنا نفسك مقابل أن نكفل لك الحماية من القبلي والرملة؟». فكّر «ايدينان» طويلاً في الصفقة. ثم سأل: «ولكن هل توجد قوّة تستطيع أن تقف في وجه القبلي؟». قال الملك: «نعم. القوّة الوحيدة هي الجنّ». فكّر «ايدينان» مرة أخرى ثم قال بشكٍّ: «كنت أظن أنه رسول الآلهة». قال الملك: «ليس رسولاً وليس قَدراً. لا شيء يقف في وجه الجنّ». هَرَشَ «ايدينان» المهيب رأسه الجليل وسأل ساخرًا: «ما الذي يضطركم للبحث عن مأوى إذا كنتم لا تخافون حتى القَدْر؟». ضحك الجنّي الحكيم حتى استلقى على قفاه ثم أجاب: «اعلم أنه لا يوجد لا في الأرض ولا في السماء مَنْ يستطيع أن يدّعي أنه معصوم من نقطة ضعف. تستطيع أن تضمّ إلى هذا الدستور حتى الآلهة نفسها. أمّا نحن فننقطة ضعفنا تكمن في

معشر الإنس. إنهم أشرّ من القبلي ومن الآلهة بل ومن القدر الأعظم نفسه». تحيّر الجبل وفكّر طويلاً ثم سأل مرة أخرى:

- ما الذي فعله الإنس؟

- وما هو الذي لم يفعله الإنس؟

...

- عندما يريد إنسيّ أن يدمغ آخر بالشر يصفه بـ «الجنّي». والأجدر أن يصفه بـ «الإنسيّ». نحن لا نظلم. نحترم العهد ونؤمن بالآلهة. أمّا معشرهم فيظلم بعضه بعضاً، يحنث بكل عهد ولا يؤمن بأيّ إله. فلترحنا الآلهة ولتكفنا شرّهم العظيم. عبثوا بالصحراء واستولوا على كنوزنا.

- هل يكفي رأسي للحماية كنوزكم؟

- يكفي لأنه آمن. لن يستطيع إنسي واحد أن يصل إليه. تشاورنا كثيراً قبل أن نهتدي إلى هذا المكان.

- إذا منحتكم صرحي السماوي فأخشى أن أخسر نفسي.

- أنت ستخسر نفسك إذا لم تهبنا الصرح. لا عاصم من القبلي وترا به إلا من استنجد بنا. انظر ما فعله بـ «أكاكوس» الأم. انظر كيف عاقبت الآلهة السلسلة في وادي الأجال عندما احتكمت إلى الآلهة بشأنه فعاقبتها بأن قطعت رؤوسها جميعاً. ها هي الآن عاجزة في كل مكان في الصحراء، صلعاء، لا تستطيع أن تستدعي المطر. قطرة لم تنزل منذ أربعين عاماً.

- يروى أن غياب المطر أربعين عاماً دليل على غياب العدالة.

ضحك الجنّي العظيم مرة أخرى:

- وهل تريد دليلاً أقوى على غياب العدالة من هذا؟ بخلت عليكم

الآلهة بالمطر أربعين عاماً في حين زوّدت عدوّكم ببحار من حبات الرمل والغبار. إذا رفضت العرض فسوف يحزنني ألا أرى هذا الصرح العظيم قريباً. انظر ما يفعله بقريتك الآن. ها هو يبدأ في تسلقه من الخلف. ها - ها

- ها...

تردّد الصدى في كل جبال الصحراء. ثم بكت الجبال في القارة العارية
«نوسّلت «ايدينان» أن يقبل العرض. قالت إنه من الأفضل أن ينجو ولو جبل
واحد مُنت عليه الآلهة بصرح سماوي، على أن تنقرض الذرية وتختفي سلالة
الجبال من الصحراء الكبرى.

قبل «ايدينان» وباع روحه. جاءت قبائل الجنّ وسكنته. وضعت على
صرحه المربع المهيب عمامة أبدية من الغمام وحرّمت على غبار القبلي الاقتراب
من وطنها الجديد.

أمّا «ايدينان» الشمال فتتكرّر لقربنه في الجنوب وتركه يقاوم العدو وحيداً.

(٢)

يرطنون كثيراً بلغة واضحة ولكن غير مفهومة. ويقول أهل السهل إنهم
يختارون قلب الليالي الظلماء وقتاً لمحاوراتهم الطويلة، الغامضة. وفي المواسم
النادرة لهطول الأمطار تجرف السيول من القمة السماوية المربعة الجريدّ وجذوع
النخيل وأعواداً يابسة من أشجار التين والكروم والرمان وتدفعها، عبر
السفح، نحو السهل. أمّا المتطفّلون والفضوليون الذين تسوّل لهم نفوسهم
الصعود إلى الجبل فسلّطوا عليهم أسراب النحل. ولم يكن أحد من الأهالي
ليصدّق بوجود هذا المخلوق، الذي أشاد به القرآن، في الصحراء لو لم يحدث
مراراً أن هرع إلى البيوت أبناء السبيل والحوالون بعد أن تعرّضوا للسعته
المميتة عند السفح.

ثم امتلك الغزلان وسكن الودّان.

أطلق سراح أنعامه ترتع في السهول المجاورة فتسابق إليها الصيادون. ولم
يعرفوا أنها أنعام مسكونة إلا بعد أن مرض المعاندون منهم وأصيبوا بعاهاة.
وما زال أهل السهل يتناقلون القصص عن سلوك هذه الحيوانات البرية.
فبعد أن كانت أكثر المخلوقات حساسية تجاه الإنسان أصبحت أكثر استئناساً

من الغنم والإبل. وبدأ الانقلاب عندما عثر «امناي»، الصياد الزنجي المشهور، على قطع وديع من الغزلان ترعى ببرود في عراء السهل المجاور لسفح «ايديتان». شمر عن ساعديه المدربين وقرّر أن يعود للنجع بوليمة. أطلق كل ما في جعبته من النبال دون أن يتمكن من إصابة غزالة واحدة.

روى الحادث لزعيم القبيلة فقال إن الغزلان ترتع في العشبات البرية الشاحبة بهدوء دون أن تعباً بناله. بل إن صغارها كانت تتقافز في الهواء مع كل رمية وتثغو بصوت حاد. ثم تعود وتندسّ رأسها في نباتات البرية. ولكن الصياد القديم لم يستسلم، فقام بمحاولات أخرى فاشلة أيضاً. وفي آخر أيامه جنّ قبل أن يصيبه مرض مفاجيء لم يمهل طويلاً.

أما موخامد فقد كان حظّه أسوأ. نطحه ودّان بقرنيه الخرافين وبقر بطنه.

عرف أهل السهل الحقيقة ولم تُجدّ تعاويذ الفقهاء ولا تمنائم الإمام. حرّموا صيد أنعام الجبل واضطر الصيادون لتنظيم رحلات الصيد إلى جبال «تادارات» أو «مسّاك صطفت» أو إلى وديان «مسّاك ملت» وأصبح الودّان المسكون يرافق قطعان الأغنام ويناطح التيوس. واستأنس الغزلان ودخلوا مع الجديان إلى المرباط والبيوت.

(٣)

... ثم جاء دور الكنوز.

لم يجد أهل الجبل صعوبة في الاحتيال على الأهالي وسلب مقتنياتهم المصنوعة من الذهب. إذ وجدوا الطريق القديم الذي حفره المدّعون والفقهاء المزيفون وأتباع الطرق واستولوا بواسطته على حلي النساء وأرزاق الأطفال مستغلّين جهل أهل الصحراء بدينهم وبعدهم عن مكة. وأصبح في مكانة كل محتال يحفظ بعض الآيات والأوراد ويجد في نفسه الكفاءة في ركوب حمارة

او ناقة أن يأتيهم ليستزهم بدعوى تعليمهم أصول الدين وإعادتهم إلى الصراط .

ولم تكن هذه الحيلة لتخفى على الجن .

ألبسوا حكيمهم جبة فضفاضة ، خشنة ، من النوع الذي تعود أتباع الطرق الصوفية أن يرتدوه في الصحراء . وأرسلوه إلى السهل ليشر أهل الصحراء بدين جديد . وما زال الشيوخ والعقلاء يتناقلون العبارة الحكيمة التي استهل بها حكيم الجن حديث الدعوة . قال :

- كل مالك مملوك . إعلموا ذلك . وكل من ملك ذهباً ملكناه ومسكناه ، سكناه . إعلموا ذلك . الذهب والله لا يجتمعان في قلب العبد . إعلموا ذلك ابصاً .

قال إنه من أتباع الطريقة التيجانية ، ثم حمل على أسلافه من القادرية واتهمهم بالتحريف ومخالفة السنة والرسول أمام جمع من زعماء القبائل المتعاطفين مع الطريقة القادرية . قال أيضاً إنهم يستمدون دعاويهم من أسفار اليهود وأنجيل النصارى وليس من القرآن . وانتهى إلى أن نبوءة الخلاص تقوم على التخلص من المعدن الأصفر وتجر يد النساء من حليهن الذهبية . وسمع الناس من شفتيه أبشع الأوصاف في هذا المعدن وسمعوا أيضاً أجمل الكلام في الخلاص ولذة الزهد . وكل ما رده أهل الصحراء فيما بعد عن السكينة والطمأنينة ومعاداة حظوظ الدنيا إنما يرجع إلى هذا الداعية التيجاني الموهوب . ولولا هذه الموهبة الربانية لما استطاع مخلوق أن يقنع امرأة واحدة لتخلّي طوعاً عن حليها الذهبية وتذهب لتدفنها بنفسها في حفرة بحذاء الجبل كما فعلت نساء الصحراء في ذلك اليوم . ولم تمض أيام على نهار الطهارة حتى اكتشف الأهالي اختفاء الداعية . بحثوا في كل مكان ولم يعثروا له على أثر على الأرض . شك بعضهم في الأمر في البداية وتناقل الفضوليون روايات كثيرة تؤكد أن الزائر الغريب لم يكن سوى جني من سكان الجبل الساوي . وقالوا

إنهم تتبعوا أثره فوجدوا أنه يمشي بحافر حمار، وما الجبة الفضفاضة التي يجرحها على الأرض إلا لإخفاء حقيقة قدميه. ونُسِبَ لأحد المحظوظين الذين زاروا مكة وحجّوا لبيت الله أنه قال إن جبّته لا علاقة لها بلباس الصوفية لأنه رأى قساوسة النصارى من أقباط مصر يرتدونها وهم يتسكّعون في سوق باب زويلة.

وثارت مناقشات طويلة حول حكمته الدهرية: «... كل مَنْ ملك ذهباً ملكناه ومسخنه وسكّناه» فتوقف المتفقهون عند هذه الزلة اللسانية وتساءلوا: «لماذا يقول ملكناه ومسخنه وسكّناه؟ أي مخلوق يملك الحق في أن يمسخ ويملك ويسكن إن لم يكن شيطاناً أو جنياً؟»

ولكن العقلاء تمسّكوا بالوصية ونادوا به رسولاً ومبشراً وأسطورة. وضعوا له ضرباً في قلوبهم وأخلصوا لذكراه.

حرّمت النساء في الصحراء ارتداء المصنوعات الذهبية منذ ذلك اليوم. لأن الفرقاء أجمعوا في النهاية أن مالك الذهب مملوك. وروحه دمية في يد القوى الخفية.

(٤)

وعندما قضى الجيش الخفيّ على مملكة شيخ الطريقة أشار إصبع الإتهام إلى الجبل. لأن نقطة ضعف شيخ الطريقة في جهله بما يعنيه أن تملك في أمتعتك صندوقاً من التبر!

0 - طائر الفردوس

«اتجاه العبور غير معروف ولكن في الواحات الداخلية الجنوبية. الحالة: مهاجر. ومحتمل أنه معشش. افترض HARTERT أن هذا الطائر معشش ولم يقل أحد ذلك غيره. أكثر الملاحظين في الطبيعة سمعوا غناءً متقطعاً ولكنهم لم يجدوا أثراً لأي أعشاش له».

أوغوستونوسكي - «الطيور الليبية»

(١)

مَنْ لَمْ يَرَمْ تَسْلَقْ الْجِبَالَ لَمْ يَذُقْ طَعْمَ الْحَيَاةِ .

نزل من القمم برشاقة ودّان . توقفت الريح واستيقظ الجلّاد الأبدي .
احتكم إلى سياط النار فتدفّق السراب في السهل . اغتسلت الصحراء بالسيول
الخرافية منذ الأصيل . عند السفح قابل ودّاناً مهيباً . يرفع فوق رأسه قروناً
معقوفة ويتمشّى بكبرياء التيوس .

حَدَجُهُ بِنظرة خفية فابتنم «أوداد» . عرف فيه ودّاناً من قطعان الجبل
الضالّ فأعرض عنه وتوجّه إلى المنتجع . عبّر سلسلة الروابي وشقّ قطيعاً من
الأغنام في طريقه إلى المرعى . غزت أنفه رائحة التيوس والغبار . عطس وسدّ
أنفه بلثامه الهزيل .

أطلّ على المنخفض فرأى الرجال ينشغلون في تحصين البشر . وقف كأنه
يكشف السهل القديم لأول مرة . استدار برأسه يساراً فرأى أبنية شيطانية من
الحجر . اصطفت في طوابير طويلة ورُفعت على قممها صوامع . هرول أبناء
المهاجرين في الشوارع . لا يحسن هذا النسق إلّا الجان . لا يتقن هذا البناء إلّا
إبليس .

السهل يحكمه إبليس .

استولت عليه كآبة طارئة ففرّ إلى بيت أمّه . وجدها تتقرفص في ظل

الخيمة وترتق ثوبها القديم . ركع تحت قدميها ولكنها لم ترد التحية . جلس لحظات ثم دخل إلى زاويته في الخباء . بذل ملابسه فسمعها تتقدم بمشروع مصالحة :

- لم تر الصحراء القبلي في بداية الربيع .

إذا عجز أهل الصحراء عن إيجاد المدخل المناسب للحديث استجدوا بالطقس . لم يجبها فسمعها تزحف نحو الزاوية الأخرى . أوقدت النار وبدأت تحضر الطعام . خرج من الزاوية واستلقى بجوار الوتد . أسدل لثامه على عينيه ولكنه لم يحجب عنه قمة «ايدينان» العمودية . ما زالت تتعمم بلثامها الأبدى . عالية ، متكبرة . خفية حزينة . متكرة للقرين الجنوبي المسكين . الزعيم آده يقول إن هذا مصير كل مَنْ رهن نفسه وباع روحه بمقابل . القمة الجنوبية تبدو أسعد حالاً برغم قساوة القبلي وزحف الرملة . ما أشقى «ايدينان» !

(٢)

وضعت أمامه طبق الطعام فجاء الدرويش . رمقه بعينه الحولاء ومسح لعاباً لماعاً تدلى من شفتيه وقال غاضباً :

- كم مرة تعدني بأن تأخذني إلى الجبل ولا تفعل ؟
ضحك «أوداد» ثم اقترح :

- دع الحساب الآن حتى نتناول الغداء . هل تشاركني ؟
- لا أريد طعامك . أريد أن نجيب على سؤالي .

فكر «أوداد» لحظات ثم قرّر أن يعلّق السبب في رقبة القبلي :

- القبلي . القبلي هو السبب . أهل السهل لا يستطيعون أن يواجهوا الريح حتى في السهل فكيف يستطيعون أن يقاوموها على رؤوس الجبال ؟

سكت الدرويش ففرح «أوداد» بالجواب . عاد يقترح :

- ستشاركني الآن الطعام ثم نتفاهم حول الجبل فيما بعد.

تقرفص الدرويش على الأرض ولكنه قال بجفاء:

- لن أشاركك الطعام.

- هل أنت شبعان؟

- لا. أنا جوعان ولكن لا أريد أن أبقى في السهل.

- لا أفهم.

سكت لحظة ثم قال:

- إذا وعدتني وعداً آخرياً في أن تأخذني إلى الجبل فسأبوح لك بسر.

ضحك «أوداد» مرة أخرى. مَدَّ يده إلى الملعقة فقال الدرويش:

- إذا وعدتني آخر وعد أخبرتك بأمر يهمك.

- هكذا قال الطائر الثرثار لضرة تانس عندما همَّت المسكينة بأن تأكل لحم

ابنتها.

ضحك الدرويش لأول مرة. هتف:

- صحيت. صحيت. هو كذلك. أنت أيضاً ستفعل ذلك بعد قليل.

تضاحكا معاً ولكن «أوداد» غافل الدرويش وتناول لقمة. بدأ يمضغها

فاقترب منه الدرويش وهمس في أذنه. قفز «أوداد» إلى الوراء ودسَّ رأسه في الزاوية.

انحنى طويلاً وهو يتقيأ.

(٣)

علَّمه الغناء وصعود الجبال. علَّمه الحياة. ولكن لم يره. سمعه أول مرة عندما كان يرعى الجديان في وديان «متخندوش» وهو صبي. انتصف النهار فجلبده جَلَاد الصحراء الأبدي بسياط النار. استظلَّ بشجرة طلع عالية ترتدي فروة كثيفة خضراء فأحاطت به الجديان. هبَّ القبلي وحرقه بنيران

الفلوات الجنوبية. شرب من الزمزية ورش وجهه ببضع قطرات، ولكن القبلي اشتدَّ فزحف وبحث عن المأوى في الكهوف. طارد الجديان في الوادي وصعد مرتفعات وحشية سوداء قبل أن يبلغ أرض الكهوف والخرافات. دخل أول كهف فوجده مفتوحاً من جانبيين. وبرغم أن الفوهة الجنوبية تواجه الرياح إلا أن الكهف كان يحوّل صهد القبلي إلى موجات باردة. الكهوف دائماً باردة. استلقى في جوفه الرملي البارد وراقب الجديان الشقية وهي تعبر من المدخل الشمالي لتجتاز الكهف، المعتم، الممتد كالنفق، إلى الناحية الأخرى. في الجدران المواجهة حفر الأولون رسومهم الملونة. زرافات وغزلان. وحيد القرن وودّان. صيادون مقنعون وآلهة سافرة. في أعلى الرسوم، في سقف الكهف الحجري سطر الأجداد بالتيفيناغ رموزاً ونبوءات. تعاويذ سحرية وإرشادات للباحثين عن آبار المياه. في الطفولة فطمته أمه وأخذته من يده لتربه الصحراء والكهوف. طافت به الجدران المرسومة وقالت له إن هذا هو الأصل والتاريخ. حدّثته طويلاً عن الحيوانات المنقرضة ومعاني الرموز والكلمات. قصّت عليه أسطورة عن كل حيوان وكل إنسان سجّله الأجداد على جدران الكهوف. ثم أخذته من يده وعادت به إلى البيت لتعلمه كيف يتهجّى الأبجدية ويقرأ التيفيناغ.

منذ ذلك الوقت أصبح يهرع إلى الصخور كلما مرّ في طريقه بواد جديد ليبحث في الأحجار عن السرّ والبهجة والأثر. يمسح وجوه الألواح الصخرية من الأثرية حتى يصل إلى الرسوم ويكتشف الكثير. وكان يعود ويقصّ عليها مشاهداته في ألواح الأولين فتشجّعه وتبارك خطاه وتقول: «لا خوف عليك ما دمت تبحث عن أصلك». لم يفهم. لم يكن مهماً أن يفهم. وسوف يمضي وقت طويل قبل أن يفهم أن لذلك علاقة بحنينه الأبدي إلى الماضي وذلك العطش الخفي إلى المجهول.

سَطَعَ السراب وبدأت الأرض تغلي. همد النهار. سكنت الصحراء واستسلمت لطغيان الجلاد.

في تلك القيلولة العميقة، في ذلك السكون الخفي سمع النغم. ظنه في البداية صوت القبلي الخييث وهو يتسلل بين شقوق الجبال أو تجاويف الكهوف. ولكن الغناء الشجيّ يزداد وضوحاً كلما هدأت الرياح وتوغلّ النهار في القيلولة والسكون.

غناء مجهول. حزين، يزيد من غموض الصحراء وجلال الجبال. يوقظ في الصدر وحشة خفية ويثير شهية وحشية. ينطق بالمجهول ويوحى بسرّ الموت والحياة. يتعد تارة حتى يغيب ثم يعود ليرتفع مرة أخرى حتى يتخيل أن طائر الفردوس يقف فوق رأسه. وأكثر ما أثار دهشته هو قدرته على الانتقال من لحن إلى آخر. وكل لحن يبدو أشجى وأشهى من سابقه. دار رأسه بالشجن والوجد فزحف وبحث عن خارج الكهف. حرّقه الرمضاء في قدميه فرجع ولعن رجليه. انتظر حتى العشية فخرج وبحث من جديد. ولكن الطائر توقف عن الغناء واختفى.

(٤)

هانجروا إلى «تادارات» بحثاً عن السيول والكلأ. هناك سمعه من جديد بعد انقطاع دام شهوراً. أدهشه تنوع الألحان وازدواج العزف وتعدد الأوتار والآلات كأنه عشرة طيور وليس طائراً وحيداً. ردّد خلفه الأغاني وتسلق وراءه الصوامع الحجرية. رآته أمه مرة يصعد خلفه لوحاً حجرياً عمودياً من صروح «تادارات» فشبهت والتفتت نحو قرص النار وقرأت تعاويذاً بلغة الجنّ و«الهوسا» لتحمية من السقوط. جاءها ضاحكاً فرفضت أن تكلمه. مشى وراءها طويلاً في طريق العودة إلى البيت. ثم قرّر أن يرضيها بالغناء. رفع صوته مقلداً طائر الفردس المجهول فتردّد الصدى السحري في القمم السماوية والتقطته أفواه الكهوف وأعادته إلى الوادي بعمق أسطوري. رقصت الحوريات في الفراديس وناحت الجنيات في صوامع الجبال، ووجد بعد أن توقف أن أمه تبكي أيضاً.

سألته في ظلمات الخباء عندما هجعت للنوم: «مَنْ عَلَّمَكَ الغناء؟ مَنْ أعطاك صوت السماوات؟». ابتسم في الظلمة وتظاهر بأنه نائم.

(٥)

السّر ليس في تعدد الآلات والأصوات والألحان في أغانيه وإنما في فجیعة خفیة ترفعه في السماوات وتعيده إلى الماضي والأساطير. تتبدّد الوحشة ويتكشف السر الأعظم الذي يحسّه دائماً ولم يدركه يوماً. سر الحياة والصحراء والأموات. غناء أصبح معه صفير الريح في تجاويف الصخور عواء وتحولت أهازيج النساء الشجیة في الأمسيات والمناسبات - مقارنة به - عويلاً. فصمم أن يطارد صوت الجنیات ويكتشف الطائر.

المطاردة علّمته صعود الألواح الملساء، والمحاكاة هذّبت صوته فملك الغناء.

ولكنه لم ير الطائر أبداً.

قال لأُمّه في إحدى الأمسيات:

- الطائر الخفيّ يقول ما أحسن به ولكن أين أجده؟

ابتسمت وهي تتمايل وتمخض الحليب فعاد يسأل:

- أي طائر يمكن أن يقول ما يحسّه الناس؟

أجابت ببرود دون أن تفارقها الابتسامة الغامضة:

- في الصحراء لا يوجد شيء، ويوجد كل شيء.

- هل تقول الخرافات شيئاً عن طائر كهذا؟

...

- حدثيني عن الطيور. أي طير يملك صوتاً كالطائر الخفي؟

- العندليب.

- وهل العندليب طائر خفي؟

- يمكنك أن تراه بين الأحراش في الربيع .
- حدثني عن الطيور الأخرى . الطيور الخفية .

ابتسمت مرة أخرى ولكنها لم تتحدث عن الطيور .
في ليالي الظلمات ، عندما يجتفي العالم من الصحراء ويعمّها سكون
الغموض والموت تقول :
- لماذا لا تسمعي صوتك ؟ أريد أن تسمعي الغناء الذي أعاره لك
طائر الخفي .

فيغني . يقتحم على الجنّات خلوتهن في الكهوف . يراقص الحوريات في
الفردوس . ينير ظلمات الليل . يبعث الحياة في نقوش الأولين على الحجر ويعيد
الصحراء من رحلتها في العدم .

(٦)

... وكان أن سمعته ابنة العم يغني في إحدى الفلوات فبكت ومرضت
بالحمى . لزمت البيت أياماً ولم تبج لأمرها بالسرّ إلّا بعد مرور أسابيع . لم تنفع
المراهم ولم تُجدّ التعاويذ . دعت الأم صبايا الرُحّل وقرّرت أن تنظّم حفل
«الميعاد» . انتصف الشهر واستدار البدر . تطيّبت الفتيات بالبخور والعطور
التي جلبها تجار القوافل من «كانو» وتحضّبت أيدي الصبايا وأقدامهن بالحناء .
خرجن في ضوء القمر باللباس المنقوش وجلسن في عراء السهل الرحيب .

عزفت الشاعرة على وتر «أمزاد» وقرعت الزنجيات على طبل «تيندي» .
ارتفعت الحناجر بالأهازيج الجماعية فجاء الفتيان والشبان . ولكن الصحراء
الحزينة لم تشف غليل ابنة العم المريضة . تمايلت بين الراقصات باكية ثم
استولت عليها نوبة جنونية . جاء «أوداد» فتوقّف السمر . طلب من الشاعرة
أن تصاحبه بـ «أمزاد» وحده ورفع صوته بأغاني طائر المجهول . انقطعت كل
الأنفاس . أنفاس الصحراء وأنفاس الناس . إزداد السكون كثافة وتضاعف
تدفق الضوء من القمر . تأجج الحنين وطار العشاق ليعيشوا في الأسطورة .

انسَلَّ المرض من بدن المريضة وشعرت بأنها ملاك سماوي .

قالت لأُمها: «يُحَرِّمُ عليَّ أن أتزوج بغير أوداد الجني» .

(٧)

التحقوا بالمنتجع الكبير في السهل وسافر نهائياً ليعيش مع الإبل في «تادرارت» .

كانت ابنة العم تسعى للفوز به وكان يسعى كي يفوز برؤية طائر الفردوس والمجهول .

اعترضت الأم :

- وابنة عمك ، لَمَنْ تركها؟

- لم أعد أحتمل . الهواء في السهل خائق .

- رأسها كاسح مثلك . مصممة ألا تدخل على رجل غيرك . لَمَنْ تركها؟

- السهل مليء بالرجال . أريد أن أرى الطائر .

- رأسها كاسح .

- لا أفكر في بناء بيت .

- ستفعل ذلك إن لم يكن اليوم فغداً . لا تؤجِّل العمل إلى الغد .

في قمم «تادرارت» لاحقته بالرُّسُل . كل راع يصل وديان الطلح يحمل له منها وصية . ثم لجأت إلى الحيلة فأوحت للرعاة أن يتولَّوا إقناعه . قالوا له إنها من أجمل العرائس . طويلة . نحيلة ، بيضاء البشرة . وجه مدوَّر بعينين كبيرتين . تحميد الغناء وتقول الأشعار . ملاك يحلم به فرسان النبلاء في آهجار وآير . وإذا تأخر فرمما جاءوا من هناك وخطفوها من بين يديه . وإذا تركها تفلت فإن نصيب ابن الأتباع سيكون قرده من القبيلة أو زنجية من الأدغال . وقد قام أحد هؤلاء الرعاة الموهوبين بتأليف قصيدة مديح في محاسن الفتاة أثارَت «أوداد» وأيقظت في قلبه الحنين إلى الحوريات الأنسيات وآلهات السهل .

طارد الطائر في القمم أياماً آخرَ ثم نزل إلى السهل ووضع رأسه عند
فدمي الحورية العاشقة .

(٨)

فرح بفرحه الشبان وأقاموا له عرساً ينازع أعراس النبلاء . في
الاستعراض رقص أمهر المهاري واشترك أكثر الفتيان فروسية .

ولكنه في ليلة الدخلة عجز عن الغناء وفقد صوته .

اكتشف ذلك بالصدفة . جاء «أوخا» إلى حلقة الطرب وطلب منه أن
يسمعه أغنية . قال :

- لم يسعدني حظي فأهناً بسماع صوت الجنيات .

لم ينتظر جوابه . أرسل الدرويش لإسكات حناجر النساء . تهيأت الفرصة
فطلب «أوداد» الشاعرة كي تصاحبه بـ «أمزاد» . وعندما فتح فمه لينطق
بالمحاكاة أصابه بُكم . تدفّق العرق وبلل اللثام . احمرت الوجتان واستأذن
للانصراف . لحقه الدرويش فطلب منه أن يخبر الجَمْع بتعرضه لنزلة برد
وتوسّل أن يقبلوا اعتذاره .

في الليل جلس فوق عرش الرمل بجوار الركيزة مهموماً . وحتى عندما
انتصف الليل ووضعوا يد حوريته العاشقة في يده لم يفق من عاره .

من أين له أن يعرف أن طائر الفردوس يتخلّى عن عاشق رهن قلبه في يد
معشوق آخر؟

(٩)

لم يحتمل أكثر من ثلاثة أيام . تسلل من الخباء في الظلمات وهرب .

عاد إلى «تادارات» وأقام فوق القمم طلباً للصوت الضائع . طارده الأم
بالرعاة فتوغّل في الصحراء الجبلية وتطاول في صخور «متخندوش» المعلقة .

ولم يفز بالغفران إلا بعد مرور ثلاثة أسابيع .

أما سلوك الحورية في السهل فأثار دهشة الناس . السيرة أثار سخرية الحسودات وهزأ بها أنصار شيخ الطريقة . شاب مغرور ووقع من الأنصار بعث لها بنصيحة مع رسول قائلاً إنه سوف يتزوجها إذا ذهبت إلى الإمام وأخذت الطلاق .

ولكن الحورية صبرت ولم تأبه للتحرشات . قالت للصبايا في الأمسية القمرية التالية إنها فازت بما تريد . أخذت من الجنّي وريثاً سيرث صوته ولون بشرته الأخضر . ضحكت طويلاً وسط دهشة الفتيات ثم أضافت بنفس المرح :

- ويلٌ لامرأة لم تتعلّم كيف تقلب العشق من الرجل إلى الولد . إذا أعطى الولد لا حاجة لي به .

رمقتها «تانا» بإعجاب . أدهشها أن تصنع ثلاث ليال في حضن الرجل من صبية رعناء امرأة حكيمة .

الحورية لم تقل إنها استعارت الحكمة من شفّي جدّها .

(١٠)

هي لم تطلب الطلاق . هاجرت مع أهلها إلى مراعي «مساك ملّت» . وهو لم يذهب إلى الإمام ليطلقها . استمر يتناول في القمم الحجرية ، يصغي لطائر الفردوس ، ويرقب السهول من عليائه في السماوات .

بعد شهور جاءه الرعاة بالبشارة : الحورية المهجورة أنجبت له وريثاً يخلفه في قلبها .

٦ . أهل الردة

« . . . في طاعة سلطان هذه المملكة بلاد مفازة التبر، يحملون إليه التبر كل سنة . وهم كفار همج، ولو شاء أخذهم، ولكن ملوك هذه المملكة قد جربوا أنهم ما فتح أحد منهم مدينة من مدن الذهب ونشأ بها الإسلام، ونطق بها الآذان، إلا قل وجود الذهب، ثم يتلاشى حتى يعدم . ويزداد فيها يليه من بلاد الكفار» .

ابن فضل الله العمري - «مملكة مالي وما معها»

(١)

دخل عليه الحاجب الزنجي المصوص كعود قصب وأخبره أن الرّحالة يطلب الإذن بالدخول. جلس في صدر الرواق بثياب الاحتفال الزرقاء. خصره مطوق بحزام الجلد. من الحزام تدلّ سيف مغمور في غمد موسوم بالنقوش ومثلثات «تانيت». ثبّت في المعصم، تحت القميصين الأزرق والأبيض، مدية تباوية شرسة مدسوسة أيضاً في جلد ثعبان. حوله في الرواق، المثبت بالأعمدة وأقواس المعمار الإسلامي، تحلّق شيوخ العشائر. يتوجّون رؤوسهم بالعمامات الزرقاء ولكنهم لا يتمنطقون بالأحزمة وخاصراتهم عارية من السيوف. يحصون حركات بعضهم ويختلسون النظرات تحت الأقنعة الزرقاء ويلزمون الوجوم.

السلطان أيضاً لزم الصمت طوال الجلسة. يتابع خطوط الكلمة التواتية بإصبعه الرفيعة وينكس رأسه في خشوع. وكلما جاءه الخدم بالشاي رشف من الكوب صامتاً محاولاً ألا يلتقي ببصر أحد من الأعيان. وعندما أعلن الحاجب عن وصول المهاجر هبّ واقفاً فنهض الشيوخ تباعاً. تقدّمهم لاستقباله ولكن الرّحالة دخل الرواق بخطوات واسعة كأنه ما زال يقطع فلات الصحراء. شيخ نبيل، طويل القامة، نحيل، صارم، في عينيه تصميم المهاجرين الأبديين وجنانهم أيضاً. وجنتاه بارزتان خلف لثام رمادي هزيل. بشرته محروقة بالشمس الطاغية. يطوّق خاصرته بحزام الكتان ويمسك بيده اليمنى

عكازاً قديماً من الصدر. تقدّم نحوه السلطان وعانقه طويلاً. ثم تراجع
خطوتين وأفسح المجال للشيوخ. عانقوه بحرارة. من عيون بعض الشيوخ
العجائز لمت دموع نبيلة. دموع الوفاء وغدر الزمان وذكريات الماضي.

جلس السلطان بجوار الضيف. صمتوا طويلاً. طويلاً جداً. جاء الخدم
بالشاي. رشفوا في صمت.

تأمل الضيف التعويذة الجلدية التي تتوّج عمامة السلطان ثم فتح مراسم
السؤال. تحدّثوا طويلاً عن البلاء: الجذب في الصحراء واختفاء الذهب من
مناجم الأدغال.

اشتكى السلطان:

- اختفاء الذهب ضَرَبَ التجارة. حركة القوافل مع الشمال توقفت.
مخازننا خاوية والناس جوع.

ولكن المهاجر العجوز انتهب الفرصة وبدأ:

- أن يموت الناس أحراراً أهون من أن يعيشوا عبيداً.

تبادلوا النظرات مع السلطان كأنهم توقّعوا الهجوم فأكمل الرّحالة بمرارة:

- ... عبيداً للمجوس من قبائل «بامبارا».

اعترض السلطان ولكن بتسليم:

- لا بدّ من الهدنة. الجوع كافر.

التفت نحوه العجوز وقال بخشونة:

- هل نسيت تعويذتنا القديمة؟

نكس السلطان رأسه واقتفى أثر النقوش على الفرش.

أضاف الضيف:

- الصبر. أنفُس تعويذة في الصحراء. لولاه لما تحمّلنا يوماً واحداً. الصبر

قدَر مَنْ أراد أن يعيش حرّاً.

قال السلطان بلسان العجز:

- الصبر لن يطعم الجياع.

ضحك العجوز فجأة ضحكة عصبية، غاضبة. ثم نظقت عيناه باحتقار:

- تريد أن تفوز بالتعيمين: نعيم الأرض ونعيم السموات. أنت تفضل أن تبيعهم لإله المجوس على أن يصبروا على البلاء. إذا قبلت بالهدنة اليوم بدأت في التراجع غداً حتى تراجع عن دينك نفسه.

- الهدنة تعطينا الحق في استغلال بعض مناجم الأدغال في أراضيهم. هذا يعيد لنا الحياة وتجار القوافل سيعودون من الشمال.

ولكن العجوز لم يهادن. قال بلغة قاسية:

- بعث بلادنا. بلاد الله والإيمان، إلى شياطين التبر يا مجوسي.

احتقن وجه السلطان. وجنتاه امتلأتا بدم العار. قفز واقفاً. استنجد بسيفه وجردته من الغمد. هرع الشيوخ وأخذوه في أحضانهم.

ولكن العجوز لم يعبأ. استمر بنفس القساوة والبرود:

- مَنْ رفع سيفاً في وجه أب أو أخ لأب فهو ابن حرام. منذ اليوم لا أنت مني ولا أنا منك. اشهدوا يا جماعة!

تكلم شيخ يناهز المائة عام. جلس في الزاوية العتماء طوال الحوار. قال:

- منذ قليل تحدثت عن تعويدتنا التي قهرنا بها الصحراء يا شيخنا الجليل. انتظر بالله.

ولكن المهاجر وقف وأعاد:

- لا أنت مني ولا أنا منك. اشهدوا يا جماعة.

(٢)

بلاد غرب وجنوب «تينبكتو» فتحها المرابطون ونشروا الدعوة في الأدغال

بين قبائل الزنوج ثم جعلوا من «تينبكتو» عاصمة للصحراء وما تبعها من أجزاء القارة التي شملتها الفتوحات. ونصبوا «ختامان» الحكيم سلطاناً عليها قبل أن يعبروا غرباً ليجتازوا المضيق إلى بلاد ما وراء البحار. وإذا كان الفاتحون أول من اقتحم مجاهل القارة بالدعوة فإن لـ «ختامان» الحكيم يرجع الفضل في إقامة أول نظام إسلامي في قارة من الزنوج المجوس. فهنأت السلطنة وتمتعت باستقرار في سنوات حكمه. وضع القوانين ليرسي أسس العدالة. سنّ الأعراف بين القبائل ووضع الميثاق مع «بامبارا» تمنع الدولة بموجبه تجارة الرقيق مقابل استمرار الزنج في تزويد السلطنة بما تحتاجه من التبر لضمان تدفق الموارد ومواصلة التجارة مع المدن في شمال الصحراء. شجّع الزراعة حول ضفاف النهر وداخل المساحات المروية بالأمطار الموسمية، ونظّم تسويق منتج الغلال، فازدهرت المقايضة، وطاب للأغراب المقام في البلاد. منع السجود للإله «آمناي» وطوّقه بسياج من الحجارة ودعا الناس لأداء صلاة الاستسقاء في المساجد وطلب الماء من إله السماء.

وبرغم اندماجه في بناء «تينبكتو» لتكون عاصمة الذهب وبغداد القارة السوداء وبرغم انشغاله بصنع دولة العدالة إلا أنه حرص ألا يفقد صلته بالصحراء. وهو أول السلاطين الذين يرجع لهم الفضل في إرساء ذلك التقليد الفاضل الذي عمل ورثته على استمراره. فكان يقضي فصل الربيع في المواسم الممطرة من كل عام في البرية.

ووضع قانوناً لنبلأ «تينبكتو» يقضي بأن يرسلوا أولادهم ليقبضوا مع الرعاة في الصحراء بمجرد أن يبلغوا السادسة من العمر. هناك يجدون الرعاة الموهوبين والمهاجرين الأبديين الحكماء في انتظارهم ليعلموا الذكور الحقيقة والرمية، وركوب المهاري وسلّموا الجديان للإناث لا ليتدربن على الرعي ولكن ليتعلمن تعويذة الصحراء القديمة: الصبر! فلم يجد أهل الصحراء أنفع من الجديان في تعليم الصبر، وليس أجدى لليافع النبل من تعلم الحقيقة.

ويقول ختامان الحكيم إنه توصل إلى هذه الشعائر بعد استقراء طويل لتجارب القدماء وقراءة طقوس الأولين.

ويروي شيوخ الحاشية أن ختامان الحكيم عندما انتهى من عمله رقد على الفراش وسحب الغطاء على وجهه وهو ما زال بصحة موفورة ونطق بآخر وصاياه: «... والآن انتهينا من اللعب وبدأنا نظرق بوابة الجد».

مات في الليل.

ولم يكن غريباً أن يستهجن العقلاء وفقهاء الدين هذا التطرف من رجل لم يعرفوا فيه سوى الحكمة والاعتدال، ولكنهم ما لبثوا أن وجدوا أنفسهم جميعاً يرددون نفس العبارة بمجرد أن جاء الوقت وحلّت المواجهة مع الأبدية.

ذاع صيت العبارة وانتشرت على شفاة المحتضرين كالوباء.

(٣)

ورثة ختامان إثنا عشر سلطان.

تولّى بعده ابن أخته دوكن. بعد دوكن تولّى ابن أخت له يُدعى اكنار. تولّى بعده أمود، وهو ابن أخت أيضاً. ثم جبور، فختامان الثاني، فموخامد، فأسوف، فأخذ، فأخنوخن، فختامان الثالث، فأساغون، وكان آخرهم همّه. همّه هو الذي كسر أقدم تقليد فتنّحى عن السلطنة وتخلّى عنها لابن أخيه «أورغ» عندما دامه مرض الحنين إلى المجهول وعزّم أن يهاجر إلى صحاري «أصاغ» و«آزجر» ليعيش راحلاً في الفلوات. وبرغم أن «همّه» هو السلطان الوحيد الذي لم يرزقه الله بأخت تنجب له وريثاً إلا أن الناس لم تغفر له هذا المصّاب واعتبرت أنه سلّم رقابهم في يد رجل مجهول الأصل واضعاً الثقة في امرأة الأغراب، مرتكباً حماقة بتصديق أكذب مخلوق. وصفوا السلطان الجديد في جلساتهم المسائية بـ «النغل» وتوقّعوا في عهده شؤماً.

لم يصدّق أحد أن يوجد مرض في الدنيا يمكن أن يجبر سلطاناً على النزول عن عرشه مهما كان هذا المرض مجهولاً وخفياً. فسكّعت في شوارع «تينبكتو» الشائعات، وتردّدت رواية أيّدها العقلاء كما أجمع عليها السفهاء، تقول إن «أورغ» تحالف مع السحرة المخيفين من بلاد «كانو» ليَجبر عمّه المسكين على النزول والهجرة إلى المنفى. وإلّا مَنْ يصدّق أن يتخلّى عاقل عن الحكم ليختار منفى الصحراء طائعاً؟ ووجدت هذه الشائعة دعماً من نفوس الأهالي بسبب الطريقة المشبوهة التي تمّ بها تخليّ الرجل عن السلطنة. إذ استيقظ الناس ذات ليلة على ضجة غير معهودة في القصر. وروى شهود عيان في الصباح أن السلطان أصيب بنوبة مفاجئة شبيهة بنوبات الوجد التي يتعرّض لها الشباب في ليالي السمر والسهر من قبل شيطان الفن والطرب. سقط كالمصروع. تلوّى طويلاً، علّت شفتاه طبقة من الزبد. في عينيه دهشة وطفولة وفراغ. جسده فاق جذوع الطلح تصلباً. وروى بعض أفراد الحاشية أن «أورغ» كان أول مَنْ هَرَعَ إلى المكان. فوقف على رأس عمّه طوال الوقت تصحبه جماعة مخيفة من السحرة المجوس الذين جاءوا من «كانو» المجاورة خصيصاً لتنفيذ هذه الخطة. قيل بعدها - على لسان الحاشية أيضاً - إن السلطان قال إن قَبْلاً حلّ في قلبه ورأى في نوره الله. ولم تمض أيام حتى أعلن المنادي عن تنحي السلطان وتنازله لابن أخيه عن الحكم.

ولمّا لم يسبق لحاكم في تاريخ الصحراء كلها أن زهد في حكم، كما لم يسبق أن تسلّم مقاليد سلطنة تينبكتو ابن أخ مشبوه الأصل، فقد أيقن الأهالي أن المؤامرة من تدبير هؤلاء السحرة المجوس بالاشتراك مع امرأة الأغراب، فتوقّعوا شؤماً أسوأ.

الانتظار لم يطل.

فبمجرّد أن غادر همّه وغاب في الصحراء استولى سحرة كانو وعُرفانو

الأغراب على الحاشية، وسيروا السياسة في السلطنة. ولم يمض وقت طويل حتى حلّوا محلّ المستشارين والمعاونين من أهل البلاد واحتلّوا المناصب وكل الوظائف الحساسة. في ذلك الوقت كان الوضع الاقتصادي يشهد تردباً لم تشهده تينبكتو منذ عهد الفتوحات. رأى زعماء قبائل «بامبارا» وبلاد المجوس حالة العجز والتدهور في السلطنة فتشجّعوا وامتنعوا عن دفع الجزية. خلت الخزينة من الذهب فتوقّفت تجارة القوافل مع الشمال. كسدت الأسواق وفرغت الدكاكين من البضائع. وجد المرابون والمضاربون فرصتهم فاستغلّوا واستعبدوا الرقاب. كثّر النهب والسلب وانتشر قطع الطرق في شوارع الليل.

طرت المجاعة أبواب تينبكتو لأول مرة في تاريخها.

وفي الوقت الذي كان فيه سحرة «كانو» والمجوس الأغراب يُحكّمون صنع الفخ أجمع العرافون المحليون على أن سرّ النكبة يكمن في ابن الأخ. وفكّوا رموزاً وثنية تقول إن حصن الإرث بالدم غير مضمون إلاّ بابن الأخت وخروجه من هذا الحصن يجرّ الشؤم. وكل من صدّق امرأة الأغراب فهو درويش!

قالوا إن ما يحدث إشارة لبدء العدّ التنازلي لسلطنة «تينبكتو». فسارعوا بتوزيع الصدقات سرّاً على المساكين وذبحوا أنعام القرابين.

(٦)

في ذلك العام عمّ الجذب واحترقت الصحراء بالنار. ولكن الزهّاد القساة يعرفون الحيلة.

فلم يحدث أن نوى أحدهم تطهير الروح والفرار لملاقاة الله في الصحراء إلاّ وقام إبليس الرجيم بابتداع أخبث الحيل لاعتراض صراطه وإعادته إلى المملكة. وكان العجوز «أفوس» من هؤلاء الزهّاد العتاة. تولّى رعاية همّة وساقه على ناقة عجفاء عبر متاهات «أضاغ» التي اتخذها وطناً منذ أن نال

الحرية من السلطان أساغون، خال هم، وقرّر أن يتمتع بهذه الحرية في الخلاء الأبدى العظيم. وبرغم أنه لا يتكلم إلا إذا أجاب على سؤال، غير أنه لم يخف سعادته بأنه العبد الوحيد الذي استحقّ الحرية من السلطان لقاء إخلاصه ونبيل أخلاقه، فتباهى أمام هم كثيراً بالامتياز وردّد أنه فخور إذ قدّره الله أن يرافق ابن أخت سيده القديم ويقطع به القلوات الشالية.

قال بشأن خطته لمواجهة إبليس:

- أعرف آباراً لا يعرفها الشيطان نفسه. وإذا حصلنا على زادنا من الماء فلن ينقصنا شيء.

هم أيضاً قضى عمراً في الصحراء. رافق الرعاة وتعلّم على يدهم الرماية والحقيقة وركوب المهاري عملاً بالتقليد القديم الذي أرساه ختامان الحكيم. ولكن المرض اضطره أن يقطع إقامته في الصحراء ويعود إلى تينبكتو. فبقت الغصة في قلبه وعانى من حنين مجهول إلى الصحراء. ظنّ أن الأيام ستشفيه من الحنين ولكن الزمان غداه ورعاه فنا وكبر حتى أصبح هاجساً وحمى. إذا هجع للراحة وأغمض عينيه رأى السهول العارية، الواعدة، تمتدّ وتبتعد إلى ما لا نهاية. وإذا نام زارته الجبال الخفية وتحدث معه الجن في الكهوف. وكثيراً ما وجد نفسه محاطاً بالقبائل المجهولة وهو يتخذ مجلسه بين الشيوخ. اضطر مراراً أن يجيب على سؤال أو يستجيب لنكات فتغلبه الضحكة في وقت الوقار. لاحظ تبرّم الشيوخ ودهشتهم إلى حد جعل كبيرهم مرة يفاتحه في الأمر بصراحة. قال له إن الناس أصبحت تشكّ في قواه العقلية وترى في غرابه تصرفاته شذوذاً يهدّد سمعة السلطان والسلطنة. ولكنه كان عاجزاً عن فعل أي شيء يعيده إليهم.

الظمأ المجهول إلى السراب وصل مداه. وأهل الخفاء والخلاء أصبحوا يزورونه كل يوم. يأخذونه في الليل ويطوفون به الصحاري المجاورة ثم يعيدوه إلى قصره قبل حلول الفجر. وكلما توغّل بصحبته في الصحراء كلما

ابتعد عن الناس وكره الشيوخ واشمئز من الحكم والسلطنة . وعندما قرّر أهل الخفاء والخلاء أن يهجروه ويتركوه للأعداء أصيب بنوبة . فجاء «أورغ» بسحرته وحاشيته ليأخذ مكانه على عرش تينبكتو .

كان همه ، مثل أفوس ، سعيداً بحياة الصحراء .

أفوس قال له مرة : «الصحراء مثل الأغاني السماوية ، إذا لم ترنو من لحنها قتلك العشق والجنون» .

أخيراً تحرّر من جأه لم يعرف طعمه يوماً وعاد ليروي الظمأ القديم .

(٧)

استمرت الصحراء تتنفس القبلي والنار .

تعلم من أفوس الحكيم أن لا أحد يستطيع أن يفهم سر الصحراء إلا من عاش في المدن وذاق طعم العبودية ، وتعلم من تجربته استحالة الاستثناء إلا في حالة واحدة : قراءة الآية مقلوبة على طريقة السحرة المحليين . فهو عاش حياة عكس أفوس . جبلوه على الصحراء وأطعموه الحرية والفردوس . ثم ساقوه كالشاة ، عندما ألمّ به المرض ، وأودعوه جدران تينبكتو . مضى وقت قصير فنادى المنادي ناعباً السلطان . ثم وجد نفسه مكبلاً بأصفاد أخرى ، يجلس على كريمة تواتية منقوشاً كطاووس ، داخل الردهات المزركشة بالآيات والأروقة والأقواس الإسلامية ، يجالس الكبار ، ومحسب عليه الشيوخ حتى الأنفاس . يتكلم بحساب . ويسكت في اللحظة المناسبة . إذا رغب في قضاء حاجته امتنع ، وإذا هاجمته حشرة مقززة تظاهر بأنه لم يرها . وإذا أصابه التعب وأراد أن يغفو تكبر على سلطان النوم . وإذا سعل أو تجشأ فقد ختمت الجلسة بالعار .

قتلته قساوة الشعائر حتى أيقن أن الشيوخ هم السلاطين وليس هو . فأصبح يتنصل من الاجتماع ويتجنب المراسم . يتمازج حيناً ويتبدع رحلات

الصيد أحياناً. هاجر مرات إلى أطراف الصحراء القريبة ولكن ملاحقة الشيوخ له بشؤون السلطنة لم تمكنه من أن يتوغل ويمضي إلى أبعد كما يريد.

أصبحت الأغلال تضيق عليه وأحسّ بالاختناق. زار الزاوية القادرية وشاهد حفلات الذكر ثلاث مرات، وأقام في القصر ثلاث أمسيات لـ «أمزاد» فتعرض لاستنكار الشيوخ واتهموه بالاستهتار والصبيّة. فاتح كبيرهم بنيتة في التّحّي فنظر في عينيه نظرةً طويلة غامضة. قال بعدها:

- أنت لا تعرف ما تقول. الله العظيم هو الذي وضع السلطنة في رقبتك وجعلها قَدْرَكَ. لأنك الوحيد من سلاطيننا الذي لم يحظ بأخت تنجب له وريثاً. فأين ستهرب؟ أنت سلطاننا الأبدي. إذا تركت ضاعت السلطنة إلى الأبد. هكذا يقول «أنهي».

- ولكنني سأموت يوماً حتى إذا لم أتركها اليوم.
- هذا ليس شأنك. أمر الموت في يده تعالى. مهمتك أن تقبل بالقدر اليوم وتسلم بالمكتوب.

ولكنه لم يقبل بالقدر. بالعبودية. بالسلسلة التي توارثوها منذ عهد ختامان وتلفّ الآن حول عنقه بطول يزيد عن السبعين ذراعاً. صاحك الرعاة القدامى في مجلس الشيوخ. ردّ على تساؤلات أهل الخلاء في الكهوف أثناء استقباله لسفراء السلطنات المجاورة. غاب في الصحراء وتركهم لطقوسهم القاسية وهو يجلس بينهم. استيقظت شهوة الحكم في نفس «أورغ» فشجّعه بالإشارة والإيماء حتى تجاسر وجلب حاشية السّحرة من «كانو» وبلاد المجوس.

كان تسلّل المجوس إلى القصر المرسوم بآيات القرآن أكثر ما أثار حزنه. ولكن نداء الصحراء أقوى. فيش وانقطع به خط الرجوع.

(٨)

برغم كل ما حدث لم ييخلُ بزيارة السلطنة.

زيارات متقطعة مجبورة، نادرة، ولكنها كانت ترضي الشيوخ وتعزّهم في المحنة.

وكثيراً ما قام المساكين باستقباله بفرق القادرية كأنه المهدي المنتظر.

ولم يكن صعباً على الشيوخ الحكماء أن يلحظوا آثار الصحراء في سلوكه خلال هذه السنوات. رَقَّ قلبه لهم وعاملهم بالشوق والطرادة بقدر ما عامل نفسه بالجفاء والقساوة. يعانقهم بحرارة لم يتحلّ بها في عهد السلطنة. في عينيه القاسيتين رأوا دموعاً كلما ودّعهم. ولكنهم فشلوا في أن يقنعوه بالبقاء. فأيقنوا أن مرونته الجديدة ليست بديلاً لعناده القديم.

تداولوا في الأمر في مجلس المساء طويلاً، وانتهوا إلى أنه الوحيد الذي لم ينتظر حتى يرقد على فراش الموت كي يردّد جملة ختaman الزهدية القاسية عن اللهو والجد. كما لم يخفوا إعجابهم بشجاعته. فهو الوحيد الذي تجاسر وهرع لاستقبال الرسول المخيف الذي يخشاه كل الناس ويهربون من وجهه. ولكنهم لم يعلموا أن رسول الأبدية المجهول غريب الأطوار كالإنسان: يسعى خلف الجبناء والهاربين ويخشى الشجعان المقبلين.

ويقال إنه يتجنّب هؤلاء لأنهم يحملون في قلوبهم سرّه.

(٩)

حتى العرافون المحليون يشوا من الخلاص وتوقّفوا عن سفح الدم. كبير الشيوخ اعتصم في زاوية القادرية واستسلم للقضاء. رأى الناس في أفق تينكتو أشباحاً أسوأ من المجاعة. فعقب إفلاس بيت المال من الذهب سعى السلطان لتسوّل الصلح مع قبائل «بامبارا». بعث إلى زعمائهم بالرسائل واستدان أكياس التبر. ويرغم استجابة بعضهم لنواياه إلا أن ذلك لم يكن كافياً للفوز بثقة التجار.

فاستمرّت الفوضى في الشارع والسوق. وتصاعد نشاط اللصوص وقطاع الطرق.

ووجدت القوافل طرقاً أخرى آمنة عبر «آغاديس» في الشمال الشرقي بعد أن استأجرت فرسان «آزجر» كحماة وخبراء طرق واستطلاع. ورأى السلطان ومستشاروه المجوس أن إعادة الروح لتينكتو كعاصمة للتجارة مستحيلة بدون تزويد السوق بكميات كافية من التبر. فأرسل بمبعوثين جدد إلى زعماء الأدغال لتوقيع إتفاق طويل الأمد يتنازل هو بموجبه عن الأراضي الخصبة الواقعة جنوب نهو «كوكو» مقابل تزويده بكميات كافية من الذهب تعيد لأسواق تينكتو الحياة وتجار الشمال. ولكن الزعماء طلبوا مهلة فاضطر السلطان أن يسرّح مزيداً من أفراد الجيش تحت ضغط الإفلاس وخواء الخزانة. وعلى عكس ما توقّع فإن التسريح في الجيش أدّى إلى تفاقم النقمة وزعزع ثقة الأهالي بالسلطنة. كما شجّع زعماء المجوس، الذين كانوا يراقبون الوضع مستغلين الهدنة والمهلة، فلجأوا إلى الابتزاز. بعثوا برسول في أشدّ أوقات المحنة ولقّنوه عبارة ليقراها أمام السلطان. قال: «لم تثبت الدنيا على حال. تبعث الحي من الميت، وتبعث الميت من الحي. عاليها ينقلب سافلها، وسافلها ينقلب عاليها». وعاد إلى الأدغال.

غضب السلطان وطلب من عرّافيه الأشقياء أن يفسّروا له معنى الخطاب. ولكنهم رفضوا جميعاً. في ذلك الوقت بدأت جوهرة القارة السوداء تغلي وتحترق. تجاسر الجياع وقادهم قطاع الطرق إلى الانتفاضة. فوقع السلطان في الفخّ. تقدّم منه عرّاف مخيف من «كانو» وتطوّل بتفسير الرسالة:

- ملوك الأدغال يقولون إنهم على استعداد لتلبية كل ما تطلب مقابل أن تتخلّى لهم عن الأرض والعِرْضِ والسماء.

دُهِشَ السلطان وهدده بقطع العنق ولكن العرّاف العظيم استمرّ في قراءة أبسط الرموز:

- الأرض: المغتصبة بالسيف، جنوب النهر. والعِرْضُ: طابور مقبول من صباياكم. والسماء: إعادة الروح إلى الآلهة القديمة وإحياء شعائر المجوس في تينكتو.

انتهى العرّاف من قراءة المكتوب .

(١٠)

أيقن «أورغ» أنه لن يفلح في إبرام الاتفاق طالما بقي «هم» على قيد الحياة فأعطاهم الموافقة الفورية ولكن بشرط أن يضمنوا له إلزام السرية خاصة فيما يتعلّق بالبندين الثاني والثالث . ولكن الزعماء الوحوش رفضوا السرية واشتروا إعلان كل البنود على الناس إمعاناً في الإذلال وثأراً للمهانة القديمة التي ذاقها أجدادهم على يد المرابطين زمن الفتوحات .

تشتت شمل المجلس ولم يفلح في إقناع أكبرهم سناً في الخروج من مخبئه في الزاوية والعودة إلى القصر . استمال شيوخ بعض العشائر الضعيفة ولكن كلمتهم أضعف من عشائريهم وأصواتهم لم تنجح في إقناع الناس . هنا فقط أدرك أن همّ تنازل له عن السلطنة ولكنه أخذ معه السلطة الروحية إلى الصحراء . بعد اجتئاع القطيعة أرسل خلفه الرُّسل ولكنه رفض الصلح وأصرّ على موقف التبرئة والتنصل من رباط الدم .

فكّر السلطان طويلاً . ثم تفوَّق على نفسه وأرسل خلفه رسولاً .

(١١)

لم تتأخر الأنباء .

وجَدَّهم الرعاة مقتولين تحت طلحة وحيدة . همّ يولّي وجهه نحو القبلة ويحدّق في الأفق البعيد . أمّا أفوس فيسند رأسه إلى جوار رأس رفيقه ممدداً إلى الناحية الأخرى . في عينيه فراغ وابتسامة غامضة .

ما أثار الناس ودفعهم إلى الجامع أسطورة أجمع عليها الرعاة تؤكّد أن الرائحة لم تفعّ من كلا الجسدين . كما نفوا أن يكونوا قد لاحظوا الديدان .

بعد صلاة الغائب خرج الناس من الجامع وتجمّعوا في ساحة السوق . هناك قرأ أحد عرّافي تينبكتو نبوءة قال إنها وردت في دستور الأولين الضائع

«أنهى» تقول: «مَنْ تَنَكَّرَ للدمِ وَرَفَعَ سِيفاً لِيَقْتُلَ أباً أو عَمّاً فهو نَغْلٌ كَذَبَتْ أمُّه عندما إِدَّعَتْ بُنُوته لأبيه».

(١٢)

يوم الإفراج عن «أمناي» جاء كل زعماء الأدغال. تقدّمهم زعيم قبائل «بامبارا» مشيعاً على نقالة جلدية موسومة بالتعاونيد ورموز السحرة. يرفعها على الرؤوس جيش من المحاربين العراة المسلحين بالحرايب المسمومة. أما الزعيم نفسه فعلق في رقبته قلادة كبيرة كتميمة صُنِعت من سن الفيل. خصره العريض مطوّق بحزام من قواقع النهر قال عرّاف السلطان إنها توائم أيضاً. كما وضع في كلا معصميه أساور خشنة من الخرز الملون الدقيق مطرّزة على سوارين من جلود الثعابين. حمل في يده اليمنى حربة طويلة مسمومة أيضاً. عريض. طويل. أفتس الأنف. تتدلّى شفته السفلى الحمراء مثل نعل «التمبا» القديم. تفوح منه رائحة حادة ويشتعّل فوداه المجمعدان ببياض الشيب فيبدوان للمشاهد كأن طبقة من الرّيزيد تغطيها وتتدلّى من الجانبين.

في ذلك الوقت كان الزعماء قد نفّذوا أول بند فتدفق الذهب وجذب القوافل. سعى وراءه تجار الشمال. امتلأت الأسواق بالبضائع وازدحمت بالمرايين والمضاربين. بدأ ضعاف النفوس يطمتمنون على الغد فتنفّست تينبكتو وانتعشت وعادت لها الحياة.

في اليوم الذي سبق وصول المجوس أمر السلطان بتجريد الصوامع من الأهلّة ومسح آيات القرآن من المساجد وجدران القصر ومنع الأذان وصلوات الجماعة. تقدّم منه رئيس العسس في مساء نفس اليوم واستأذنه في بشارة: قال إنه تمّ اكتشاف منجم للذهب بجوار سياج «أمناي» شمال المدينة. هلّل أفراد الحاشية وابتهجت النفوس التي أفزعته المجاعة. وقال العرّافون أن هذه إشارة الآلهة للخروج من الكابوس والبعث من الزوال، في حين ندب مريدو الطريقة القادرية في الزاوية وبكوا عودة الناس إلى الظلمات.

٧ - «واو»

«واحات «واو» في الصحراء ثلاث. واو الكبيرة، واو الناموس، واو حريرة. واو الأخيرة واحة مفقودة. لا يعثر عليها إلا التائهين الذين فقدوا الأمل في النجاة. تسقي العطشان والضائع ولا تنقذ إلا مَنْ أشرف على الموت. ويجمع أولئك المحظوظون الذين فتحت لهم أبوابها وتمتعوا فيها بالضيافة والمطايا والبهجة أنهم لم يروا في الأحلام مدينة تفوقها جمالاً أو ثراءً. لم يدخلها إنس إلا وخرج منها محملاً بكنز يغنيه عن الناس والحاجة إلى أن يموت. ولكنهم نبهوا أيضاً إلى عدم جدوى البحث عنها، فما أن يخرج الضيف من أسوارها حتى تختفي. ويتوارث أهل الصحراء رواية تقول إن البحث عنها يجري منذ آلاف السنين».

من أسطورة للطوارق

(١)

انهارت التحصينات حول البئر ثلاث مرات، ولكن العراك مع الريح لم يتوقف.

استمرَّ يتدفق طوال أسابيع. يهبّ في موجات محملة بالحصى والتراب أياماً ثم يتراجع ويتحوّل إلى أنفاس جنوبية حارة، متقطعة. وأحياناً أخرى يهدأ فيتصاعد غبار كثيف في الفضاء. فيبقى عالقاً في السماوات العليا ويحلّق فوق المرتفعات. يحجب رؤوس الجبال كالسحاب عدة أيام ثم ينفجر فجأةً ويعود في موجات جنوبية تفوّض كل ما بناه أهل السهل.

في هذه الأثناء يروق للجلّاد الأبدى أن يطلّ برأسه من بين سحب الغبار ويتفرّج على الأهالي الأشقياء ثم يعود فيختفي شامتاً. ولكن أهل السهل الذين يستطيعون أن يسلموا في كل شيء ويتحمّلوا أي بلوى إلا طمر البئر، أثروا، هذه المرة، سياط الجلّاد الأبدى على نكبة الريح. قام أولئك الذين جرّبوا العطش بتوزيع الصدقات سرّاً على الجيران والمساكين نذراً لله كي يهدى من جنون قبلي هذا العام.

فوق الفوهة تناوب الشباب كأنهم قرروا أن يحموا فم البئر بأجسادهم بدل ألواح الحجارة.

جاء الزعيم لتفقد الحال يتبعه الإمام وجمع من الشيوخ. في الفضاء

خيّمت سحابة الغبار. استراح السهل وسعى الناس لقضاء الحاجات والتقاط الأنفاس. في الجنوب الشرقي، تحت السفوح، ارتفعت أعمدة الدخان من الأبنية وعلا رنين الحدادين وصيحات تجار القوافل.

فوق الراية وقف «أوخا» كالشبح. ثم تحرّك لاستقبال الزعيم. قاده عبر السفح ونزل إلى المنخفض. في ناحية الجنوب ارتفعت تلة رملية عالية وأشرفت على التحصينات الحجرية. مشى الزعيم بخطوات حيوية، اجتاز الحصن الحجري المستدير حيث التأمت الجماعة. قال وهو يصعد المرتفع الرملي:

- إذن هذا هو المستودع.

وقف فوق التلّة وتابع قوافل التجار في معسكر المهاجرين. أكمل:

- الأجدر أن تقضوا على المستودع الذي يتزوّد منه الريح بدل إقامة السدود على الفوهة.

دُهِش أوخا. قال:

- لا أظن أننا نستطيع أن نزيح جبل الرمل.
- إذا عجزتم عن إزاحة الجبل فلن تشربوا ماءً بعد أيام.
- إذا أزعجنا هذا الجبل أتى القبلي بغيره في الغد.
- إذا أتى بغيره في الغد فاستعدّوا لمقاومته أيضاً.
- سيضحك علينا الناس.
- إذا أردتم أن تشربوا الماء.
- لن يتوقف غمؤ التلال ما لم يتوقف الريح.
- هذا قدرنا. إذا أردتم أن تشربوا ماءً في الصحراء.
- لم يشهد السهل ريحاً استمرت لأسابيع وشهور.
- السهل رأى كل شيء. الصحراء شهدت كل شيء.
- عمّ الصمت. استمرّت صيحات الوافدين الجدد في مدينتهم.

قال أوخا:

- مهما حاولنا فلن نستطيع أن نزيل الربوة في يوم أو يومين.
- أزيحوها في أيام. العجلة من الشيطان الملعون.

تساءل أوخا في شك:

- هل يمهلنا القبلي؟

الزعيم حسم الحوار:

- هذا موضوع آخر.

نزل الربوة إلى الناحية الأخرى فتبعه الشيوخ كقطيع من الأشباح.

(٢)

المدينة سُيِّدَتْ على طراز «تينبكتو».

و«أناي» هو الذي شاء لها أن تشابه عاصمة الذهب ليس حسرة على ثرائها القديم ولا بسبب الاغتراب والحنين ولكن لأنه آمن دائماً بأن الصحراء الكبرى لم تنجب مدينة يمكن أن تنافسها في جمال المعمار وغنى النقش وعظمة القباب والقصور والمآذن.

وبرغم أن المدينة الجديدة ما زالت في طور النمو إلا أن التجار الذين زاروا العاصمة الإسطورية على مشارف الأدغال أجمعوا على أن المدينة الجديدة هي «تينبكتو الصغرى». استلقت تحت سفح «القرين الجنوبي» وامتدَّت الأبنية حتى حذاء «أكاكوس» تخترقها شوارع متربة، متعرجة، تتخللها فوهات ظلماء على هيئة أقواس. بعضها مغلق بالواح من جذوع النخيل فأصبح باباً وبعضها استمرَّ يفتح فمه المظلم ككهوف «تادرارت» في انتظار أن يحصل على نصيبه من الجذوع التي تجرُّها القوافل من وادي الآجال.

ولكن المآذن ظلَّت عارية من الأهلَّة والآيات. كما بقت القباب الجليلة مطفأة يكسوها لون رصاصي كتيب.

السوق انتعش وبعث الحياة في السهل قبل اكتمال المدينة .

حركة القوافل لم تتوقف وأصبحت تينبكتو الجديدة محطة لها . ورأى تجار الشمال والشرق أن النقطة الجديدة توفر لهم حاجتهم من التبر وتختصر الطريق القاسية التي تقطع الصحراء وتصل مشارف الأدغال . فوردت السهل قوافل من القيروان وطرابلس وبرقة عبر مرزق والكفرة وغدامس . وبقي تجار الغرب من أهالي مراكش وطنجة وفاس يسلكون الطريق القديم إلى تينبكتو الأم . كما نشطت حركة القوافل العكسية فتدفقت على تينبكتو الجديدة قوافل الذهب من أعماق القارة . بعضها جاء من تينبكتو الأم وبعضها من «كانو» وأغاديس ، فابتهج تجار السواحل وقالوا إن الذهب يسعى إليهم ويلاقبهم في منتصف المسافة لأول مرة .

هذا الانقلاب في صحراء «أزجر» التي امتازت في الماضي بهدوء أبدي جعل الزعيم يطلق على المدينة المدهشة اسم «واو الضائعة» .

رافق «أناي» ضيفه لتفقد الأسواق . عبرا مساحة من العراء تفصل المدينة عن الجبل يتخذها الناس سوقاً للمقايضة وتبادل البضائع . بدأت الساحة تتراحم بالأهالي مع الأصيل . خليط من الجنسين الأبيض والأسود، المهاجرون وأبناء السهل، تجار القوافل والبدو والرُّحل . فوق السطوح يتعالى صياح البنائين وهم يواصلون التحصين ودعم البنيان، وفي الساحة تصايح الباعة على البضائع . من البيوت ارتفعت ذيول الدخان . وفي زحام العراء اختلطت روائح التيوس والبول والزنوج والبهارات والتوابل والشاي الأخضر .

بلغا نهاية السوق فامتدَّ عراء آخر حتى حذاء «أكاكوس» ليفصل طابور الأبنية عن الجبل ويتخذها الرعاة مربطاً لإبل القوافل .

توقفا لمشاهدة أحد الأتباع وهو يرؤض مهراً بكرةً ويحاول أن يثبت فوق ظهره. ولكن المهر المتوحش يلقي به إلى الأرض في كل مرة ويحاول أن يجرّر رأسه من الشكيمة في عناد ووحشية. أشار إليه «أناي» أن يشدّ الرسن إلى أقصى ما يستطيع ولكن الراعي لم يفهم فجلس فوق المهري والتفت نحوهما متسائلاً فغفل عن الرسن. قفز المهري وطرحه على الأرض وجزه في العراء مسافة طويلة. ضحك «أناي» وشاركه الضيف. ثم انحرفا يميناً ودخلا زقاقاً ضيقاً متعرجاً. أفضى الزقاق إلى رواق مسقوف يتوسط الأبنية ويقف على أبوابه المقوَّسة عسس زنوج مسلحون بالحراب والسيوف. داخل الرواق المعتم علا رنين النحاس وضرب المطارق.

في الداخل مضى وقت طويل قبل أن يتعوّد الضيف على العتمة ويميّز الحدّادة الزنوج الذين تجمعوا داخل الرواق في حلقات صغيرة وانهمكوا في العمل. ومضى وقت أطول كي يكتشف أن المصنوعات التي تلمع بين أيديهم ليست الحلي المزيفة التي تعوّد أن يراها في أسواق فاس وزويلة وغدامس ولكنها حلي مصنوعة من أجود أنواع الذهب. راقبه «أناي» طوال الجولة، وابتهج للدهشة التي رآها في عيني كبير التجار.

الرواق أفضى في النهاية إلى ممرٍ عارٍ من السقف. في فم الممر استقبلهما زنجي مارِد مقنّع بلثام مخطط قدّمه «أناي» لضيفه قائلاً إنه رئيس الحدّادة. صافحهما وجاء صبي خلفه بطبق نحاسي وقَدّم لهما الشاي الأخضر. تفرّصا في الممر في حين اختفى المارد داخل عتمة الرواق. قال «أناي»:

- أردت أن أريك الرواق كي تطمئن إلى مستقبل مدينتنا.

ابتسم الضيف. عدّل طربوش القماش على رأسه. ومسح لحيته عند منبت الشعر. لم يعلّق. فاستمر «أناي»:

- تعلّمت في تينبكتو أن الثقة في السوق أهم سلاح في التجارة. لم يدخل أحد إلى الرواق سواك. ولم أدعك للفرجة كي تزودنا بالحبوب والأقمشة

وجرود الصوف وبقية المنقوصات فقط ولكن لكي ترى بنفسك أننا أهل للثقة .

قال الضيف وهو ما يزال يبتسم :

- لم أشك في ذلك أبداً .

- تتوقع وصول قوافل جديدة في خلال أسابيع . ستحصل على المعدن

المخدوم بأبخس الأسعار وفي منتصف المسافة من أراضيه .

- لا أنكر أني معظوظ إذ أكون أول مَنْ دله الله إلى سوقكم .

- شرط أن تكتم الأمر .

رفع الضيف رأسه مستفهماً فأكمل «أنائي» :

- أهل السهل لا يتعاملون بالذهب ويعتقدون أنه معدن منحوس . لا

أريد أن يعرفوا عملة التعامل بيننا .

هزّ الشيخ رأسه علامة الفهم وأخفى الابتسامة .

(٥)

في ساحة السوق، في الجانب الملاصق للأبنية، وقف الزعيم يجاوره

الإمام في حين ذاب قطيع الأشباح في زحمة السوق . برز القرص المتعجرف

فوق قمة الجبل ثم عاد واختفى خلف سحب الغبار .

تصافحوا بكبرياء وبرود .

وقفوا لحظات يتفرّجون على دهماء السوق ويمارسون طقوس التحيات . ثم

راى «أنائي» أن يقْدَم ضيفه للزعيم :

- هذا الحاج البكاي . كبير التجار .

التفت الإمام نحو الحاج وعدّل لثامه الأبيض حول أنفه المدبب .

قال الزعيم وهو يراقب الناس كأنه يتابع السراب :

- يطيب لنا أن نرى غدامس ومرزق وتامنغست وطرابلس تحلّ في سهلنا. لا أحد غير التجار يستطيع أن يصنع هذه المعجزة.

عادت الابتسامة إلى الحاج وتقدّم خطوات نحو الزعيم ليردّ المجاملة:
- أهل السهل هم الذين صنعوا المعجزة هذه المرة. جئتمونا بتينكتو من الأدغال. بعثتم «واو» الضائعة من المجهول. ها - ها. قالوا لي إنك سميتها «واو». ها - ها أوافقك على الاسم!

إقترح «أناي»:

- بقي لم يتكامل بعد ولكن يشرفني أن يباركه الزعيم بزيارته وتناول الشاي.

ولكن الزعيم أسدل طرف عمامته الزرقاء على عينيه واعتذر:

- لم يسبق لي أن دخلت داراً قط.

صمت وأضاف بعد لحظة:

- ولا أرى أني سأضطر لفعل ذلك حتى لو كانت دارك بيتاً في وادٍ المفقودة.

ضحكت الجماعة وعلّق الحاج البكاي:

- هل تخشى إنبهار الأبنية إلى هذا الحد؟

- ليس الإنبهار وحده. إنها تذكّرني بسجونكم في الشمال. الناس في الصحراء يروون عنها الأساطير.

أخفى الحاج ابتسامته. قال بتسليم:

- معك الحق. لا يتوغّل الإنسان في الصحراء ويعيش في البرية بدون سبب.

تحركّ الزعيم نحو الجبل. تحركّت وراءه الجماعة. بجواره مشى أناي وتبعه

الإمام والبكاي . اخترقوا طرف السوق الشمالي فاختلط زعيق الصبيان وثغاء الماعز بصياح الباعة وهم يروّجون لبضائعهم .

في الهواء احتدّت الروائح : التبوس والزنوج والبهارات والشاي الأخضر وبول الإبل . في العراء الممتدّ خلف السوق طارد عدد من الرعاة الزنوج جمالاً مقيدة السيقان وهشوها إلى المراعي في أودية الطلح . في الهواء لُوحوا بالهراوات والسياط .

اقتعد الزعيم الأرض عند حذاء الجبل المغدور . تحلّقوا حوله وتربّعوا على الحجارة . جلس البكاي في مواجهة الزعيم . فتح الحوار من أحسن باب :

- لم تر الصحراء قبلي أعند من قبلي هذا العام . ألا تتوقعوا له نهاية؟

قال الزعيم وهو يعث بعود من الخطب :

- الحق إننا كنا ننتظر أن تأتونا أنتم ، أصحاب القوافل ، بالتعاويد من فقهاء الواحات . أم أنهم هناك شطّار في منع الماء من السماء فقط؟

ضحك كبير التجار . داعب لحيته قبل أن يقول :

- صدقت يا شيخنا . لم أر أشطن منهم في تحرير المكاتيب والتعاويد ضد المطر . حتى أهل الشمال اشتكوا من فعالية تعاويذهم الشيطانية بعد أن عانت الحمادة من الجفاف في العامين الماضيين .

التفت الزعيم إلى أناي :

- عن السحر الذي يقيد القبلي إسأل أهل آير . كل سحر الصحراء جاء من هناك .

ابتسم أناي قبل أن يجيب على الدعابة :

- سحرنا قادر على تقييد أعتى الجان ولكن القبلي هو العفريت الوحيد الذي غلبنا .

القبلي وجد مَنْ يدافع عنه على لسان الإمام :

- من حق القبلي أن يأخذ حقه أيضاً . ولا أحد ينكر فوائده .

جاء أحد الخدم الزنوج بطبق من النحاس صُفَّت عليه كؤوس الشاي الأخضر المتوجّة بطرايش الرغوة . طاف عليهم بالطبق فواصل الإمام بعد أن رشف طربوش الرغوة :

- يطهر الأرض من الأمراض ويلقح نخيل الواحات ونبات الحمادة .

قال الزعيم وهو يمسك كوب الشاي بيد ويكشف عن فمه بيده الأخرى استعداداً كي يتناول رشفة :

- وله سيئة واحدة تفوق كل حسناته .

صمت فشدّ إنتباه الجماعة . أكمل بعد أن رشف :

- يغمر مصادر المياه ويظمر الآبار .

ولكن الإمام لم يستسلم في مرافعته :

- يُقال أيضاً أنه يحفر كل ما يُظمر .

قال الزعيم ببرود مستمراً في هجومه :

- يفعل ذلك حقاً ولكن بعد ألف عام . بعد هلاك الأجيال . كما حدث مع بثرنا في الماضي .

عمّ صمت طويل . يخرقه طنين الذباب وهرج السوق البعيد .

واصل الشيخ :

- إذا لم نجد وسيلة لحماية البشر فلن أضمن استمرار واو على وجه الأرض .

ثم ضاحكاً :

- ربما تعمّد أهل الخفاء تحميل القبلي مهمة استرداد مدينتهم .

أخفى أناي قلقه . قال :

- وماذا يرى الزعيم كي نحمي مدينتنا من الزوال؟

- جوابي جاهز . أن توقفوا إرواء الإبل على البشر . وتبعثوا بقافلة إلى وادي
الآجال لتساعدوا السهل وتعوضوا النقص في الماء . كما يتوجب أن تبعثوا
بالرجال للمساعدة في إقامة التحصينات وإزالة تلال الرمل بدل أن تبقوهم
يتناولون في البنيان .

رشف أناي كوبه حتى النهاية وأعلن :

- لا أرى في اقتراح الشيخ مستحيل . كل الترتيبات الوقائية ستتخذ في
الحال .

رفع الزعيم رأسه إلى السماء كأنه يقرأ أخبار الريح وقال بلغة غامضة :

- العبد يحاول والله يفعل . القبلي أحياناً رسول وأحياناً أخرى لعنة .

ثم وهو ينهض واقفاً :

- العرّافة رفضت أن تكشف عن سرّه هذا العام . جرّبوا النذور .

(٦)

تساقط الغبار قبل أن تتنفس الريح .

تفرقت الجماعة وانفضّ السوق ومشي أناي ليشيع الزعيم . سار بحذاء
الجلبل شمالاً وعبرا سلسلة الروابي المطلّة على البشر . هناك تزاومت القوافل
والنساء والأطفال . يقاومون الريح ويحاولون أن يفوزوا بنصيبهم من الماء .
فوق الرابية تعاون الرجال في إزالة التلة الرملية . يملأون الغرائر وسلال
السعف والأكياس بالرمل ويغيون خلف الرابية إلى الناحية الأخرى .

راقب الزعيم عملهم ، عبر العاصفة ، فلم يعرف عمّا إذا كانوا هم الذين
يشيرون الزوبعة والغبار أم أن القبلي هو الذي يشاكسهم بعد أن استأنف
رحلته .

كان يهبُّ في دفعات جنونية فيحلّ عقد العمامات وينفخ في الثياب
الفضفاضة ويملأها بالهواء كالقرب المלאى بالماء ليسهل عليه اختطاف ضحاياه
ودفعهم عبر العراء السمح .

قاوم الزعيم الغارات كما قاوم أناي .

رفع الزعيم صوته كي يكتم عواء الريح :

- انفرَدْتُ بك كي نتحدث في مشروعا .

أمسك عمامته بكلتا يديه وواصل بنفس الصوت العالي :

- سنقرأ الفاتحة بمجرد أن يسمح القبلي . أنت ترى أن في إصراره هذا
العام سرّ .

هَبَّت موجة جديدة فدفعتهما إلى الأمام . صفقت أطراف الثياب
الفضفاضة فقاوما الهجوم بظهرهما . صاح أناي :

- وإذا لم تتوقف الريح ؟ أنت تعرف أن القبلي قدر الصحراء .

- صحيح . ولكن في إصراره هذا العام سرّ . الطبيعة في الصحراء هي
التي ترسم حسابات الناس وليس العكس . وأوْخا مكلف بحماية البئر من أول
يوم .

صمت حتى هدأت الموجة فأضاف :

- رأيت في عينيه اليوم حزناً لم أره في عينيه أيام الكرب سنوات حكم
شيخ الطريقة . كما لم أره في عينيه عندما مات أبوه في الغزوات . حزن
اليأس .

- سأحاول أن أفعل شيئاً للمساعدة . ولكن يُقال إنه كان من الأنصار
واشترك مع شيخ الطريقة في غزو النهر .

- مَنْ مِنَ الشباب لم يشترك في غزوات شيخ الطريقة إلى النهر؟ ألم يكن

الفاروق عمر نفسه من أشرس زعماء الجاهلية قبل أن يعزّبه الله الإسلام؟

- ولكنني لا أرى سبباً للانتظار. القبلي قدر الصحراء منذ الأزل.

- وقدّرنا أيضاً. الصحراء هي التي ترسم مصيرنا. إذا لم يمهّلنا القبلي فإن في ذلك إرادة الصحراء.

تلاحقت أنفاسه وهو يجاهد الريح. تساءل:

- يُقال إن الأميرة تحضّر للميعاد. كل الشباب ينتظرون ميعاد واور.
الأغلبية رفضت الخروج لتفقد الإبل في الصحاري وآثروا الإنتظار، فمتى الميعاد؟

- قريباً. لن يطول الانتظار. لن نسمح بأن تفسد نوايا القبلي المناسبة.
إمتلاً فم الزعيم بالتراب فسكت.

(٧)

في السهل حلّ وافد جديد.

جاء مع حلول المساء. يجرّ ناقة عجفاء. تنفخ الريح جلبابه الأزرق
الفضفاض كأنه يحاول أن ينتزعه من الأرض ويطيّره في الهواء، فيتشبّث
المهاجر باللجام ويستعين بالناقة البائسة. نحيل، محروق، خرّب الجدرى
بشرته وحفر يديه ووجهه.

اتجه إلى حذاء «ايدينان» المسكون. قيّد الناقة في السهل وصعد ليقم في
كهف بالجبل مما أثار فضول الأهالي. بعث له الزعيم برسول يحذّره من الجنّ
فسخر منه وقال إنه من الباحثين عن الكنوز. وعندما رأى الدهشة في وجه
الرسول طلب منه أن يبلغ الشيخ أن معشر الباحثين عن الذهب وأهل الخفاء
ينحدرون من أصل واحد. وادّعى في وقاحة أنهم رضعوا الحليب من جنيّة
واحدة وأعقب ذلك بضحكة طويلة.

وبرغم أن السهل تعود أن يستقبل الوافدين والمهاجرين والعابرين كل يوم إلا أن جسارة هذا الضيف هي التي أثارت الأهالي. كما أدهشهم أن يوجد في الصحراء مَنْ يجهل قصة الجن واختيارهم السكنى الأبدية في ايدنان. ثم رآوه في الأيام التالية ينزل السفح ويفحص الشقوق والكهوف والقبور القديمة ساعياً كي يشارك الجن ثروتهم.

ولم يكتف بالشهوة الآثمة ويسعى وراء المعدن المشؤوم ولكنه فاجأ الأهالي بعد أيام آخر بالترويج للريح وإحصاء مآثر القبلي في الصحراء. ذهب إلى الجمهرة التي تقاوم وتحمي البئر وقال لـ «أوخا»: الوقوف في وجه القبلي وقوف في وجه القدر. فما هو إلا رسول جاء بالبلاغ المبين. يظهر الصحراء من الأوبئة. يلقح النخيل والنبات ويحفر لكم الآبار المغمورة» فاعترض أوخا: «ولكنه لا يحفر هذه المرة وإنما يطمر». أجاب الزائر المجذور: «إذا طمر فتلك إرادة القدر. لن يُفْلَح مَنْ حَارَبَ الْقَدْرَ». سكت أوخا فقال الضيف: «هل نسيتم أن القبلي هو الذي كشف لكم عن البئر؟ كان مغموراً بالرمال منذ عهد العماليق. منذ آلاف السنين».

عجز في إقناع أوخا فأحكم قناعه الممزق الهزيل حول وجهه المجذور وردّد وهو يعود إلى كهفه في الجبل: «للطمر وقت وللحفر وقت، كما للموت وقت وللميلاد وقت. ويل للمعاندين».

هذا ما رواه الدرويش وهو يطوف بين البيوت في المنتجع.

(٨)

جاء بعض الأتباع ببرادع الحمير أيضاً. ملأوها بالرملة وثبتوها على ظهور المهاري بدل جرّها بالحبال عبر المنحدر كما يفعل الزنوج مع الغرائر والأكياس. وقف «آخاد» فوق التلة يشدّ خصره الضامر بطوق القماش ويداعب الأتباع الأشقياء. تحدّث عن النبل والعار فوجّه كلامه لـ «أوخا»:

- إذا رأيت شيئاً مشيناً في الصحراء فابحث بين الصخور عن الأتباع . هم
الروؤس المدبرة لكل ما من شأنه أن يسفّه التقاليد .

استجاب بعضهم للدعابة فضحكوا ولكنهم لم يتوقفوا عن تعبئة البرادع
بالرمل . ابتسم أوخا واستمرّ آخمد :

- برادع الحمير مثبتة على ظهور المهاري ! سأخبر الدرويش لينشر الخبر
وأسلط عليكم الشاعرة .

استمرّ أوخا يبتسم وهو يحاول أن يتحاشى سياط الحصى التي يسقطها
الريح على الوجوه كوابل الرصاص . ارتفعت ضحكات الأتباع .
تدخل أوخا :

- هذا من دواعي شرفهم . يروق لهم أن يكونوا موضوع هجاء
الشاعرات .

ضجت التلة بالضحك . اقترب منها أحد الأتباع . طويل القامة . نحيل
البنية . يتخذ من قطعة شاش خضراء لثاماً بائساً . بصق التبغ المضغ وقال
مازحاً :

- حالنا ليس أسوأ من نبيل يستقبل القبلي بأفخر اللباس ويحاربه بالسيف
كأنه يغزو قبائل الأدغال .

فازت الدعابة بالإعجاب فضحكوا جميعاً . التفت آخمد نحو أوخا
وعلق :

- الحق أنه على حق . أنا لن أستطيع أن أدافع عنك .

كان أوخا ما زال مصراً على مقاومة القبلي بأدوات الحرب . يرتدي أفخر
الثياب . القميص الأبيض الفضفاض تعلوه «كورا» الزرقاء . عمامة مهيبة
بيضاء تلتف على الرأس كتحايين الأدغال تعلوها «تجولوست» زرقاء . في قمة

العمامة، من الأمام، نُتِبَت تعويذة مثنية في قطعة جلد. على الصدر استلقت قلادة جلييلة من التهام. أما السيف الممد في غمد منقوش بأنامل الحسان فقد تعلّق بالخصر وتدلّى حتى كاد أن يلامس الأرض.

قال وهو يسحب اللثام على عينيه ويداري الحياء :

- الغزو هو الغزو. ما الفرق بين القبلي وقبائل النهر؟

ولكن التابع الخبيث رمى الحجر إلى أبعد:

- مَنْ قال إنه ارتدى العدة واللباس لردّ الغزوة؟ الصبايا يئسن منذ أُعْلِن الخبر، والأميرة لن تتنازل عنك حتى لو ارتدّيت أسمال الدراويش. لم يبق سبب للكبرياء!

هَبَّت موجة جديدة من الغبار فاحتوى بها أوخا ليخفي الخجل. ضحك آخاد في العاصفة حتى غمر التراب فمه. أَلَمَتِ الأسنان واستولت على بدنه قشعريرة. بصق خلفه وعلّق يؤيد التابع المرح:

- لم يبق سبب للكبرياء. والشاعرة نظمت قصيدة أيضاً.

صاح بصوت عالٍ حتى يخنق عواء الريح.

- لم أسمع بذلك. هل هي هجاء؟

ضحك آخاد محاولاً أن يصطاد نظرة أوخا في الغبار:

- قالت ان الصيادين عجزوا وتركوا الغزال يدخل الرملة. ها - ها -

ها. من أجل القصائد!

احتجّ أوخا:

- هذه من تشنيعات الدراويش.

- نعم الدراويش يحفظها عن ظهر قلب. ها - ها. من أجل قصائدها.

عرى الريح في موجة جديدة فارتفعت أصوات الجمال بالشكوى.

توسَّل أوخا:

- أسمعني بعض أبياتها.

- ها - ها.. أنا لا أقول الشعر ولا أحفظ الأشعار.

الصيدون عجزوا فأفلت الغزال ودخل صحراء الرملة. ايماءة موفقة.

الهجاء موجه ضد الصبايا. هيء - هيء... .

وردت كوكبة من النساء يتلحنن بالأردية السوداء يرافقهن صبيان حاسري الرؤوس. علا الغبار وجوههم وشعورهم التي تمتد فوق رؤوسهم كأعراف الديكة. اصطحب آخاد فريقاً من الزنوج وهَرَع لمساعدتهن لإقتناء الماء من البئر.

ما زال يجاهد كي يكتم الضحك فصاح أوخا في أثره:

- نبلي هو الذي أنقذك من مخالب بني آوى، ولولا الكبرياء لكنت بين الأموات.

حجبت الزوبعة في المنحدر وتلقَّى أوخا لكلمات التراب في الظهر، تلتها كومة من أشواك البرية اليابسة الطائرة في الفضاء. استدار يساراً فتحرَّرت الكومة وواصلت رحيلها في المدى.

صاح أوخا في عتمة الغبار:

- هل نسيت؟

ولكن السؤال أيضاً رحل في المدى.

٨ - بنو اوى

﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾.

القرآن الكريم

(١)

العطش قدر آخاد منذ الميلاد. وتروي المربية الزنجية أنه رفض أن يرضع حليب أمه عند الولادة وظلّ يلاكم الهواء ويرفس الأرض والفراغ وهو يصرخ حتى ظنّت النسوة الحكيمات أنه سيموت من البكاء، وككل مخلوقات الدينونة التي تُبعث إلى الحياة مديونة للقدر ينذر أو وعد فإن خلاصها من البلوى لا يأتي إلاً بطريق الصدفة. فتولّت الزنجية تدليك جسده الرقيق بمراهم الأعشاب البرية وقفزت القابلة الحكيمة إلى النار ورشّت الجمر بالبخور والشيخ لطرّد الجان، ولتفقاً عيون الحساد. علا الدخان في زاوية الخباء وكاد الوليد الشقي أن يختنق ولكنه رفض أن يتوقف عن الاحتجاج واستمرّ يعبر بالصراخ الفاجع عن فزعه من الحياة.

فجاء دور الصدفة.

قامت الزنجية برش وجهه الأزرق بالماء كي تطفئ النار فسقطت قطرات على شفّتيه. توقّف عن البكاء فجأة وشرع يلتقط قطرات الماء ويلعقها في شراهة جرو. وضعت على النار الوعاء لتسخين الماء ثم شرعت تسقيه الجرعات بالملعقة. وعندما فاقت أمه من غيبوبة الوضع وعرفت القصة من العجائز دهشت ثم حزنت. لأن الشقاء سيكتب إلى الأبد على أولئك الذين يولدون وفي قلوبهم تقيم الصحراء.

ولم يصدّق «أوخا» هذه الخرافة إلاّ عندما رافقه للمرة الأولى في غزوة
لقمع قبائل البحيرة.

(٢)

حول بحيرة «كوري» استطاع الزوج أن يوحدوا قبائلهم وبنوا أقوى
دولة على تخوم الصحراء. تولّت الإغارة على جيرانها في أدغال الجنوب كما
تجرأت لتأديب قبائل الملثمين في الشمال والغرب.

وورد في الأساطير القديمة أنهم أشرّ من الجن وينافسون وحوش بني آوى
في الغدر. ما أن يبلغ الولد العاشرة حتى يقيموا له طقوس الرجولة. ينفصل
بعدها عن أمه وأبيه. يتعلّم الشك ويتوقّع الخيانة من أقرب الأقرباء. يهجر
البيت ويذهب إلى السهول والغابات لتيدرّب على النوم واقفاً. يتدرّج في
التمارين من الاستناد على سيقان الأشجار أو الاعتماد على صخور البر إلى أن
يقف على قدميه ويتمكّن من أخذ كفايته من النوم دون مساعدة.

ويعتقدون أن الإنسان لن ينجو من الشرّ والغدر إذا لم يتمتع ببقظة
يستغني فيها عن الرقاد والاسترخاء. ويقول أهل الصحراء أن ابن آوى يتحفّز
إذا التقى بآخر حتى ولو كان أخاً أو أباً ويستعدّ للعراك ولا يوليه ظهره مهما
اضطّرت له الأسباب. وهذه الطبيعة الشكّاءة التي ترى عدواً في كل مخلوق
شجّعت أهل الصحراء فسّمّوهم بـ «بني آوى»، خاصة بعد انقضاءهم على
قبائل الصحراء وعدوانهم الأخير على «آزجر».

(٣)

قبلهم لم تتجاسر قبيلة في القارة وتخرج لتأديب الفرسان الزرق في
صحرائهم. وتتناقل الأجيال أن الاسترخاء والاطمئنان إلى امتلاك صحراء
أبدية لم يعرفوا لحدودها بداية ولا نهاية هو ما قهرهم ومكّن منهم «بنو آوى»
الأشرار. فمنذ آلاف السنين اعتنقوا خطة واحدة لم تتغيّر تقضي بالإغارة

ومباغته الأعداء، فإنَّ أشار رجال الاستطلاع بجلال قوات العدو قلبوا الخطة وذابوا في الفلوات وقد تحوَّلوا إلى سراب.

ولم يغفلوا يوماً عن السرّ الذي تعلَّموه من الصحراء نفسها مشروطاً بالاستنفار الأبدى. ولكن الزمان استدرجهم إلى الواحات، فزرعوا الأرض وتطاولوا لتلقيح النخيل، أكلوا الخراف حتى شبعوا فاطمأنوا إلى الماء واسترخوا في الأحراش.

خانوا العهد ففسخ لهم المجهول تعويضهم القديمة.

(٤)

بدأ الشياطين هجومهم من الجنوب الشرقي. احتلُّوا مرزق وزويلة ونزلوا إلى وادي الآجال. قتلوا الرجال والأطفال، اغتصبوا النساء وحرقوا الأكواخ، نهبوا الممتلكات وأضرَموا النيران في أشجار النخيل. ثم تدفَّقوا في الصحراء كالوباء.

نزلوا «آدرار» وذهبوا حتى تاسيلي وغدامس. استولوا على كل «آزجر»، ولم يوقف تقدمهم إلَّا المهاجرين الذين توغَّلوا في الصحراء وفروا إلى تامنغست فتحالفوا هناك مع قبائل آهجار وعادوا بالغزو المعاكس.

منذ ذلك اليوم سَطَر الدم مع بني آوى العداوة الأبدية، فحرَّمت الأمهات على الأولاد ذكرهم في الصباح وضمتهم أهل الصحراء إلى الأعداء الخالدين: الذئاب والأفاعي وريح القبلي.

(٥)

... وبرغم تراجعهم إلى البحيرة إلَّا أن غاراتهم على الصحراء استمرت. إرتكبوا المذابح. قطعوا طرق التجارة. نهبوا القوافل. استولوا على إبل الرعاة ونافسوا أهل «آزجر» في اقتسام غنائم التجار وجباية الجزية والاتاوات والعطايا من قوافل الشمال مقابل السلامة والمرور عبر الصحراء دون

اعتراض. ولكنهم ارتكبوا إثماً خطيراً لم يغفره القدر لمخلوق في القارة الصحراوية :

تسميم مياه الآبار!

ماتت المواشي في التخوم الرملية الجنوبية ولقي الرعاة مصرعهم في أعداد جماعية. انتشرت الفاجعة فوصلت إلى الشمال البعيد.

توقفت حركة القوافل وألغت رحلاتها عبر مرزق وزويلة. وبقي الطريق البعيد الذي يبدأ من طرابلس وغدامس ويمر عبر آزر وآير وينتهي في «كانو».

و شاء القدر أن يعدّ لهم القصاص على يدي شيخ الطريقة القادرية.

(٦)

وقع أوخا، مع مجموعته، في كمين واضطر للانسحاب نحو الجبل في سحابة من النبال المسمومة. ولكن الوصول إلى الجبل لم يكن سهلاً. عليهم أن يعبروا سهلاً ورايتين وثلاثة وديان كي يبلغوا السفح.

استوى الجلاد الأبدى على عرشه في قلب السماوات. نزفوا العرق وتمكّن منهم العطش. فردد آحاد مراراً: «لم أدر أنهم جبناء. لا يتسلح بالسهام إلا الجبناء!». ولم يتوقّف عن ترديد التيممة إلا عندما نهره أخنوخن بخشونة وطلب منه أن يسكت لأنه أفسد عليه القافية في أبيات قصيدته العاطفية الجديدة.

أخنوخن أشهر شعراء القبيلة. يخاف هجاء الرجال وتسعى لكسب ودّه النساء. ولكنه غريب الأطوار ككل الشعراء، ولا يروق له أن يؤلف أشعاره العاطفية إلا عندما تشتعل المعركة ويمجد نفسه تحت ظلال السيوف. وتشهد الشاعرات الموهوبات لأشعاره التي ألّفها في ظل الحرب بالعبقرية ولكنهن رفضن الاعتراف بقصائده الأخرى التي قالها وهو ينعم بالسلم في الخلوات،

ولم تخلج بعض المتطرفات من القول بأنه لا يليق بشاعر في موهبته أن يقرض الشعر خارج ساحة الحرب. والمدهش أنه آيد هذا الرأي دائماً حتى أنه لم ينظم بيتاً واحداً عن الحرب نفسها. وعندما سُئل عن السبب ردَّ بجوابه الشهير: «الحرب خُلِّقت كي ينظم فيها الشعراء شعراً عن العذارى». والفضل في شعبيته وفوزه بعشق العذارى يرجع إلى هذا التعليق الجسور.

أثناء الانسحاب ركض آخاد بالمهري بينهما واشتكى من العطش في اللحظة التي توقَّف فيها عن الشكوى من نبال بني آوى. هذه الشكوى أقلقَت أوحا، الذي يعرف صديق الطفولة، وأزعجته أكثر مما أزعج نغده للعدو الغادر قريحة أخنوخن الشعرية!

صعدوا أول رابية. على يمينهم إمتدت أودية جرداء مغطاة بطبقة من الحجارة السوداء التي حرقها الشمس الخالدة. في قلب الوديان تناثرت الطلح الصبور قاهراً الموت ليحتفظ بفروته خضراء على الرأس المرفوع. تحت هذه الأشجار أدرك العدو بعض الرفاق. وسقطوا بالسهام المسمومة. استمرَّ الانسحاب.

خلفهم تدافع بنو آوى. بعضهم يركب النوق. والبعض الآخر نائف الرفاق في العدو. بل إن المشاة تفوَّقوا على الفرسان.

ولم يفت أوحا، وهو يعدّ خطة المعركة، أن يستعيد في رأسه كل الأساطير عن بني آوى. وتذكَّر قصص العجائز التي تؤكد أنهم أسرع مخلوقات الأرض عدواً. ويُقال إنهم الوحيدون الذين يصطادون الغزلان دون حاجة إلى استعمال السلاح. شيخ الطريقة أيضاً حذَّره من تفوقهم في العدد عندما نصَّبه على رأس الفرقة وكلفه بمهاجمة الجناح الأيسر لتجمعات العدو.

أمامهم على الربوة أُصيب جل أحد الأتباع بسهم في الفخذ فتعثر المهري وارتطم بالصخرة. إنهار المهري وركع على ساقيه الأماميتين. رغى بوحشة

فتناثرت من فمه قطع كبيرة من الزبد الناصع . قفز الفارس إلى الأرض وركض ينزل المنحدر .

في هذه اللحظة فوجيء أوخا بآخاد يقفز من جملة ويتقدمه راكضاً نحو المهري النهار . ظلَّ أول الأمر أن آخاد ينوي مساعدة الحيوان البائس وانقاذه من يد العدو . ولكنه انقضَّ على القربة المعلقة في السرج وشرع يرضع منها كالجدي . ولم ينتبه للسهم المسموم الذي سدَّه أحد أبناء آوى للقربة المعلقة فنزف الماء من بطنها . وجد أوخا نفسه يقفز إلى الأرض ويقر القربة بضربة السيف . تدفَّق الماء وغَمَرَ وجه آخاد وملابسه فيها ظلَّ يقاوم أوخا ويحاول أن يلتقط القطرات دون أن ينتبه إلى تسرب السم إلى الماء . أدركهما ابن آوى شرس ، نائق الأسنان ، أحمر العينين ، وركع على ركبة واحدة وسدَّ السهم . لم يعرف أحد يومها كيف استطاع أخنوخن أن يطير بجمله من مكانه في الجناح الأمين ليدرك الخصم ويشطره نصفين بضربة سيف . صرخ مبتهجاً ثم وبَّخ آخاد : «تصرُّ اليوم أن تحرميني من نظم أجمل بيتين» . ولكن آخاد كان لحظتها يلتحم مع أوخا حول القربة . صاح أوخا : «ساعدي . إنه لا يعرف أن الماء مسموم» .

تحوَّل العراك إلى مصارعة . ولم يتوقَّف آخاد إلا بعد أن تدخَّل أخنوخن أيضاً وتعاونوا لحملة على المهري بالقوة قبل أن تدركه أفواج المهاجمين . وصلوا إلى الجبل .

انضمَّ إليهم بقية الرفاق فحاصروهم بنو آوى في واد يشقُّ الجبل المهيب إلى نصفين . في الحاشية وجدوا بئراً قديماً ولكن أوخا حبس آخاد في الكهف خوفاً من أن يشرب ماء البئر . استمرَّ يردد طوال الوقت : «عار . عار . والله» في حين حزن أخنوخن وأخبر الرفاق أنَّ آخاد أفسد القصيدة ولن يغفر له .

رابط الأعداء فوق المضيق فتحصَّنوا في الثغر بالكهوف العتماء . حاولوا مداهمتهم من الشمال حيث ينحدر المضيق ويتحوَّل إلى شعب هزيلة تفضي إلى

الوديان والسهول فتولَّى أخنوخن الدفاع وردَّهم على أعقابهم. وكان سعيداً لأنه استطاع أن يستعمل سيفه للمرة الثانية منذ بداية الحرب. إذ عليهم أن يدفعوا ثمن خطأ ارتكبه رجال الاستطلاع. غابوا أياماً وعادوا إلى المعسكر وأخبروا الشيخ أن العدو قسَّم جيشه إلى ثلاث فرق: رماة السهام، رماة الرماح، وفرقة مسلحة بالسيوف. وحددوا مواقع كل فرقة في الصحراء. قرأ شيخ الطريقة أوراده في الليل واستدعى أوخا في الصباح ونصَّبه على رأس الفرقة وأمره أن يتوجَّه شرقاً لكسر جناح العدو الأيمن والقضاء على فرقة الرماح بالسيوف. وعندما انقضوا على معسكرهم قبل الشروق فوجئوا ببني أوى الدهاة متأهبون ومتحفِّزون وينتظرون هجومهم. وقعوا في الكمين وأمطروهم بالنبال المسمومة. سقط عدد كبير منهم وفَر الكثيرون غرباً للانضمام إلى جناح الشيخ الأوسط.

أوخا ورفاقه طلبوا النجاة في الجبل.

ولكن محاربة رجال السهام بالسيوف مستحيلة.

أوخا أيقن أن جنَّ البحيرة تمكَّنوا من إخضاع الصحراء بفضل براعتهم في استعمال السهام، ولولا تروس الجلد لأبادوهم في ذلك المضيق.

ولكن النجاة لم تُكْتَب لأخنوخن نفسه، لم يُكْتَب له أن يتمَّ أجمل قصائده.

(٧)

كلما اشتدَّ جنون آخداد وصعد من العدوان لمقاومة أوخا كي يشرب من البئر المشبوه صعد شياطين بني أوى هجومهم من المرتفعات يصرخون كالوحوش قبل أن يبدأوا الهجوم بالنبال المخيفة. ولولا هذه العادة لتمكَّنوا منهم. في أسفل المضيق احتُمى ثلاثة رفاق من قبائل الأتباع بالصخور وانهمكوا يخترعون سلاحاً مضاداً للسهام المسمومة. صنعوا مقاليع وردَّوا

عليهم بالحجارة. ولكن أحدهم سقط وهو يتهياً لتسديد قذيفة من ثلاثة أحجار في مرمى العدو.

أخنوخن تولّى حماية لسان المضيق الأسفل فتمكّن من استعمال سيفه أكثر من مرة وهو يصدّ حملاتهم مستعيناً بالترس لإتقاء السهام.

اقترح أوخا أن ينسحبوا إلى أعلى عبر الفجّ للابتعاد عن البشر المسموم. قاوم آخاد فصرعه وقبّده يديه بمعاونة أحد الأتباع. أمّا أخنوخن فكان منشغلاً بمشاكسة بني آوى كي يتمكن من قفل القصيدة بالقافية التي طيّرها آخاد من رأسه عند السفح. كان يكمن وراء الصخور مترئماً باللحن الشعري ثم يقفز كالعفريت ليطارده ابن آوى ملحاح يقف في رأس الجرف، يدرج عليهم الحجارة ليسحقهم بالصخور. يلوّح بحربة في الهواء ويطلق بأسنانه مهدداً فيجيبه أخنوخن بالسخرية والضحك والغناء.

ثم توقفوا عن مهاجمتهم. اختفوا.

تساءل أحد الأتباع:

- هل انسحبوا؟

قال أخنوخن:

- لن ينسحبوا قبل أن يعدّوا خطة للقضاء علينا.

أيّده أوخا محترساً من أن يستغفله آخاد العطشان، الهائج:

- لماذا يتعبون أنفسهم؟ إنهم مقتنعون أننا سنموت في كل الأحوال. إن لم يكن بالعطش فبالماء المسموم.

قرأ أخنوخن أبيات الاستهلال في القصيدة ثم غناها بصوت عال ولكنه لم يستعد الأبيات الضائعة. عاد يصرّ أنها أنفس الأبيات.

في تلك اللحظة فكّ أحد الأتباع رموز «التيفيناغ» المحفورة على سقف

الكهف وأزاح لوحاً من الحجارة في الزاوية المظلمة فرأى الضوء في نهاية النفق الطويل. صاح بلا وعي:

- النجاة! النجاة!

رددت جدران الكهف النداء وقفز أوحا ليغلق فمه بيده. ولكن النجاة لم تُكتب لأخنوخن.

أصيب بسهم مسموم في الصدر في تلك اللحظة.

(٨)

تعاون التابعان لحمله وتفرغ أوحا لدفع آخاد لعبور السرداب المعتم الطويل. وعندما وصلوا إلى الفوهة الأخرى بدأ أخنوخن يحضر. بعث أوحا بأحد الأتباع ليجيء بالنجدة من المعسكر وانحنى فوق السهم المشؤوم. عود صلب مقتطع من أشجار الأدغال طوله أقل من ذراع. مصقول بعناية وموسوم برموز سحرية. غاب طرفه المسموم وانغرس في جسد أخنوخن فلم يعرف ما إذا كان الطرف الآخر مسلحاً بحربة نحاس أم أن السم مطلي على الطرف المدبب من العود.

كشف عن الصدر فوجد أن المكان حيث استقرت الإصابة انتفخ. ثم استشرى السم وانتفخ الجسم كله. ورأى كيف تنتشر القروح. لأول مرة يشاهد إنساناً يموت بالسم.

إرتبك وخذله العطش. تحت الصخرة ارتفع أنين آخاد وبدا كأنه يحضر أيضاً. فوق رأسه وقف التابع الثاني يلوك قطعة من التبغ كي يستحضر في فمه اللعاب.

بدأ أخنوخن يهذي. يغني أحياناً ويتمتم أحياناً أخرى بكلام مبهم. في النهاية قال بلغة واضحة أنه لن يغفر.

مات قبل أن يقفل باب آخر قصيدة.

(٩)

جاءت النجدة لتأديب الهمج .

عادوا بالرفاق إلى المعسكر ولكن أوحا أصرّ أن يرافقهم في غزوة الانتقام . أقنع قائد الحملة أن يشاركه في رسم الخطة . أبقوا حراساً على فؤهة النفق وداهموا الزوج من النواحي الثلاث . زجوا بهم في نفس الفخ .

استمرّ الحصار عدة أيام . كان يسلّطون عليهم رماة النبال كلما حاولوا أن يفكّوا الحصار فيضطروا للاختباء في الكهوف . حاولوا أن يعبروا السرداب إلى الضفة الأخرى فردّهم العسس بقساوة وأصيب المارد ذو الأسنان الناتئة .

ثم . . .

شربوا من الماء المسموم .

(١٠)

جاء آخاد من المعسكر وشاهد مع أوحا جثتهم القبيحة التي شوّوها السم كما شوّ جسد أخنوخن .

مكتوب في «أنهي» الضائع أن الماء هو الشيء الوحيد، في الصحراء، الذي يستطيع أن يفعل هذا. مَنْ تجاسر وسَمّمه أو أفسده إنقلب عليه الشرّ ووجد نفسه مضطراً أن ينهل من نفس النبع .

٩ . الميعاد

«هذا حدث في كل الديانات، مؤسسوها قادوا الإنسان إلى الصحراء. . بعيداً عن مصر. ولكن جاء قادة آخرون وعادوا فجرّوه إلى الورا، نحو مصر جديدة، برغم أنهم أطلقوا على الأخيرة أرض الميعاد». أريك فروم - «التحليل النفسي والدين»

(١)

تنازلت العرافة وتعاونت مع فقهاء السهل لربط القبلي. ولم يطمع أحد في أن تتحلّى باللين وتتسامح مع خصومها القدامى لو لم تتدخل الأميرة بنفسها وتمارس تأثيرها على العجوز المكابرة.

وقبل إنجاز هذه المصالحة لم يكن أحد من أهالي السهل ليقتنع بأن هذه المهاجرة المجهولة التي تتمتع بالمال والجمال يمكن أن تتمتع بالعقل أيضاً. واعتمدوا في شكهم على ماثورة منسوبة إلى «آني» تقول إن العقل والجمال لا يجتمعان في امرأة، ولكن «تينيري» احتكمت إلى نفس المنهل في وساطتها لمصالحة الفريقين فقالت إن دستور الصحراء الضائع هو الذي حث الفرقاء على الاتحاد وأوجب زوال الخصومة عندما يهددهما عدو واحد.

بدأ أهل السهل الطقوس وسفحوا دم القرابين قبل أن ينتصف الشهر بثلاثة أيام. جاءت العرافة واستولت على عظمة الكتف في كل حيوان ذبيح لترى فيها خطط العدو. ثم أخذتها إلى بيتها ودفنتها تحت الركيزة بعد أن وشمتهما بالتهائم الخفية. جاء دور الفقهاء فاستعانوا بالقرآن وسطّروا الأحجية والتعاويذ ودسّوها في جلود الغزلان.

الإمام أقام عموداً من السدر أمام خيمته وعلّق فيه التعويذة.
هدأ الريح، فتهاى الأهالي لبدء مراسم الميعاد.

(٢)

السهل مسَّه السحر وتغيَّرت طبيعته في شهور.

عند سفوح القرين المغرور بعث مرده آير مدينة من الحجر ورأت الريح أن تنافسهم فنفَّذت خطتها في تعديل وضع الصحراء. مسحت السنة رملية شرعت في بنائها فوق العراء الغربي، في غاراتها الماضية، وقامت بنقلها في هجومها الأخير إلى مواقع جديدة. رفعت مستوى تلتها على مشارف البئر، رغم مقاومة أوحا المستمرة، وزحفت على المرتفعات الشرقية التي تطوَّق البئر من الناحية الأخرى. حاصرت المخيم بسدود الرملة وبسطت نفوذها على الخلاء الفاصل بين المعسكرين في نيَّة لثيمة وغامضة لعزلها بالتلال ومشاريع المرتفعات.

وعندما جاء الوقت وحلَّ موعد الميعاد هَرَعَ الخبراء لتحديد العراء الملائم لاستعراض المهاري. ولكن الألسن الرملية شوَّهت الأرض بالتجاعيد وأفسدت بكاراة الخلاء وخلقت العراقيل في السهل الفسيح.

أخيراً وقع الاختيار على الموقع. العراء المحرَّم المجاور للجبل الوحيد المحصَّن في الصحراء من غزو الرملة: ايدينان المسكون!

اعترض العقلاء ولكن رضخوا في النهاية بعد أن قامت العرَّافة بتقديم ضمانات تؤكد عدم المساس بالهدنة مع أهل الخفاء. أيدها الفقهاء أيضاً وطافوا في الموقع وهم يقرأون آية الكرسي ويتمتمون بالتعاويذ المستوحاة من كتبهم الصفراء.

انتقل السهل واصطحبوا ضيوفهم المهاجرين إلى الأرض الحرام، بدأ المهرجان برقص المهاري.

(٣)

تجمَّعت النساء في حلقة عند حذاء الجبل. يتلفحن بـ «تابركامت» الأرجوانية. جدائلهن مضفورة ومدهونة، يزين الخرز صدورهن السمراء.

وتلمع الأساور والأقراط والخواتم في المعاصم والأذان والأصابع.

خلفهن، بمسافة قصيرة، اصطفً الشَّباب المتَّوجُّون بالعمامات الزرقاء، منفوشون بممصانهم الطويلة الفضفاضة، تربُّعوا على الأرض في جلال، ولزموا الصمت كأنهم يحصون أنفاس بعضهم. على يمينهم بمسافة أقصر وقف طابور الصبيان، بعضهم معممون بعمامات هزيلة بيضاء، وآخرون حاسرو الرؤوس. حلقوا شعورهم من جانب واحد وتركوا الجانب الآخر. فريق آخر حلق رأسه من كلا الجانبين وترك عرقاً من الشعر امتدَّ من الأمام إلى الخلف. فوق التلة الغربية تفرص الشيوخ يتوسَّطهم الزعيم مع ضيفه «أناي». بعضهم ارتدى ملابسه الزرقاء واكتفى البعض الآخر بشدِّ الأحزمة الجلدية على البطون وارتداء قلادات التائم المخفية أيضاً في قطع الجلد.

تقابل فرسان المهاري من الجانبين: في أقصى العراء، غرباً، تاهب فريق فوق جمال ضامرة كالغزلان. قابلهما في أقصى الشرق، باتجاه القرين البائس، عدد مساوٍ من المهاري، مزينون بسروج أنيقة من الجلود المنقوشة بالرسوم والتائم. من طرف كل سرج تدلَّت جعبة طويلة ملونة ومنقوشة أيضاً بأنامل الحسان المجهولة، ينتهي طرفها السفلي بفروة من السيور. الزمام مضافور بعناية وبخيوط متعددة الألوان. فوق السروج جلس فرسان كالطواويس، يتهيَّأون للسباق والرقص حفاة الأقدام.

في عيون المهاري استنفار ووميض وحزن.

(٤)

الراقص الوحيد أفسد إنسجام الرقص.

نزل من كهفه المخيف في الجبل المسكون وغاب وراء التلال الشرقية. مضى زمن قصير ثم ظهر فجأة فوق ناقته البائسة، العجفاء، وقد ثُبَّت فوق ظهرها سَرَجاً قديماً متأكلاً بهتت خطوطه وامتصت الشمس ألوانه ونقوشه.

دخل حلبة الرقص من الجهة الشرقية وانضمَّ إلى ثلاثة مهاري تجاوزت في انسجام بديع وركضت بهدوء وجلال لتقابل مع نظيراتها الثلاث المنطلقة من الجهة المعاكسة. شكَّل دخوله رقماً مزدوجاً فأصبح العدد أربعة بدل ثلاثة فخرق الانسجام وأربك النساء فتوقفن عن العزف. فقدت المهاري الحساس بسبب توقف الموسيقى والغناء فطاف أحدها حول حلقة النساء معبراً عن احتجاج. حاول الفارس أن يرده فتمردَّ وجفل وخرج من الحلبة المرسومة. اعترضه بعض الشباب فرفضهم بسيقانه وهاج وتساقط الزبد من شفتيه. لسعه صاحبه بالسوط فقفز في الهواء وأسقطه على الأرض.

هرع الرجال ولكن الفارس الدخيل الغامض لم يبال. مضى إلى الغرب، بهيئته البسيطة، يجلس فوق الناقة العجفاء. اجتاز كوكبة الفرسان في الجانب الآخر من العراء ومضى إلى المجهول، كأنه جني يريد أن يجتاز الأفق ويعبره إلى القرص المستحيل.

(٥)

في الليل تواصل المهرجان.

استمرَّ الغناء.

سبح قرص القمر في الفضاء ملفوفاً بغلالة من الغبار. ولكن الضوء الشاحب تدفَّق في الخلوات.

لن يذوق طعم الحياة مَنْ لم يتنفس هواء الجبال.

تأخَّر في النزول إلى الحضيض. أخبره الرعاة بالاستعدادات ولكنهم استبعدوا الميعاد في الموعد القريب بسبب تواصل القبلي. لم يتوقعوا أيضاً أن يتصالح الخصوم القدامى فتتحالف العرَّافة مع الفقهاء لمحاربة العدو الجديد. سكنتِ الريح. ظنَّ أن القبلي هجع ليتزوَّد بأنفاس قصيرة لمواصلة رحلته الطويلة إلى الشمال.

في العشية رأى الدمى من صرحه المعلق. المهاري السامقة، الضامرة
كالغزلان انكشمت كالقثران. على ظهورها استقرّ فرسان كدمى الأطفال.
تحوّلت قامات الشباب المارد، المكابر، بأجسامهم المنفوشة باللباس الفضفاض
إلى طابور من النمل. زحف الصبيان على الأرض كالديدان.

راقبهم من القمة عبر غلالة الغبار وضحك كالمجنون وهو يستلقي إلى
السواء. فكّر في قمته السماوية التي تستنكر العجرفة فتمسح المكابرين
والمغرورين وتحوّلهم إلى قثران وديدان وحشرات.

القمة لا تتمتع بالقدرة السحرية على المسخ فقط ولكنها تتمتع بروح
السخرية أيضاً.

قرر أن ينزل إلى الحضيض. سيتقمّص النملة أو يحلّ في دودة أو فأر.
لا. لا. الدودة مقرزة والفأر نهم وشقي. النملة أشرف مخلوق في السهل.
مكابرة ومثابرة ولا ينقصها العناد. دين أهل الصحراء دين النمل أيضاً.
النمل أشبه مخلوق بالضائعين في الفلوات وروّاد الجبال. ها - ها. . .
اجعليني غلّة يا قمة السماوات. ها - ها. . .

(٦)

دُبّت الحياة في البقعة الحرام.

جرّت النساء الثياب على الأرض وتنقّلت العذارى بين حلقات الغناء.

انقسم الشبان أيضاً إلى مجموعات وجرجروا القمصان الواسعة الأكمام
بحثاً عن الألحان الجديدة. الشيوخ تجمهروا على الراية المهجورة وأوقدوا
نيران السواء والشاي.

اخترق صفّاً من الرجال: زنوج وأتباع وصبيان، ومثى بمحاذاة الجبل
المسكون. بكى «أمزاد» بنغم حزين. لحن مميز انبعث من تجمع النسوة في
الطرف الغربي. الحان آير الأسطورية. أهل آير سحرة في الغناء أيضاً.

يروق لبعض المتطرفين من حكماء «آزجر» أن يرجعوا سرّ الفعالية في سحرهم إلى تفوقهم في الموسيقى والطرب والأشعار. ويُقال إن غناءهم يجعل الحجر الأخرس يجذب ويطرب ويقع في الوجد.

عبرت غلالة الغبار فحجبت القمر. أبصر الدرويش في زحام الأتباع فتجنبه ومضى مهتدياً بصوت ينطق بأقدم اللغات ويومئ بأنفس الأسرار. رقص القلب وسرّت في أطرافه رجفة. عبرت الغلالة فتعرّى البدر. عرفه الدرويش فجاءه يعدو. اعترض طريقه. وضع شاشاً أبيض على رأسه تاركاً وجهه عارياً. كشف عن أسنانه البارزة فسال اللعاب على الأرض في خيط طويل لمع تحت ضوء البدر. التفت بجسمه إلى اليسار وتفحصه بعينه الحولاء قبل أن يكشف عن العرض:

- هناك بدأت مبارات الغناء. ليس في السهل مخلوق يمكنه أن ينافس شياطين آير غيرك.

اعترض أوداد:

- ولكني لا أنتسب إلى السهل!

ضحك الدرويش وسار بجواره:

- ولكنك إنسان، والإنسان لا بد أن ينزل إلى السهل يوماً.

- لا أنزل إلاّ مجاملة لأمي.

- أين ستطير؟ حتى الصقور تنزل إلى الحضيض. أعشاشها في القمم

ولكنها تموت في السهل.

- ها - ها .

- لا يموت في السماوات إلاّ الملائكة. هل أنت ملاك؟

- ها - ها . .

اقتربا من الحلقة فرقص قلب «أوداد» في صدره. فاضت الحرارة واشتدّت الرعشة. كان محموراً ولكنه لم يسقط في الوجد.

ترْبُع على بعد خطوات من الحلقة. على يمينه جلس طابور من الأشباح المعممة. في السهل تصاعدت الروائح. عطور وبخور ورائحة أجساد النساء. لا يعرف أن للمرأة أقوى والذ رائحة إلا ودَّان جبلي مثله. ما أشهى روائح العذارى. ما أطيب أصوات المغنيات. تصاعدت الحمى أيضاً. في قلب الحلقة استطاع أن يكتشف وجهاً في ضوء البدر. وجه يعرفه قبل أن يولد ولم يره منذ أول لقاء. مدوّر. تزين «تيفتست» وجنتيه وشفتيه بلون القرمز. على الصدر تتدلَّى جدائل كثيفة من الشعر الفاحم. تمرَّدت وأفلتت من حصار اللحاف الذي يغطي الرأس، وتقوَّست، مشدودة إلى الخلف، وراء الحجاب. يا ربي! لا يعرف ما في هذا الفن من سحر وإغراء إلا ودَّان نزل من الجبل للتو. التهاب البدن بالحمى ولكنه لم يغيب في الوجد.

في المعصم الرشيق، كعود الأبنوس الحبشي، استقرَّ سوار فضي مضمفور في التواءات متقنة على طريقة الجلود. لأول مرة يرى صناعة بهذه الدقة. حدادة آير أيضاً سحرة.

في حضنها رقد «امزاد». لم يتبين النقوش على الضوء الباهت بسبب غلالات الغبار العابرة ولكن الجلود كانت كثيفة، وربما مزدوجة، على قاعدته البيضاء الصغيرة. حجمه أصغر من الأحجام العادية وصوته فريد في نغمه المنفرد الوحيد. احترق القلب وشَمَّ الشياطين. ترنَّح وسمع في الجنات طائر الفردوس:

أَدْران ويلني طيلمين د مناس
أَدْران وونلي آر تيغراس
الرَّزغن ديدغ أسوغدن دونفاس^(*).

(*) أحياء أولئك الذين لا يملكون القطعان والإبل.
أحياء أولئك الذين لا يملكون سوى الأنفاس.
لأن الرزق سيسعى للإنسان طالما بقيت روح في بدن.
(من قصيدة قديمة لشاعر مجهول).

شُقَّ صوته السماوات فانتبه الجن في ادينان وأصفوا. زغردت الجنيات في كهوف تادرارت، رقصت الحوريات في فرايس المجهول.

انتقلت العدوى فاشتعلت أجساد النبلاء بالنار. عمَّ الصمت وأنصت حتى الشيوخ فوق الراية المهجورة. حتى الأطفال حبسوا أنفاسهم بجوار أمهاتهم.

استمرت أنامل الأميرة تنتقل برشاقة فوق الوتر الرباني، المتوتر، المشدود. يمزقه الانتشاء ويقطع قلبه الحنين الخفي إلى المجهول. في نغمه لطفة وإصرار على اكتشاف سر الصحراء والحياة.

رفع أوداد صوته مرة أخرى محاكياً طائرته المجهول:

الدونيان - تزيديرت ات كراس

وديسيقم أر ايدينان غاس

وساس كور يرى آضو يغلاياس

اد كومبت سابهه تكراس فولاس(*).

تمايل أوخا. تبعه آخماد وثلاثة أتباع. ونفّسوا عن صدورهم بأهات مكتومة، فاجعة تشكو للسماوات الضياع الأبدي وقساوة الاغتراب في صحراء الله الواسعة. ولكن اوداد صعد من شكوى أقصى وأعذب. صعد إلى قممه وتجاوزها فسيح في الفضاء.

لم يلحظ القطع النقية، الندية، التي برزت من عيني الأميرة. سقطت على الآلة العجيبة ولكنها لم تتوقف عن سحق الوتر الملهوف بأصابعها الظامنة. فارتفع النغم يجاري غناء الفردوس، يلتحمان في سورة إلهية أحياناً حتى تتمزق القلوب وتدمع العيون من فرط النشوة، ثم يتراجع أمزاد ويفسح المجال للصوت المبعوث من الجنة أحياناً أخرى. وقد يحدث العكس:

(*) وردت ترجمة النص في قسم «القرين الضال».

ينسحب الصوت ويترك المدى لقرينه الساحر. ولم يعرف أحد في الصحراء، لماذا يستطيع الغناء وحده أن ينفرد بالمعجزات فيسطيح بوقار النبلاء ويذيب حجل العذارى. ينقشع الكبرياء وتتبخّر الطقوس والمراسيم. يُجذّب المعاندون وتتحب الصبايا والسيدات.

ثم... قفز واقفاً.

كان السهل كله يرتجف ويتمايل ويخفف عن الحريق بالآهات الفاجعة. تحرك أوداد نحو الجبل فاعترضه الدراويش. وقف أمامه بيلاهة وقال وهو يمسخ خيوط اللعاب بظاهر يده:

- وعدتني أن تأخذني إلى الجبال وكذبت عليّ. علمني بالله الغناء. أنا أتنازل لك عن كل شيء مقابل أن تعلمني الغناء!

هيهات أن يسمع ثرثرة الدراويش من دخل بوابة المجهول ونهل من ينبوع السرّ.

(٧)

ارتطم به في زحمة الخلق. ركع البدر وهدد السهل بالعتمة. وبرغم ذلك أحس «أناي» برجفة وهو يرى الوجنتين المحفورتين بالجذري. لم تكن ملامح الوجه المجذور وحدها سبب الرجفة ولكن عينيه لمعتا بنظرة جريئة، خفية، ساخرة. مشى خطوات ثم وقف والتفت. وجد نفسه يصيح:

- أنت!

ضحك الشبح الهزيل ورفع طرف اللثام السفلي ليحكم القناع حول أنفه:

- أنا.

انتفض أناي. قفز إلى جواره وتساءل مرة أخرى:

- أنت!

- أنا.

حبس الانفعال فأحسّ بنار تصعد إلى الرأس . تابعت الأنفاس وقال
ببلاهة:

- كيف غاب عن بالي . كيف . . كيف فاتني أنك المخلوق الوحيد الذي
يرجّو للريح؟ كيف غفلت عن إدعاء البحث عن الكنوز؟

أقرب منه الشبح وأمسك معصمه . همس بمرح:

- وَمَنْ أخبرك أني لا أبحث عن الذهب؟

أزاح أناي يده كأنه يتخلّص من أفعى:

- متى كان الكثر همُّ العرّاف؟

- هيء - هيء - هيء . . وما أدراك أني لم أغير طبعي ومهنتي أيضاً؟

- ومتى كان العرّاف يغير طبعه أو مهنته؟ .

- هيء - هيء - هيء . . هنيئاً . أنت أيضاً لم تتغير . العناد وشراسة
الطبع .

- تتجاسر في بلاد الأغراب . تدخل حلبة الرقص بناقة جرباء لتفسد
الميعاد .

- عجفاء . الناقة عجفاء! .

- تستوي فيها الأوصاف عندما يكون العرّاف صاحبها .

- ولكن كل شيء انتهى على خير وها أنت تتسكع وتتمتع بميعادك . هيء

- هيء . . .

- صرعت أنبل رجاله وكدت تحطم ضلوعه .

- هيء - هيء . . ولكن ضلوعه لم تتكسر بفضل الله .

زفر أناي بوحشية وكنم الضيف ضحكة لثيمة . ثم استولى أناي على

معصم العرّاف وقاده جانباً في العراء. هَذَرَ غاضباً:
- يجدر بك أن تمضي حالاً.

ضحك العرّاف المجذور فأضاف المهاجر:
- إلى المجهول. إلى أي مكان. الصحراء واسعة.
قال العرّاف ببرود:

- أخشى أني لن أستطيع.
- ستستطيع. السهل لن يحتملنا معاً.
حرّر العرّاف يده من قبضة أناي وقال ببراءة:
- أخشى أنك ستذهب إلى المجهول قبلي. هيء - هيء.. لا تعتبر هذا
نبوءة مني.

هَدَدَ أناي:
- سأكشف لهم عن الحقيقة. سأخبر الزعيم بحقيقتك.
- وحقيقتك؟
- سأقول إنك عرّاف من بلاد المجوس.
- وسأقول عنك الحقيقة. أظن أنهم ملّوا الريح، وريح القبلي هذا العام
تمادت على غير العادة دون أن يعرفوا لذلك سبباً.
- أنت لا تعرف كم يبغضون المجوس وعرّافي «كانو».
- أنا أعرف كم يبغضون القبلي وعداوة الرملة. آه لو عرفوا أنك
السبب.

فَقَدَّ أناي صوابه:
- اسكت يا عدو الله!
- ها - ها - ها. الآلهة تعرف مَنْ مَنّا عدوّها الحقيقي فلا تجدّف
عليها!

سكت أناي . دعا رفيقه إلى الجلوس في العراء . توغل البدر في رحلة الغروب . تنقل الرجال في مجموعات وبدأت الساحة تفرغ من النساء . في الشرق دقت بعض الصبايا على الطبول وحاولن إرواء المجذوبين .

قدّم أناي عرضه :

- ماذا تريد؟ ماذا يرضيك كي تدعني في حالي؟

رفع العراف طرف لثامه وغطى أنفه قبل أن يجيب :

- أنت تعرف ماذا أريد . «امناي» هو الذي يريد ولست أنا وواجبي أن أطلب رضا .

- دعنا من «امناي» .

- أنا لا أريد أي شيء . لقد اعترفت منذ قليل أن العراف لا يبحث عن الكنوز .

- لا تتدخل بيني وبين «امناي» . كما لم أقدم عرضاً لشرائك بعد .
- لم أتدخل . كل ما في الأمر أني أحاول أن أوقف القبلي . أريد أن أنقذ أرضي من زحف الفناء . في الماضي عندما حنت أمثالك ولم يفوا بالنذور هاجم وادي النيل وكَوّن بحر الرمال العظيم في الشرق ، وأقام بحراً عظيماً من الرمال في الغرب ، واليوم يريد أن يشق الصحراء نصفين ويمد بحراً عظيماً في الوسط بسبك .

- لا تريد أن تتنازل . سأشي بك .

- لن تفعل شيئاً . سأخبرهم بسرّك !

علت الفجعة في صدور المجذوبين . حاولت حناجر المغنيات أن تخفف من آلامهم .

عاود العراف التحذير :

- لن تفعل شيئاً . سأخبرهم بسرّك !

١٠ . الرؤيا

«وإلى جوار النسامونيين يقيم البسلس . وهم قوم
أهلكهم ريح الجنوب (القبلي) وغمر آبارهم . منذ ذلك
الحين أصبحت كل البلاد الواقعة داخل سرت صحراء .
تُشاور القوم فيما بينهما وقرروا غزو الريح الجنوبية (وأنا
أُورد هنا ما يرويه اللييون أنفسهم) حتى إذا بلغوا الرمال
باغتتهم القبلي وطمرهم جميعاً بعد هلاكهم جاء النسامونيون
وملكوا بلادهم» .

هيرودوت - «التاريخ»

(١)

أمنائي، إله القبلي، حفره الريح في فجّ بين أعلى جبلين شمال «تينبكتو». رأسه معمم بقناع حجري موشى بطبقة من الحصى يغطي العينين وينسدل حتى الأنف المكابر المنصوب إلى أعلى، نحو السماوات. ورغم اختفاء العينين وراء الحجاب إلا أن هيئته ظلّت توحى بصرامة وكبرياء. يترعّع على قاعدة صخرية متحركة، يمم شطر الجنوب، نحو المدينة، في حال السكينة. أمّا إذا جاع وأراد القرابين، أثار الزوبعة، واستدار بنصفه العلوي كله إلى الخلف، والتفت إلى الشمال، حيث تنحدر عند القاعدة، في الفجّ، هاوية لم يعرف لها أحد قاعاً. ولن يتوقف القبلي ويعود الإله إلى وضعه الطبيعي إلاّ عندما يهرع أهل الصحراء ويلقوا له، في الهاوية، بأجل عذراء. هكذا استمرّ منذ أجيال لا يعلم أحد للبداية تاريخاً.

(٢)

لم يكتفِ الزعيم بمعاشرة أولى الصبايا في تينبكتو وإنما اختار عذراء أخرى لتقديمها قرباناً للإله. ولم تشفع توسلات العقلاء ولا تدخل الشيوخ في إقناعه بالتراجع عن طعن مشاعر المسلمين بشعائره المجوسية، وأعاد على وفد الإيمان، الذي جاء للشفاعة، رموزه القديمة التي استوحاها من لغة السحرة وترجم تقلّب الديونة وغدر الزمان. أضاف إلى التعويذة سطرّاً جديداً لم

يُذهِشُ المطلعين على ناموس الجن: «مَنْ أراد أن يملك الذهب تنازل عن كل شيء. هذا أول الشروط».

عاد البؤساء إلى البيوت واستعادوا تعاليم النبع الحكيم، الدستور المفقود «أنهى» الذي تتناقل الأجيال قوله إن الذهب إذا برق في أرض، عميت روح أصحابها وفقد الناس الهداية والصواب. يسهل سفح الدم المحرّم ولن تقف نفس الآثم عند حدّ. فك الزعيم الحصار عن «امناي» وأحيا تقليداً قديماً جُبِلَ عليه سكان الأدغال قبل الفتوحات: رقص الزوج عند قدميه بوحشية. صعد الغبار فدفَعوا بأجل عذارى «تينيكْتو» إلى الهاوية.

تحسّر المؤمنون في زواياهم على عهدهم وهم يرون نفوذ ابن أخيه يذوب. ولم يكن خافياً على أحد أن زعيم «بامبارا» هو السلطان الفعلي.

(٣)

عاد الزعيم بالسلطة إلى الأدغال وترك لـ «أورغ» بعض الصلاحيات البائسة في القصر. ولكن الإله القديم قرر الانتقام أيضاً بعد أن تحرّر.

بعد عام عصّف بتينيكْتو إعصار مزج النهار والليل في قطعة واحدة من الظلمة استمرت أياماً. تألم الشيوخ وهم يشاهدون ما حلّ بعاصمة الإيمان من خراب وعلقوا السبب في رقة «أورغ» الذي رهنها للمجوس مقابل أن يتلقى المعدن المنحوس. ولم يكتفِ بالتنازل عن الأرض والعرض ولكنه تدخل في النفوس وسمح للهمج بممارسة شعائر الأوثان فارتدّ عن دين الله. عانت الزاوية القادرية من الاضطهاد فهجرها المريدون وهاجروا إلى أغاديس وأزجر وآهيجار. ويشاء القدر أن يرتّب لكبير الشيوخ موعداً مع ربّه فمات في اليوم نفسه الذي أفرج فيه عن «امناي». ولم يستبعد العقلاء أن يكون المسكين قد مات غمّاً.

انزوى أولئك الذين بقوا على إيمانهم في بيوتهم وبحث الحكماء عن العزاء

في الصبر والانتظار. ولم يبق على صلته بالسلطان إلا عدد ضئيل من ضعاف النفوس.

بعد الإعصار استدعاهم أورغ للقصر بقصد التشاور. ولكنهم فوجئوا بتدخل السحرة المجوس. تداولوا في الإشارة طويلاً، وأرجعوا سبب الإعصار إلى مزاج الإله. تحاوروا واختلفوا وأجمعوا أن يحتكموا إلى زعيمهم الروحي في الأدغال دون أن يتيحوا لشيوخ تينبكتو الإدلاء برأي.

بعد أيام جاء من الأدغال العرّاف المجدور رسولاً عن الزعيم.

(٤)

يرجع «ايدكران» بأصوله إلى تينبكتو، هاجر أجداده إلى «كانو» بعد توطّد الدعوة في عاصمة الذهب. والعلماء بتاريخ الفتوحات يقولون إنّ الجد لم يخرج من تينبكتو طائعاً ولكن ختامان هو الذي نفاه خوفاً من نفوذه الروحي على الأهالي. إذ لم تر الصحراء الجنوبية كلها عرّافاً يفوقه في نفاذ البصيرة والتنبؤ بما يحول في بال المجهول. ويقال إن مواهبه بلغت حدّاً جعله يتنبأ بعودته إلى الوطن مخبئاً في بدن حفيده «ايدكران» بعد مئات السنين. وما زال الكسالى والعاطلون يتسلّون برواية ما جرى بينه وبين ختامان الحكيم عندما أصدر الأخير أمره بالإبعاد. فخرج بنفسه يشيعة في طريق المنفى تقديراً لنفوذه فاعترض الفقيه الذي رافق الموكب فذكر المؤمنين بالحديث الشريف: «كذب المنجمون ولو صدقوا» ثم مضى في الاستفزاز فأضاف: «أخيراً ستهنأ جوهرة الصحراء وتنعّم بالخلاص من شرّ آلاف السنين. لا يدوم حال». ولكن العرّاف الحكيم تجاهل استفزاز الفقيه برغم أنه التقط الإشارة الأخيرة واستأذن سلطان المسلمين في أن يسدي له نصيحة. يُقال إنه قال: «لن يستغفل القدر من لم يغفل عن غدر الزمان. لا أملك يا سيدي إلا أن أحبي فيك التيقظ والاستنفار برغم أن هذا يحزنني من ناحية أخرى لأنه سيؤخر الردّة ويعيق عودة ذريتي إلى أصلها مئات السنين».

عودة الحفيد الظافر أحزنت الثقة ودفعتهم إلى هاوية اليأس .

(٥)

اجتمع بالسلطان . في الليلة التالية اختلى بالآله عند الجبلين . ولم يعلم أحد ما فعله هناك ولكنه فاجأ المجلس الهزيل بنبوءة جديدة جاءتهم بعار جديد . تربيع في الرواق المفروش بالكليم التواقي وضحك ضحكته الكريمة وقال :

- إذا أردتم أن يرضى امناي وتأمّنوا جنون القبلي فيجب أن ترضوا بتعديل القرابين .

عمّ الصمت فرشف ايدكران من كأس الشاي ثم وضعه أمامه على الكليم . عدّل من لثامه الهزيل وثنى الطرف السفلي على الفم . لم يعر اهتماماً لفضول المجلس وكشف السرّ بعد صمت طويل :

- منذ اليوم لن يرضى بغير سلالة النبلاء .

استفهم السلطان بإشارة استنكار وضحك أحد العرّافين القدامى في الزاوية العتماء بصوت مخنوق . أدركت الفئة الباقية ، التي ارتضت لنفسها ذلّ المجوس ، من الشيوخ أنهم يُساقون إلى عار جديد أبشع من كل ما سبق .

ارتجفت أصابع السلطان النحيلة قبل أن يعترض :

- لم نسمع أن بين الدماء فرقا قبل اليوم .

انطلق ايدكران لقمع الاعتراض :

- يوجد فرق بين الدماء كما يوجد فرق بين الآلهة . امناي ليس كبقية الآلهة . أنت أول مَنْ يعلم يا جناب السلطان .

حاول أورغ أن يداري الانفعال ولكن الكيل فاض أخيراً :

- يا سبجان الله . ألا يكفي أننا خالفنا ديننا وسمحنا للزعيم بالإفراج عن الصنم؟ ألا يكفي أننا سلّمنا بعدها في الشرف ورضينا بتقديم قربانٍ نهانا عنه الدين؟ .

استمرَّ ايدكران في الدفاع :

- مَنْ تنازل عن شيء في سبيل كنوز الذهب تنازل عن كل شيء فيما بعد. هذا ما ورد في عرف العرَّافين منذ أقدم الزمان.

رفع رأسه وبدت آثار الجذري في وجنتيه البارزتين. حدَّق في السلطان بجساره قبل أن يواصل :

- قَدَّمت تضحيات جسيمة لإنقاذ تينبكتو. أحبي فيك هذه الروح. أجهل مدينة في الصحراء تستحق ذلك. ولولاك لما استطعت أن أفوز بالعودة إلى أرض الأجداد.

التقط السلطان نغمة السخرية فعقَّب بئأس :

- ماذا يفيدنا إنقاذ تينبكتو إذا كنا نوشك أن نخسر أنفسنا؟

ضحك العرَّاف القديم في الزاوية وفجأة قفز أحد الشيوخ البؤساء الذين تناثروا في الرواق الكبير يصغون للحوار. وقف بينهم يرتعد ويتنقل بعينه بينهم كالأبله، ثم صرخ بجنون.

- يا شفاعة يا رسول الله. يا شفاعة يا رسول الله. الردَّة! إنها الردَّة!.

ثم انطلق وخرج من القصر راکضاً.

في الزاوية العتاء همس العرَّاف القديم في أذن أقرب جليس :

- هل هو درويش؟ حتى الأطفال في تينبكتو يعرفون أن الردَّة بدأت من زمان.

وأعقب تعليقه بضحكة شريرة.

(٦)

أقام ايدكران في مغارة برأس الجبل الذي يحدُّ إله القبلي من جهة

الشرق. وشوهد وهو يحوم حول الصنم في الظلمات. يحرق العظام والبعر ويمارس عباداته السرية. وعندما توصل الأعيان إلى سنّ ميثاق حول القربان أشرف بنفسه على إنجاز القرعة.

وقع اختيار «امناي» على صبية في السابعة عشر وحيدة الأبوين. ولم يكن الأب سوى ذلك الشيخ البائس الذي تشفع من الردة بالله والرسول.

(٧)

سارت الحسنة النبيلة بخطوات ثابتة ممدودة القامة، مرفوعة الرأس، حاسرة، تتدلى جدائلها الظلماء المصفورة، اللباعة بالدهون، على صدرها البكر، النافر. سارت، بين صفوف الأهالي، بجلال يليق بعذراء تُزفُّ إلى مخدع الآلهة. ولكن الأب المسكين، المهزوم في معركة القدر، غافل الأهالي وقفز وراءها في الهاوية.

(٨)

عاد اورغ إلى صباه في المراعي. أرسله جدّه لاقْتفاء أثر جمل مفقود فتاه في الصحراء. عطش فطارد السراب. وبدل أن يستظلّ بأشجار البرية ويحتفظ بالعمامة على رأسه، اقترف نفس الخطأ الخالد الذي كُتب على كل عطشان أن يرتكبه عندما يفقد الصواب: نزع العمامة وتحرر من ثيابه. هام في الخلاء الأبدى حتى وقع وغاب عن الوعي. لا يعرف كم مضى من الزمان ولكنه وجد نفسه ينتصب عارياً على فم بئر قديم مطوّق برقبة مرمرية وينهمك في سحب الدلو بجبل الليف. ظلّ يسحب الجبل الخشن حتى يشنّ وخار وهمّ بأن يرخي قبضته عن الجبل. في تلك اللحظة برز رأس «تينيري» من البئر. كانت تبسم. شعرها مصفور في جدائل رقيقة. وجهها طري مغسول بالماء. فمها يفتّر بتلك الابتسامة الغامضة. فزع وقفز إلى الوراء. تخلّى عن الجبل فاخفت الفتاة في ظلمات الهاوية. سمعها تصرخ. صرخة استغاثة طويلة. أليمة. فاجعة.

... وحتى عندما استيقظ مفزوعاً كانت الاستغاثة تطنُّ في أذنيه وتقرع رأسه بالحسرة والخوف والصداع.

(٩)

رُزِقَ بها بعد يأس. فلم ينجب من ثلاث زوجات حتى ظنَّ أنه عقيم. بل إن الزوجات رُوِّجْنَ لهذه الشائعة عندما بعثَ لهنَّ بأوراق الطلاق. تزوّج من سببته الحبشية فجاء الفرج على يديها. لم تحبل في السنة الأولى ولا في الثانية ولكن القدر لم يرزقه بالذرية إلا في العام الرابع. وكان من الطبيعي أن يجهل الأفاويل التي تتسكع في مدينة تعشق ترويج الشائعات مثل تينبكتو، كما جهل منذ ثلاث سنوات الزيارة السرية التي قامت بها الحبشية ليلاً إلى بيت أحد الفقهاء أثناء غيابه في غزوة خارج العاصمة.

حرص أن يغمرها بحنان من فقد الأمل في إنجاب ذرية. حنان أب يعلم جيداً أن الوليد ليس زينة الحياة الدنيا فحسب ولكنه المخلوق الوحيد الذي يستطيع أن ينقذ نسله من الانقطاع والزوال. وكثيراً ما ردّد حكمة «أنهي» القاسية: لن يدّعي مخلوق أنه عاش يوماً على الأرض ما لم تخلّفه ذرية!

(١٠)

عاودته الرؤيا مرتين بعد تلك الليلة ولكنه لم ير في المرتين الأخيرتين إلا النصف الأخير من الحلم: قامته وهو ينحني فوق الطوق المصقول ورأس «تينيري» المغسول، ثم الخوف. و... الصرخة الطويلة، المفاجعة.

فكّر أن يستشير العرفّافين ولكن الحدس هو الذي هداه أن يقلع عن النية وينتظر عودة «أناي» من رحلته التجارية إلى أغاديس. هناك دائماً الصوت الخفي الذي ينهنا في تلك اللحظة عندما ينشطر الصراط وتقف أمام الاختيار.

ختم أورغ الرواية:

- ابن آدم يهرع لصلة الرحم عند الضيق. لولا أنك أخي لما استشرتكم.
نمئى في البهو واقترب من الشباك. راقب الفناء من وراء القضبان
ليستكشف العسس ويفضح الجواسيس. تساءل:

- هل تظن أن للرؤيا علاقة بالهاوية؟

توارى «أناي» وراء قناعه الرمادي وأسدل الطرف العلوي حتى غطى
عينيه. تسلى بمتابعة مثلثات «ثانيت» فوق الفرش. قال:

- هذا لا يحتاج إلى تفسير من عراف.

- هل تظن أنهم يجروون على المطالبة برأسها؟

رفع رأسه عن الكلیم وأجاب بقساوة:

- وهل تشك في ذلك؟

- قيل في «أنهي» قديماً: مَنْ لم يخلّف ذرية لم يولد.

صمت. في الخارج عوّى الريح. قال السلطان بصوت مكسور:

- تعرف أي لن أطيع التسليم في وريثة وحيدة.

- الوريث هو الله.

- سلّمت في كل شيء. في الأرض والشرف و...

- والله. سلّمت في الله وهذا أكبر الكبائر.

- فعلت ذلك لإنقاذ تينبكتو.

ضحك «أناي» باستخفاف فواصل السلطان:

- ولكني لن أطيع التسليم في تينيري.

- ولكنك سلّمت حتى في نفسك!

- نعم . سلّمت في نفسي ولكنني لست على استعداد أن أسلّم في الصبية .
 - لا يضير الشاة سلخها بعد ذبحها .
 - كذب . بل يضيرها ألا تترك جدياً يذكر الناس بها .
 - هل يتفعلك ذكر الناس إذا خسرت نفسك ؟
 - ينفع . في رأيي أنه ينفع . كل الكائنات تسعى لأن تترك أثراً بعد فنائها .

.....

- لم استدعك كي نتحاسب فيما مضى وانقضى . طلبتك للتدبير والتشاور .
 عوّت الريح في قمم النخيل . قال أناي وهو ينهض :
 - أنت أخي ، من لحمي ودمي . وسأنصرك ظالماً أو مظلوماً .
 صاح السلطان :
 - هذا ما أردت أن أسمعه منك ! .

تقدّم نحوه خطوات . تعانقا .

علا الحفيف في أعراف النخيل ومدّ القبلي ، عبر الشباك ، لساناً من غبار .

(١٢)

الأب هو الذي استدعى الفتور القديم .

أنجبه من أم نبيلة من قبائل «أولدن ناترام» وأنجب «أورغ» من الأثيرة التي ترجع بأصولها إلى آزر . ويُقال إنها تمت بصلة قرابة لزعيم «أوراغن» نفسه . فأسمت الزوجة ابنها البكر تيمناً بهذه القبيلة الأزرية العريقة . ولم يفتّ اللّزماء في تينبكتو أن يروّجوا لشائعة تؤكّد أنها أطلقت هذا الاسم الشهّي على الوليد لا تيمناً بالقبيلة وإنما تمجيذاً لتاريخ تعاملها مع الذهب^(*) .

(*) أورغ : الذهب . أوراغن : أهل الذهب (بلغة الطوارق) .

ولما عجز الأب أن يعدل في توزيع عواطفه بين الزوجتين وأثر الأزجربة وأحاطها بشعائر الحب والحنان أكثر مما عامل بنت قبيلته المسكينة فقد انعكست هذه المشاعر على الوليدبن - برغم جهود الأب ومحاولاته في إخفاء أول مبدأ في شريعة المسلمين الذي يميز تعدد الزوجات بشرط العدل بينهما في المحبة . وطبيعي أن يرث الأطفال مشاعر الأب نحو الأمهات . ولم يستطع أناي أن ينسى شقاء أمه وهي تدس رأسها في زاوية الخباء وتكتم البكاء في آخر الليل عندما تستولي الضرة على الزوج المشترك ثلاث ليالٍ متتاليات . وإذا كانت تستطيع أن تغفر وتتنازل عن هذا الحق كزوجة فإنها لم تغفر له كام إخلاله بمشاعر الأبوة وحرمان طفلها من العناية والحنان .

فورث الحرمان وجُبل على الاضطهاد . كبرا وانتقل أورغ للحياة في تينبكتو وواصل هو التنقل مع القوافل بين اغاديس وأزجر . كتم سره واحترف التجارة . وحتى عندما أخبروه بتنازل همّه وفوز أورغ بالسلطنة لم يفعل ولم يعلّق برغم كل محاولات القبيلة في شحنه ضد أخيه وإقناعه بأنه الأجدر بالزعامة . خبأ سره وراء قناعه ومشى في طريق القوافل والتجارة . عرف حتى في ذلك الوقت بعض الأسرار وابتسم له الحظ فاكشف مفتاح الكنز . اكتشف أن الذهب هو الذي يحرك التجارة والتجارة هي التي تخلق العواصم والمدن . ولولا الذهب لما وجدت تينبكتو على وجه الصحراء .

ولكن الطعنة أصابت علاقتها عندما سقط العم مقتولاً . تسكّعت الشائعات وكاد يصل الأمر بينهما إلى القطيعة .

ولكن أورغ هو الذي تنازل عن كبريائه أخيراً وأرسل في طلبه عندما قرعَ القدر أبوابه .

(١٣)

ترجع الجلاد الخالد فوق العرش .

فوق شوارع تينبكتو المتربة سكن الهواء. يندفع الصهد الجنوبي في موجات متقطعة.

ولكن الحريق لم يمنع حركة القوافل ونشاط التجار في الأسواق.
جلسا في البهو، تحت ظلال النخيل. فصلهما عن الشارع سور مسنن بالمثلثات.

جاء زنجي مار د بطبق الشاي.

قال أورغ:

- لا تظن أني أبعث بها إلى أرض أزجر إحياءً لرابطة الدم القديمة. ولا بسبب خبرة مزعومة لـ «أوراغن» في التعامل مع الذهب. لا تصدّق الخرافات.

أشاح وجهه وأسدل لثامه على عينيه وأكمل:

- في أزجر قبائل لن تستطيع أن تستدرجها آلهة المجوس.

تنفّس القبلي بموجة جديدة من نار فاستجابت قمم النخلات بالحفيف والشكوى. رشف أورغ الشاي بصوت مسموع. ثم بصوت مخنوق:

- أعتمدُ أيضاً على خبرتك بأرضهم. عرفت طقوسهم وشربت من مياههم. أزجر أرحم من آهجار هذه الأيام.

لم يفهم أناي سبب المقارنة ولكنه أثر الصمت.

واصل أورغ بلغة مختلفة:

- البارحة رأيت الرؤيا مقلوبة. عندما أخرجت رأسها من البئر دفعتها إلى الهاوية. أنا الذي دفعتها إلى القاع فما معنى هذا؟.

سكت أناي. علّق بعد صمت:

- لا أنصح بطلب المشورة من عرّاف في تينبكتو.

- ايدكران. لا يعجبني في الأيام الأخيرة. يُخَيِّل لي أنه يقرأ الخطة في رأسي.

- المجوسي ابن المجوس!
- ومجلس الشورى يتهاشم. كأنه يعرف.
- لا يليق بالسلطان أن يتوهم أكثر مما ينبغي.
- لا يعود السلطان سلطاناً عندما يصبح النسل مهدداً بالفناء.
زَفَرَ القَبْلِيُّ. ارتجف السعف في القمم. تسَلَّق السراب أسنان السور.
قال السلطان أخيراً:
- أعددت لكما القافلة والزاد.

جاء المارد الزنجي وعاد بطبق الشاي. انتظر حتى غاب في ردهات القصر فاستمر:

- كل ما استطعت أن أحصل عليه من التبر في السنوات الأخيرة.
حرصت أيضاً أن أعطيكمأ أمهر الحدادين والصناع. سلاح الغريب هو التبر.
رَدَّد أناي تلقائياً:
- سلاح الغريب هو التبر.

وفكَّر في مفتاح الكنز والحياة. صانع التجارة والمعجزات وباعث المدن من الفراغ.

بَرَّق الأمل في السلطان لإنقاذ الذرية من الهاوية، ولكنه نسي أن النجاة لم تُكتب في الصحراء لمخلوق حاول أن يفلت من القدر.

١١ - الدرويش

«كنت صبيّاً في يوم ما، وعذراء أيضاً كنت. أنا كنت
شجيرة، طيراً، سمكة لا تعرف نطقاً لنا».

امبيدوكل

(١)

التقى بها في عراء الرمد والفضلات، غرب المنتجع. أفرغت سلة القمامة والرمال على الأرض ورفعت إليه نظرة احتياري. حاولت أن تقوم قامتها القصيرة المقوسة وتستقيم في الوقفة. جمعت أصابعها الطويلة، النحيلة، في كوم ذكره بأكواخ الفلاحين في الواحات. هددته بكوم الأصابع ولوحت باليد في وجهه. قالت بحزن:

- ربيتك مثل ولدي فلماذا أسأت لي؟

كشف عن الأسنان الناتئة فأفلتت قطرات اللعاب. ضحك ومسح اللعاب بكفه. عادت العجوز تسأل:

- لماذا أخبرته؟

- ها - ها . . .

- هل يرضيك أن يموت في رأس جبل؟

- ها - ها . . . وهل تظنين أنه سيموت في السهل؟

- لا سمع الله منك.

- السهل كله يعرف أن الله قد أعدَّ له قبراً بجواره هناك، في السماوات.

- ها - ها . . .

- لا سمع الله منك . . .

- حتى العرّافة . صاحبك العرّافة ، تعرف ذلك . ها .
- تكذب .
- أن يموت فوق القمة أهون من أن يموت في السهل ، كالعبيد .
- لا سمع الله منك . كم أكره الجبل !
- قلت له أن الصقور أيضاً تموت على الأرض مهما تطاولت في السماوات
- برغم أني لم أكن على يقين من أني لم أكذب عليه .
- ينصر دينك . وماذا قال ؟ .
- ها - ها . الشاة لا يهتما سلعها بعد ذبحها . ها - ها . لا أظنه
- يسالي بأن يدفن بدنه الوضيع في سهلكم الوضيع عندما تكون روحه في
- السماوات . ها . . .
- لا أريد أن أسمع اجتهدات . أريد أن أسمع جوابه .
- لم يعد يتخاطب بلغتنا . لاهل القمة لغتهم الخاصة . مثل السخرة
- والعرّافين وسكان ايديتان ! .
- لا تسخر مني . أنا أمه وهو وحيد .
- قلب منذ قليل أني ولدك أيضاً .
- لا تسخر مني . أنت عاق . أفشيت سرّي .
- لو لم أفش السرّ لمات بين يديك .
- يا حفيظ !
- أعرفه . أعرف لغته . لن يعيش في السهل أبداً .
- ولكن العجوز قاطعته في فرع :
- لا سمع الله منك .
- ثم حشت يديها في الرملة حتى تدفن كلامه في التراب خشية أن تسمعه
- الآلهة .

وأصل الدرويش :

- لو تركته بأكل سحر صاحبك لمات من الغم لأنه سيُحرّم من الجبل .

سحر الجن أقوى من سحر العرّافة . ها - ها . .

أحكمت لحافها على وجهها الموسوم بالغضون وسألت بشك :

- هل تظن أن سكان ايدينان هم الذين سكنوا رأسه؟

- ها - ها . . لم أفلح في إقناعه بأن يعلمني ركوب الجبال.

... -

- آخر مرة سحبت الرجاء واستبدلته بأخر. قلت له أن يعلمني سرّ الغناء

إذا كان لا يريد أن يعلمني سرّ الجبال. هل سمعت ماذا فعل بالنّجّع ليلة الميعاد؟

- سمعت.

- هل سمعته في حياتك يعني؟

.. -

- النّجّع كله وقع في الوجد. الأميرة بكت وأوْخا جُذِب. لم أسمع في

السهل مثل هذا الغناء. ترك الجميع يترنّحون وعاد إلى شقوقه في تادرات. ولكنه لم يخبرني بسرّه.

اختفى القرص الجلّاد وراء غلالة كثيفة من الغبار. تهبّ القبلي لاستشاف رحلته.

أكمل الدراويش :

- لن يروم حياة السهل مَنْ تعلّم مرة سرّ الغناء. ها - ها . . الغناء

المستعار من الجنّيات.

(٢)

تردد في القبيلة أن أصله، من أبيه، يرجع إلى المرابطين. ولما تعود أهل الصحراء، من قديم، أن ينسبوا الدراويش إمّا إلى المرابطين أو الصحابة أو الأسرة النبوية نفسها فلم يجسر أحد أن يشكّك في الرواية أو يعرّض الشائعة

للطعن برغم ما في الانتساب إلى تلك الأصول من وجاهة وامتياز، ففاز الدراويش بالحنان والرعاية وغما بين القبائل تقليد يغفر لهم الخطايا والزلات والبطالة. يعيشون على العطايا مقابل أن يحصل منهم الناس في الدنيا على البركات ويوم القيامة على الرضى والشفاعة بجاه النبي والصحابة والمرابطين.

أمه ماتت بالوباء قبل أن يشقى بالعقل، وأبوه تركه في بطن أمه وهاجر برفقة قافلة إلى غدامس. ويقال إنه تزوج من فاتنة غدامسية فأثر الاستقرار تحت الجدران والسقوف. وقيل إن قافلته تعرّضت لنهب قطاع الطرق وقُتل على يد الأوباش. انقطعت أخباره فتولّت سبية زنجية، مملوكة لجدّ الطفل من ناحية الأم، تربيته إخلاصاً لسيدها المرحوم وطمعاً في الشفاعة والجنة.

ولكن اليتيم قدّم الدليل على أصله المرابطي منذ السنوات الأولى، فورث عن أجداده العداوة للمنجمين وتسلّى برجم العرافة بالحجارة. ثم ملّ هذه الشقاوة وطوّر في أسلوب العداوة. انضمّ إلى الصبيان الذين يرعون الجديان في الأودية المنحدرة من «أكوكاس» وقرر أن يحترف هواية. تعلّم صيد الأفاعي معتمداً على مواهبه الخاصة ودأب على إفزاع الصبيان والصبايا بجث الحيات البشعة. ثم ابتكر حيلة أخرى وبرع في رتق فك الزاحفة بالخيط والإبرة لتجد العرافة في حجرها حية تسعى. في اليوم الأول للتجربة أغمي عليها ولزمت الفراش وكادت تفتك بها الحمى والفجعة. ولكنها قررت فيما بعد أن تعتمد على نفسها وتنتقم من حفيد الأعداء الشقي. اعتصمت في خيمتها أياماً وخرجت بخطة استأجرت بها زنجياً من أبناء جلدتها فاقوه في الشقاوة (المتطرفون قالوا إنها لم تستأجرهم وإنما سخّرتهم بسلطان السحر. إذ ماذا تفعل العرافة بخبرتها إن لم تسخّرها في تسخير الآخرين؟) وكلّفهم بمطاردة الدراويش اليتيم في حملة صبورة قال عنها أولئك الذين يروق لهم أن يستعيروا الأوصاف من معاجم الفقهاء ويبحثوا عن رمز سماوي وراء كل عمل أحمق، إنها: «اضطهاد للمرابط المسكين واستفزاز لناموس الصحراء». ولكن الإشارة لم تردع الشياطين الصغار فواصلوا حملتهم ضد الدراويش الصغير: نتفوا

الشعر من رأسه . غرغروا له سائل الفلفل في أنفه . قَيَّدوه إلى وَتَدٍ وتركوه في جهنم الرمضاء عارياً . وتسلَّوا أكثر من مرة فدلّلوه في البئر مقلوباً .

في إحدى الحملات استنجد المسكين بـ «أوخا» المنفوش . وكان ذلك من سوء حظ الدرويش أن يخرج أوخا المكابر ملفوفاً في أفخر اللباس قاصداً المشاركة في عرس أقامه الأتباع في العراء البعيد وراء ايدينان المغدور .

انتصف النهار . استوى الجلّاد على العرش السماوي . تلالأت الصحراء بألسنة الذهب واخترق الجحيم الرؤوس الملفوفة . في تلك اللحظة أدركه الولد مجري حافياً شبه عار ، حاسر الرأس ، مشوهاً بالغبار والكدمات والجروح . ينزف بالدم والعرق واللعاب . ارتعى بين رجليه واحتضن ركبتيه طلباً للحماية . شوّه يديه الملوّثتين بالغبار وجسده الصغير العاري المعفّر بالتراب لباس أوخا الأزرق . ولم يكن تشويه الثوب الفاخر السبب الوحيد الذي استفز أوخا في ذلك اليوم ولكن النار الحامية المسلّطة من السماء لعبت دوراً أسوأ . فوجد نفسه يهوي بصفعة على وجه الصبي ويرميه باليد الأخرى إلى مطارديه الأشرار . تكأأ عليه الخصوم وقيدوه بحبل الليف وجروّوه على الرمضاء والحجارة في نية لسحله وإلقائه في البئر . وكان من الممكن أن يستمرّ هذا التّنكيل لو لم تتوقف العرّافة عن الحملة بعد أن لدغتها عقرب فرأت في ذلك إشارة سماوية .

ولكن الم رابط الصبي الذي غفر إساءة أقرانه الصغار هيهات أن يغفر مظالم الكبار .

(٣)

الدرويش الوحيد الذي رفض أن يتلقى الصدقات .

في سنوات الطفولة ركض وراء الجديان الشقية في المراعي المجاورة وعندما استقام عوده ونالت «مساك ملّت» و«مساك صطفت» رحمة السماوات هاجر مع الفتيان القساة لا ليتمتع بالربيع في الصحاري التي استأثرت

بالسيول وإنما ليتطوَّع لترويض المهاري والتدرب على المبارزة بالسيف.

لم يكن الدرويش الوحيد الذي لم يتلق الصدقات فقط ولكنه الدرويش الوحيد في الصحراء كلها الذي قدَّر له الله أن يعيش من عرقه ويتصدَّق على غير القادرين في السهل من حلاله . فبعد مجيء شيخ القادرية ونفي الزعيم إلى الحمادة ارتبكت حركة التجارة وبخلت السماوات بالمطر وعانت «آزر» من المجاعة . أغار أنصار الشيخ على الأهالي في الواحات واضطرتهم الحاجة إلى نهب الفلاحين لإطعام الرِّحْل . ولكن الدرويش قرر أن يأكل بيديه فاصطاد الأرناب في الوديان وتطاول في السفوح وجاء بالعطاءات .

ثم نزل الشَّعب البرية الشرقية وجاء إلى النجع بالحطب . في ذلك الوقت كان الصبيان يتسابقون لأن يصبحوا جميعاً فرساناً ونبلاءً وأكابر . وغدت حاجة الشيخ إلى جيش وأنصار سبباً غدَّى شهوة هؤلاء المكابرين . فطمع في الفروسية حتى الاتباع والزنوج . تركوا تجارة الحطب وصناعة الفحم ووضعوا قلوبهم في الأدغال بمنين أنفسهم بالفوز بالعبيد والسبايا والخلاسيات الحبشيات . فعانى المخيم من صقيع البحري الذي يهبُّ من الشمال في مواسم هطول الأمطار في الحمادة . فبادر الدرويش بجلب الحطب . قايضه مقابل حبات التمر وحفئات الشعير والجبن والقديد وتصدَّق على المحتاجين والجوعى وحتى على الكسالى المكابرين . ولا زال العقلاء يذكرون بكائياته وآلامه عندما يعود من الوديان حاملاً فوق رأسه أكوام الشوك وأعواد الطلح . ينزُّ العرق من صدغيه في خيوط كالجراح ، في حين تنساب خيوط الدم من يديه الخشتين المحروقتين بسياط الجلاد الأبدي . ومن العينين . . . من العينين أيضاً تنزف خيوط أقى من الدم وأكثر حرارة من العرق : دموع . دموع الدرويش .

دموع الدرويش في معجم أهل الصحراء أسوأ من عدوان القبائل الغادرة . دموع الدرويش تحرق القلب والبدن وتجرّ البلاوي والويلات . والفأل يزداد سوءاً عندما يكون الدرويش يتيماً . تهرع إليه المربية الزنجية قبل أن يبلغ الخباء . تركع تحت قدميه وتلفّ قدميه الخافيتين ، المغبرتين ،

المسلوختين بالحجارة، بخرقة مبلولة حتى تحمي القدمين من السنة الرمضاء .
تسقط على وجهها دموعه فتبكي هي الأخرى .

تخط على صدرها وتردد مفعوجة :

- لا تأت بالحطب إذا كنت ستبكي . ما حاجتك إلى الحطب إذا كنت لا
تستطيع أن تكسر الطلع ؟ .

وكان دائماً يحجب :

- أكسر ضلوع الأشجار كي أطعم ناركم . أطفالكم يتدفأون بعظام
موتاي . قتلت ثلاث طلحات اليوم .

يلقي الحزمة على الأرض ويدخل الخباء . تأتي النساء لتتقاسم الحطب
فتشكو مربيته العجوز :

- يبكي . إنه يبكي . لا يحتمل أن يكسر أعواد الطلع حتى لو كانت
يابسة . يظن أنها ستموت لأنه نزع أطرافها . الدرويش . لا يعرف أن الطلع
الصبور وجد في الوديان منذ وجدت الصحراء . وسيبقى ما بقى الصحراء .
درويشي المسكين ! .

تبكي النساء أيضاً فينثرن الماء البارد على قلوبهن للتخفيف من المصيبة .
يرددن نفس التهمة :

- يا ربي أجرنا من آخره دموع الدرويش ! .

ينزعن أيديهن من الصدور ويغرسنها في التراب لدفن الشر قبل أن
يقمن لتخاطفن أعواد الغنيمة .

ولكن حتى القرايين لا تنفع في وقوع المكتوب إذا سطره القدر في لوحه
المجهول : فما أن تمكن الشيخ من الاستيلاء على الصحراء وأخضع القبائل
وغزا الأدغال وأشاح بوجهه عن الغرض الذي جاء من أجله حتى دفع

السهل، بل الصحراء كلها، ثمناً قاسياً مقابلاً لدموع الدرويش.

(٤)

قضى جنود المجهول على شيخ الطريقة وعاد الزعيم من المنفى. كبر الدرويش ولكن علاقته بالأشجار البرية ازدادت غرابة. تجاوزت شفقتَه رؤى الطفولة وضَمَّ للطلح والأثل أصدقاءً جددًا. توقف عن صيد الأرناب والعظاءات وحرَّم تناول اللحوم. عشق الفضاء والقمم والطيور والحوانات وطارد ابن الأتباع وصادق الودَّان «أوداد».

جاء الفرج فجاء معه الندم.

رأى أن جهاده في إنقاذ السهل من ريح البحري كفارة، وقطع أوصال الطلح والأثل، أيام المجاعة والكرب، إثم لن تغسله دموع الندامة. أقبل على الزعيم، بعد عودته بأيام، يجرُّ فرعاً كثيفاً من الطلح الأخضر. حاول الزعيم أن يجلسه بجواره في ظل العشية فرفض وقال:

- انظر ماذا فعلت جمالك بأولادي. هرسيت كل الطلح في الوادي.

ضحك الزعيم وجاراه الشيوخ في الضحك. كمموا أفواههم بالأقنعة وهم يستلقون على ظهورهم من الضحك. الإمام أيضاً أسدل لثامه الناصع على أنفه المعقوف وعلّق ساخرًا:

- متى اتخذت من الطلح أولاداً يا «موسى»؟

مسح موسى العرق الذي حفر طبقة التراب في صدغيه قبل أن يجيب:

- الطلحات طول عمرها أولادي.

داعبه الزعيم:

- ولكن ألم تقتل أولادك في غيابي؟ الشيوخ أخبروني أنك كسرت الطلح وجلبت الحطب.

- فعلت ذلك إكراماً لك . في غيابك التحق المعممون المكابرون بقوات الشيخ واشتركوا في الحملات إلى الأدغال . تركوا الأولاد في العراء والبرد وتحملوا عن النساء وقت المجاعة والضيق فضحيت بأولادي لإنقاذهم . قتلت الطلح لأحييهم من البحري . فعلت ذلك تبيلاً لك وإكراماً لذكراك .

صاح الزعيم :

- أحسنت .

ثم لمعت عيناه بدموع فقال بلغة جادة :

- لا تظن أنني أغفل عن الإحسان . لا خير في راعٍ لا يجازي من أحسن عملاً .

أسدل لثامه على عينيه فتدخل الإمام :

- لا نستطيع أن نمنع الإبل من الرعي في الوديان . الله خلق الأنعام لتأكل الكلاً والشجر .

احتجّ الدرويش دون أن يتنازل للاشتراك في الجلسة :

- هل تموت إذا منعناها من أكل الطلح؟ .

تضحك الشيوخ مرة أخرى ولكن الزعيم لم يجارهم فقطعوا الضحك .

تساءل الدرويش :

- الله خلق الأنعام أيضاً طعاماً لبني آدم . ولكن الإنسان لا يموت إذا لم يأكل اللحوم . منذ متى لم أذق طعاماً للحم؟ هل أصابني مكروه لأنني لم أكل اللحم مثلكم؟ هكذا الحال بين الطلح والأنعام .

ضحك الجمع فتدخل الزعيم لحسم الخلاف :

- أعاهدك بإخراج كل الإبل من الوادي . سيتولى الرعاة تطهيره إنفاذاً لأولادك .

ابتسم الدرويش لأول مرة . كشف عن الأسنان فسال اللعاب .

وجد السهل موضوعاً للتندر: نسبوا للدرويش أنه عاد بنسبه إلى النبات فقال في ميعاد الطرب: «أذكر أني كنت طلحة في واد مهجور. فلماذا تدهشكم أبوتي للطلحات؟». تهكموا على الادعاء فعلق الزعيم عندما بلغه الكلام: «إذا نطق الدرويش فعلى المكابرين الجهال أن ينصتوا ويتعلموا الحكمة».

لم يستهجنوا الدعم الذي ناله موسى لو لم يفاجئهم ببدعة جديدة: طاف على البيوت وجمع ما استطاع الحصول عليه من الكتان والخرق وبقايا القماش. ذهب إلى وديانه فعاد الرعاة بالخراقة. قالوا إنه كسا كل الأشجار وصنع لها اللباس ليحميها من نار الشمس وصهد القبلي في الصيف، ويقىها شرّ البحر في الشتاء. ضحك الساخرون وصدّقوا، وشكّ العقلاء فبعثوا الرسل إلى الوديان ليأتوا باليقين. الرسل أكدوا الخراقة فهبّ الزعيم للدفاع. قيل إنه قال: «لن يكون الدرويش درويشاً إذا لم يفعل ذلك».

جاءه موسى في الصباح فاستضافه بحبات التمر والدور الأخير من الشاي. قرر أن يحاوره فسأل:

- قالوا لي أنك وضعت على رأس الطلح ثياباً.

- ها - ها. يقولون لك كل شيء إلا ما يجب أن يُقال. ها. . نعم.

صنعت القمصان للطلحات البائسات. ألا يكفيها شراً أنها تعاني العطش عشرات السنين؟

- معك حق. قلبي يتقلص عندما أراها على هذا الحال. كم هي

صبورة.

- ها. . أنا لا أستطيع أن أنزل لها الماء من السماء ولكن أستطيع أن أقيها

البرد والحر والقبلي.

- بارك الله فيك.

- أنت لا تستطيع أن تتصوّر يا شيخنا كم عانيت من هؤلاء الأعداء

عندما كنت طلحة وحيدة في صحراء مهجورة! .

- حقاً؟

- الله وهبني الصبر على العطش الأبدي ولكنه تركني لأواجه مصيري مع الأشرار .

- يا حفيظ!

- صدقني أن القبلي هو المسؤول عن امتصاص الدم من عروقي .

- أجارنا الله من شرّه .

- والبحري . أرجو ألا تظن مثل أهل السهل أن ريح البحري خير دائئاً .

- أنا لا أظن شيئاً . أجبرت نفسي منذ زمن بعيد ألا أظن أي شيء .

- حالي كان مثل حال سكان الحمادة : يعانون من الجفاف حتى تموت ماشيتهم ويموتوا وراءها . وفجأة تنزل عليهم الأمطار حتى تجرفهم السيول وتقتل ماشيتهم . هم ميتون في كلا الحالين . ها - ها . . .

- صدقت . هذا حال أهل الحمادة حقاً!

- في الشتاء يقتلني البحري ويجمّد الدم في عروقي ، وفي الصيف يقتلني القبلي ويمص الدم من عروقي .

- صدقت . كتب الله على الإنسان الشقاء منذ حرمه من نعمة الاعتدال .

تطرف الفصول لعنة على الصحراء .

- لم يرحمني الناس لأنهم لم يحسّوا بي ، فكيف لا أرحم بدنأً كانت روحي تحتمي بجوفه عمراً كاملاً .

نظر إليه الزعيم طويلاً . نظرة حزينة . رحيمة . قال :

- أعرف كم قاسيت حتى تقوم بجمع الخطب من الطلح سنوات المحنة .

- جمعت الأعضاء الميتة . فعلت ذلك إكراماً لك .

استدرك الزعيم صادقاً :

- ساعني . لقد نسيت .

ضحك الدرويش . كان سعيداً .

أهدى له الزعيم جدعاً تعبيراً عن الصداقة. سخر منه الحساد وهم يرون
حنوه على الحيوان. يلتقط من جسمه الأشواك ويتمسح بوبره الناعم ويخاطبه،
منتقلاً بين الوديان. ولكن أوخا أراد أن يسخر أكثر فأهدى له حيواناً آخر.
عاد من الصيد فقدم له غزالة ساحرة تحدق بعينين كبيرتين لم ير أجمل منهما.
أخذها في حضنه وقبلها ومسح بخذّه على رقبتها ظناً منه أنها حية. ثم رأى
على الرقبة، في شريط من الزغب الذهبي، حبيبات رمل اقتفت أثر خيط
النزيف. تفحص الشريط فاستلقى الرأس إلى الوراء في استرخاء.
اكتشف الخندق الذي حفرته المدية فنجع وألقى بالضحية على الأرض.
اندفع إلى العراء وبدأ يتقيأ، في حين تبادل أوخا وأصحابه التهاني بالضحكات
العالية.

ذهب موسى إلى وادي الطلح ومكث بين أشجاره ثلاثة أيام. عاد إلى
السهل يحمل في حجره كوماً من الحجارة.
كان أوخا هو المخلوق الثاني الذي رجحه الدرويش بعد العرّافة.

رُفِر السهل وارتجف.

واصل القبلي رحلته بعد استرخاء أمهل فيه النجع أياماً، فارتبك كل مَنْ
تقاعس عن استغلال الهدنة ولم يتزود بحاجته من الحطب والماء والتمر المطمور
في الروابي المجاورة التي تطوق البئر من الجنوب وتفصله عن مستوطنة
الأغراب.

بذلت الريح جهدها وأنجزت تغييرات في مواقع السهل الكبير. مدّت
ألسنة جديدة، وقضت على ألسنة قديمة. نقلت مرتفعات كاملة من ظهر
«أكاكوس» و«ايدينان» المغدور ونزلت بها إلى السهل. حاصرت الأبنية في «واو»

في أكثر من مكان وأقامت مشاريع لتلال كاملة من التبرين العسكريين . عرت بعض الروابي من الرمل البكر لتزود به الحزام العنيد الذي يطوق البئر في نية مدهشة لكسر مقاومة «أوخا» ورجاله .

إمام خيمة الزعيم فرش بساطاً ناعماً من الذهب المهور بغضون الطهر والبركة ، وكلما داسته أقدام الزوار والضيوف عاد المكابر ليخططه من جديد بالبراءة والتجاويد .

جاء موسى لزيارة الزعيم .

وقف عند الأوتاد وأنصت . هداً الريح فدس رأسه في الخباء . زحف وكمن في الزاوية . تحدث الوجهاء طويلاً عن القوافل ومدينة «واو» وتقلب الأحوال وعرس أوخا . لم ينسوا القبلي مع منتصف الليل . ختموا السهر بالحديث عن الفناء وتهياؤا للخروج . شيعهم الزعيم خطوات خارج الخباء . عاد وقعد بجوار الموقد الخائء يتمتم بأوراد المساء . خرج من الزاوية وحيًا الشيخ بضحكة مكتومة . ردّ عليهم الزعيم بدعابة :

- ها أنت تشبّه بالمكابرين وتضع على رأسك أفخم عمامة ! .

- ها - ها . . هل تسمي هذا الشاش أفخم عمامة؟ .

- لم أرك مزماً من قبل .

- ها . . صبرت على القبلي ولكني يئست . رأيت أن أضع قناعاً يحميني

من الغبار . الريح يطعمني ثلاث حفنات من الرمل كل يوم . هيء - هيء - هيء . . .

- هيء - هيء - هيء . . . هذا قصاص كي تفهم حكمة المثلثين .

- لم أجهلها في حياتي يا شيخنا ولكن أعترف أنهم يبالغون . لقد علمتنا

أن الاعتدال إله السعادة .

- أنت الآن تتكلم كحكيم . أنت حكيم يا موسى .

- أنا درويش ! .

- وهل في الصحراء مخلوق يمكنه أن يجاري الدراويش في الحكمة؟
- تناول الزعيم وعاء الشاي من طبق بجوار الموقد. صبَّ كأساً وقدمه للضيف. قال الدراويش:
- سمعت أنك تنوي الرحيل.
- إلى أين؟
- إلى الورا. جنوب غرب المسكون.
- وهل تسمي ذلك رحيلًا؟
- كل تراجع في الصحراء رحيل. مَنْ سَلَمَ في شبر أعطى الأرض كلها.
- رشف موسى الشاي وابتسم الزعيم. علّق:
- لا أرى سبباً للقلق. صحراء الله واسعة.
- واسعة ولكنها تضيق أمام أهل «واو».
- رمقه الشيخ بفضول. فيمم موسى وجهة أخرى:
- الحق أني جئت في استشارة أخرى.
- خير إن شاء الله.
- نزع قناعه الهزيل ولواه حول رقبة. التفت إلى الظلمات في الخارج كي يسدد نظرة إلى الزعيم بالعين الحولاء. قال:
- أردت أن أستفسر عن الأميرة.
- استفهم الشيخ بإيماءة فواصل الدراويش.
- يقال إنها رهن في ذمة أوخا.
- ضحك الزعيم. رفع طرف لثامه السفلي وغطى فمه المتوج بالشوارب الفضية. قال:
- هذه لغة لا تصلح للتعبير عن الحال.
- لا أفهم.

- لم أفهم ما تعنيه كلمة رهن . عندما يتحدث الناس عن عمود الدين لا يتكلمون هذه اللغة .

- ما علاقة الدين بدخول رجل على امرأة؟ .

ضحك الزعيم مرة أخرى :

- كيف؟ ألم يكن الدين هو أول مَنْ حرَّض ابن آدم كي يلتحم بحواء؟

سكت موسى . هبَّ الريح فجأة . قرر موسى أن يلبس جبةً فقيه :

- كنت أظن أن الله الذي فعل ذلك وليس الدين .

- صحيح . ولكن ما الفرق؟

- الإمام يرى فرقاً . كل الفقهاء يرون فرقاً .

سكت الزعيم فيمّم الدرويش إلى جهة أخرى :

- لم أت كي أفتح حواراً في الدين . ولكن أدهشني أن أكون آخر مَنْ يعلم .

- لم نقرأ حتى الآن سوى الفاتحة .

عاد الدرويش للاستفزاز :

- وهل يقرُّ الدين مراسم أخرى غير الفاتحة لإتمام هذا الرباط؟

ارتبك الزعيم . ألقى بأعواد الحطب إلى الموقد . قال :

- الحق أن الرباط يحتاج إلى طقوس أخرى .

سكت ثم استدرك :

- أجمع عليها الناس ولم يقرها الدين .

هبَّت موجة جديدة . رفرف طرف الخيمة . راقب موسى ذرات الغبار في ضوء النار التي بدأت تأكل الحطب .

رشف موسى آخر نقطة من الشاي فسأل الزعيم بتخايب:

- ولكن ماذا حدث؟ لم أتعود منك الفضول.

حدّق موسى في الظلمات بعين، وراقب لسان النار، وهو يرقص ويتهايل حسب لطحات الريح المتسلل من زوايا الخباء، بالعين الأخرى.

تساءل الشيخ ببرود، ذلك البرود الذي يخفي فيه عقلاء الصحراء قلقهم الحقيقي:

- أنت لا تعجبني. هل حدث شيء؟

موسى لم يجب. صمت حتى تضاءل لسان النار. رأى الزعيم في عينيه وميضاً قبل أن يحتضر اللسان. قال الدرويش:

- أنت لم تسمعها وهي تعزف على «امزاد». أنت لا تستطيع أن تفهم ما يفعله «امزاد» بقول الرجال. هل جرّبت هذه اللغة يوماً؟ قل لي بالله...

ابتسم الشيخ، ولكن موسى لم يلحظ الابتسامة بعد أن ماتت النار في الموقد. عوى الريح في الخلاء. قال الزعيم:

- وهل وجد في الصحراء رجل لم يحرب هذه اللغة؟ كلنا احترقنا بهذه النار يوماً.

- ولكن هذه الجنّة فريدة في مهارتها. كل السهل يجمع على هذا. لا أستطيع أن أنسى... ربما لأنها صاحبت الجنّي «أوداد» بصوته المستعار من الجنّيات. هل سمعت «أوداد» يغني؟

- سمعت خرافة تقول إنه تعلّم الغناء من طيور القمم...

مضى موسى يفكر بصوت مسموع:

- هل تتمتع كل صبايا آير بهذه الموهبة؟

- أرى أنك تتمتع بالميعاد. لم أرك تبدي إعجاباً بشيء قبل اليوم.

ثم بدعابة لا تخلو من استفزاز:

- أم أنك بدأت تهتم بالنساء؟

رفع الدرويش نحوه عيناً حزينة. في العين رأى الشيخ ذلك الوميض المجهول. قال الدرويش ببلاهة:

- هل قلت لك شيئاً عن النساء؟ أنا لم أتحدث عن النساء. قلت إن صوت الأميرة...

سكت.

انتظر الشيخ أن يكمل ولكنه زحف على أربع نحو الزاوية. تابعه الزعيم حتى خرج من الحباء واختفى في العتمة والغبار.

(٨)

في اليوم التالي استمرّ الرياح يخط رموزه على العراء. يزرع الحصى في السهل وينثر حبيبات الرملة في الفضاء.

حجب موسى وجهه حتى عجز عن الرؤية وأوهم الناس أنه ليس الدرويش. ضلل حتى مربيته العجوز عندما عاد في آخر الليل لينام. استيقظت وتفحصته في ضياء النار. قرأت تعويذة بلغة «الهوسا» وأتبعها بآية الكرسي فضحك وأعلن: «هذا أنا». سحبت اللحاف على وجهها وأرجأت الاستئطاق حتى الصباح. راق له الوضع فقرّر أن يتحصّن باللثام نهائياً. في الصباح طلب من عجوزه أن تعلمه لف القناع على طريقة النبلاء. في البداية رفضت وسخرت منه. وما أن انتهت من غحض الحليب واستخلاص الزبدة حتى رقّ قلبها وقامت بالمحاولة الأولى. لم يشك في كفاءتها ومواهبها. عودته أن تنجز له كل الطلبات الصيانية حتى تلك التي اعتبرها عرف الصحراء حكراً على الرجال وحدهم مثل التفتن في ربط القناع على الرأس. ولكنها خذله في تلك المرة. لم يجتز البيت بخطوات حتى انتزع منه القبلي اللثام في نية

جدية للاستيلاء عليه فتشبت موسى بالطرف الآخر. تنازعه مع الريح طويلاً
وعاد إلى العجوز غاضباً. ضحكت وأعادت على رأسه اللفة بطريقة الأتباع.
خرج.

على المرتفعات المطلّة على «واو» تفرّج على طوابير القوافل تختفي وتظهر
في سحب التراب. مرقّت «تافاوت» بجواره. تحكم حول رأسها لحافاً أسود
تنفخه الريح فتترنح وتقهقر خطوات إلى الوراء. ثم يتراجع القبلي اللثيم
فجأة فتندفع بجسمها الرشيق إلى الأمام. كتم ضحكة ومشى وراءها. غزت
أنفه روائح الجسد والبخور. ما أشهى الإناث!
أدركها في وادي الحطب.

داعبها فقرأ أبيات الأسطورة:

- يثت «تارات» من عودة المعشوق. ذهبت إلى رأس «أكاكوس» بعد أن
انتظرت خسين عاماً وألقت بنفسها من القمة.
انتفضت وأحكمت اللحاف حول الوجه. ثم فطنت إلى الدعابة
فضحكت وهتفت:
- هذا أنت!.

نزعت الريح المشاكس طرف اللحاف فرأى جديلة كبيرة مضمفورة تستلقي
على صدرها المتمرد. أنامل الريح حلتّ الرأس المقتول فرفرف الشعر الفاحم
ليكسو الصدر النافر.

عادت تهتف:

- لولا الصوت لما عرفتك. هل قررت أن تشبه بالنبلاء؟.

- النبل في القلب وليس على الرأس!

أطلقت ضحكة سعيدة. علّقت:

- لا بدّ أن تحيب بلغة الدراويش . العجائز تقول إن شفاه الدراويش
تتكلم لغة أخرى غريبة .

انحنت على شجرة ميتة . نزعت أعواداً يابسة أكلها التراب . علّقت على
أبيات الأسطورة :

- «تارات» لم تنتظر خمسين عاماً . مَنْ قال إنها انتظرت خمسين عاماً؟ .

- الزعيم .

- الزعيم؟

رفعت رأسها فعادت رائحة الأنوثة تغزو أنفه . تساءلت :

- هل يجد الزعيم وقتاً لسرد الأساطير؟

- طبعاً .

- هل سمعته يسرد أساطيراً؟ .

- دائماً .

- أنت محظوظ!

- لماذا؟ بيته مفتوح حتى للدواب والزواحف .

ضحكت وانتزعت عوداً آخر :

- مفتوح للزواحف والدواب ولكن ليس للصبايا .

- ها . . .

- أنا الآن لا أنتظر المعشوق . لقد أخذت ما أريد .

- ها . . ماذا أخذت بالله؟ .

قالت بشقاوة وهي تكوّم الحطب :

- خن!

- ها . . لا أعرف . من أين لي أن أعرف؟

- هل أنت أبله؟ ماذا يمكن أن تأخذ المرأة من الرجل؟

أحكم لثامه حول فمه وفضحت عينه ابتسامة خبيثة . عادت تسأل :
- هل فهمت؟

قال ببرود:

- الولد الأخضر . أخذت منه الولد الأخضر . ها . . .

أخفت ابتسامة وهي تنحني فوق كوم الحطب . اقترب منها . انحنى على
الأعواد المتخورة بالملح والتراب . بعثرها وقال :

- هذا أثل . متى كان الأثل يصلح حطباً في بيت حسناء؟

رمقته بفضول فاستمر :

- الأثل يفسد البخور ويخطف عطر الجسد .

تحول الفضول إلى إعجاب . هرع إلى شجرة يابسة مجاورة . اقترح :

- سأساعدك . الحطب حرفي . سأملك حزمة من الرسو الممتاز . فقط لا

تقربي الطلح .

مشى بجواره ، تقاوم الريح . تمسك أطراف اللحاف بأصابعها وتبتسم
ابتسامة خفية . سبقته بخطوات فكشف الريح عن ساقها اليمنى . عاد عطر
الجسد يغزوه فأحس بالدوار . توقف فجأة . سدد إليها نظرة غامضة وقال
بخشوع :

- ساعيني .

لم تفهم ، فضحكت بإغراء . تضاعف الدوار فألقى بالحطب . قالت :

- لم تفعل شيئاً . لماذا أسأحك؟

قال بخجل :

- لقد . . لقد فكرت فيك كامرأة .

ضحكت ضحكة شهية . قالت بشقاوة :

- وهل ترى في هذا عيباً؟

- أنت امرأة «اوداد». ألسنت في ذمة «اوداد»؟

- ها - ها . . اوداد هجرني من زمان .

هرع إلى اللثام كي يخفي ارتبائه . أدرك الآن لماذا يستعمل النبلاء قناعاً .
إنهم يرتدون العمامات كي يخفوا فيها ربكتهم . اللؤماء !

قالت بغنج :

- هل تدري أن المرأة لا تغفر للرجل ، لأي رجل ، إذا لم يفكر فيها
كامرأة؟ .

- حقاً .

- هل أنت أبله؟

- أنا . . . أنا درويش ! .

ضحكت حتى استلقت إلى الراء . فكر موسى : «ما أجمل المرأة عندما
تكون خفية . ما أشهى المرأة عندما تكون خفية» .
قالت :

- ولكن العجائز تقول إن الدرويش ليس درويشاً !

فكر موسى : « . . . والرجل غبي لأنه مكشوف . الرجل بشع لأنه
مكشوف . يغطي رأسه ويكشف قلبه . ما أغباه ! » .

نظر إليها فذاب قلبه المكشوف . ولكنه قرر أيضاً أن يضع حجاباً على
قلبه . قرر أن يكتنم سرّه .

ارتجف . قال ببلاهة :

- كنت أريد أن أقول شيئاً . . .

ألقي بالرسو على الأرض . ارتفع بينها ستار من غبار . اقتربت منه .
قالت بغموض :

- أنا أيضاً أريد أن أخبرك بشيء... .

رأى في عينيها وميض .

رأت في عينيه دموع و.. شقاء .

(٩)

حمل سرّه وذهب إلى «واو» .

هدأ العجاج . تجمّم السهل بالمساء . تصاعدت أعمدة الدخان . تمددت المدينة وامتدت إلى الجهات الأربع . بلغت سفوح «أكاكوس» في الجنوب ، وطوقت «ايدينان» المغدور في الشرق . في الشمال تدفقت في الخلاء المؤدي إلى وديان الطلح واعتلت الروابي . أمّا في الغرب فعاق النّجع تقدمها فتنازل الزعيم وقرر أن يتراجع بالمضارب في الخلاء ليفسح الطريق للبيان .

في القلب المرصوص ارتفعت القباب الرصاصية ومآذن متوجة بالأهلة . لُطِخَتْ جدران القلب بالجير الناصع فتشبهت بأبنية تلك الرقعة بأضرحة الأولياء في الواحات . ولكن عدوى البياض لم تمتد إلى أبعد من دائرة القلب . ويقول التجار إن هذا الطراز مستعار حرقاً من «تينبكتو» الأم .

دخل المدينة من بوابة الشرق المفتوحة على «ايدينان» المغدور . وسار في ممر مظلم ، طويل ، مترب ، مخترقاً حلقات من الزنوج والأتباع والتجار . غزت أنفه الروائح : عرق الزنوج ، والبخور ، والتوابل ، والدخان . وقف أمام باب ضخّم صُنِعَ من جذوع النخيل ، يحرس «أناي» دائماً أن يبقيه مغلقاً . وكثيراً ما مرّ من هنا وحاول الدخول فمنعه العسس بلباقة وقالوا إنه ردهات خصصت للحريم . ولم يشك في صدقهم . لأنه رأى ، في قيلولة أحد الأيام ، الأميرة «تينيري» تخرج من الباب السريّ تصحبها مجموعة من النساء عرف من بينهن العرّافة . سارت بجوار الأميرة بحيوية سبية زنجية جاءت من الأدغال للتوّ . تتلحف بلحاف أسود وتضع على رأسها قطعة زرقاء مصبوغة بالنيلة .

تنحني نحو تينيري الهيفاء وترطن معها بالهوسا. ورغم غمامة الغبار التي استمرت تعمم السماء في ذلك النهار، إلا أنه لاحظ بوضوح كيف لمع أذن العرافة بقرط مدهش كأنه قطعة من الذهب.

كذب البصر الخداع وحبس في قلبه السر والدهشة.

واصل السير في الممر المتعرج، المترب. توغل فتحوّلت العتمة إلى ظلمات. ارتفع صوت المؤذن في المثانة المعلقة في السماوات فسأل نفسه: هل يرفع الإمام صوته لصلاة المغرب أم العشاء؟ فالقبلي المستمر ساوى بين الليل والنهار وأفقد أهل الصحراء الإحساس بالوقت. حتى الإمام فقد فراسته الدينية وضلل المؤمنين أكثر من مرة. آخر ورطة حضرها موسى بنفسه. عاد الإمام من السوق يرفل في ثوب جديد ناصع، يضع على رأسه عمامة مخططة جديدة أيضاً ونادى الوجهاء المجتمعين في بيت الزعيم لتأدية صلاة المغرب. توضع أغلب الحاضرين تيمماً بالرملة واصطفوا في طابو طويل ويمموا شطر القبلة. تقدّمهم الإمام وكبر للصلاة. لم يكذب يؤدي الركعة الأولى حتى قرر القدر أن يسخر منه. انقشعت غيمة الغبار وأطل قرص الشمس مائلاً في رحلته إلى الغرب مؤذناً بحلول العصر. لم يستطع يومها أن يسيطر على نفسه فانفجر ضاحكاً. علت الهمهمات بين الوجهاء فالتفت إليه الزعيم ونهره باستنكار. عجز أن يسيطر على النوبة فاضطر الشيخ أن يطرده من الطابور. بعد تلك الحادثة ابتدع الإمام فتوى جديدة للدفاع قال إن بوسع المسلم أن يجمع الأوقات الخمسة ويؤدّيها في ساعة واحدة إذا فرضت الطبيعة ذلك وعجز عن تمييز الوقت. ولكن موسى ذكره بما نهى عنه دائماً عندما كان يقسو على الرعاة ويحرم عليهم التأخر في تأدية الفريضة برغم تقديمهم لمبررات أقوى من القبلي. فأخفى الإمام أنفه المعقوف بطرف اللثام وكنم غيظه في حين نهره الزعيم مرة أخرى. أمّا الإمام فتوقف عن مخالطة سكان السهل الذين رأوا في القبلي لعنة جاءت مع المهاجرين الوافدين ووطّد صلاته بـ «أناي»، وزاره كثيراً في قصره الجديد وحضر الولائم التي حرص سلطان تينيكوتو الجديدة على

إقامتها على شرف كبار التجار، وأُشيع في السهل أن أناي رأى أن يقربه إليه ويودعه أسراراً ويجود عليه بعطايا خفية. ولم يستغرب أحد أن يهرع الإمام ليدشن مئذنة «واو» ويرفع فيها الأذان بنفسه بمجرد أن انتهى زواج الأميرة من نائها في قلب المستوطنة.

العرافة أيضاً لم تتأخر فاستولت على قلب الأميرة.

توقفت عن قراءة الغيب وأدارت ظهرها لأهل السهل وقطعت نفسها لـ «تينيري» وحدها، وتركتهم يواجهون ريحاً استمرت أكثر من عام دون أن يعرفوا لإصرارها سبباً.

أمام باب القصر وجد ثلاثة من العسس: زنجين ماردن وتابعاً هزلياً، طويل القامة، مزملًا بلثام باهت، يضع سواراً جلدياً قانياً في معصمه الأيمن.

اعترضه باليد اليمنى:

- السلطان أمر بقفل باب الاستقبال.

- السلطان؟

لم يرد التابع فأوضح الزائر:

- أنا في طريقي إلى الأميرة وليس إلى السلطان.

اعترض العساس بنفس الجفاء:

- ومتى كانت الأميرة تستقبل الرجال؟

ضحك الدرويش. تفحص العساس وقال بمرح:

- أنا الدرويش.

اقترب الحارس من وجهه وسأل بخشونة:

- وهل الدرويش في بلادكم صبية؟

ضحك موسى مرة أخرى. أحكم لف القناع حول رأسه وتمشّى بينهما

صامتاً. سأل بغتة:

- كانت امرأة حرة عندما جاءت . كنت ألتقي بها دائماً في العراء . فلماذا
أقفلتم عليها هذا الباب القبيح؟

رفع العساس رأسه إلى السماء الغاضبة وخاطب الملائكة :
- للسلطنة قوانينها . القوانين مستعارة من تينكتو الأم .

هتف الدرويش :
- أنت سجان؟

لم يرد العساس . عمّ الصمت . نزلت على الممرات الظلمة . خُيِّل لموسى
أن الجبل زحف واقترب حتى أطلَّ على المدينة . نزلت السماء أيضاً من فراغها
البعيد وتدلَّت فوق رأس «واو» . واو الآن محفورة في الجبل . قطعة من
«ايدينان» الجنوبي ، واو انشقت عن الفضاء ، هي النصف السفلي من
السموات . «واو» تتحل شخصية أخرى في الليل وتتسلل عبر الظلمات لتعود
إلى وطنها الخفي .

هتفت الجارية الحبشية من كوة فوق رأس السجان :
- أطلق سراح الدرويش يا عبدون!

(١٠)

قادته عبر الممر الطويل ، المظلم . الطريق المترب ابتلع وقع خطواتها
فاهتدى إليها برائحة البخور . واو تترجح وتعود إلى المجهول في الليل .
تصبح جزءاً من الجبل ، قطعة من الظلمات ، غلاًفاً أرضياً للسموات الخفية .
من أين تولد واو؟ إلى أين تذهب واو؟ .

دخلت باباً مقوساً صنع من أشجار الأدغال . كان موارباً فدفعته الوصيفة
الحبشية قبل أن تفتحه الزنجية الفرعاء التي وقفت وراءه في الداخل .

دار الأميرة فسيحة . دائرية . مفروشة بالكليم التواقي . في الزوايا علقت
المشاعل فسكبت ضياءً كثيباً على البيت . وقف ليشاهد خيمة كاملة صُنعت

من جلود الثعابين وعُلقت لتزين الجدار في نصف دائرة. في قلب الدار وقف عمود حجري كركيزة الخيمة. تحت العمود تناثرت الوسائد الطويلة المصنوعة من الجلود المرسومة بالرموز، محشوة بالقش والتعاويد.

أحس بالجلال لأول مرة. كأنه انتقل في رمشة، من دار الدنيا إلى دار الآخرة. تابعت في صدره الأنفاس. قلبه تملل وتقلص وتهب للفرار.

دخلت الأميرة فجَنَح القلب وأفلت من القفص. طار إلى المجهول وبقي، هو، الدرويش، صنماً فارغاً، مفتوح الفم، ناقء الأسنان، عاجزاً عن الكلام، بلا قلب.

سبقها الطيب. خليط من البخور والعطور ودهان الأعشاب. الطيب السحري طير رأسه أيضاً. قلبه قفص فارغ. كرة حنظل امتصت الشمس نداها، ورأسه قرعة جوفاء. سمع ملاك السموات ينزل الأرض السفلى ويخاطب مخلوقات الطين:

- أنت درويش حقاً. مرابط. لو لم تحب لأرسلت في طلبك. قل يا شقي: هل رفع أجدادك عنك الحجاب قبل أن تولد؟.

انشقت شفتاها عن ابتسامة. شفتاها أرجوانيتان، مدلتان بـ «تافتست». تافتست تجعل الشفة حساسة، رقيقة، أرجوانية. الأسنان ملهمة بالطين الأبيض وفحم السدر، فلم تعد ناصعة فقط، ولكنها تضاءلت في الحجم، وازدادت صفوفها تلاصقاً وتراصاً. خيل له الآن أنها ازدادت نحولاً وقامتها تضاعفت سموقاً وارتفاعاً. ما الذي يحول المرأة من شيطان أرضي إلى ملاك سماوي؟

تكلم الملاك:

- هل قرأت ما نطق به قلبي؟ أنا نفسي عجزت أن أفهم نفسي. أنا نفسي لم أقدر أن أفسر اللغة السرية. . أنت ملاك بعثته السماء!.

في الزاوية لمح شبحاً. عرف العرّافة. في لحظة عاد للقرعة محتواها ونزلت
في كرة الحنظل حبات البذار. مسح اللعاب وتكلم بلغة الدراويش:

- الراعي الأبله آوى أفعى رقطاع في كمّه وحماها من برد البرية. تدفأت
الحية بدماء عروقه فلدغته في معصمه وهو نائم. ها - ها - ها .

ولكن لغة الدراويش لم تصعب على بنت آير. لا شيء يصعب على
ملائكة السماوات:

- هل تكره العرّافة إلى هذا الحدّ؟

- عرّافة مزيفة!

- سأكون بينكما واسطة خير.

- لا أريد بيني وبينها واسطة.

- سأكافئك إذا أبلغت وصيتي.

- وصية؟

- سرّ. أريد أن أبوح لك سرّ.

طارت حبات البذار في كرة الحنظل. اختفى المحتوى من القرعة. سال
اللعاب. قال لاهثاً:

- أنا أيضاً أريد أن أبوح لك سرّ!

- قيل لي أنك الوحيد في السهل الذي يقدر أن يطول الودان الجبلي؛

طائر الفردوس!

.. الودان؟

ثم بعثية:

.. ثم بانيان أريدان.

.. ثم بانيان أريدان. ثم بانيان أريدان. ثم بانيان أريدان.

ثم بانيان أريدان.

«تافاوت». الوميض الغامض الذي لا يخفى على الدراويش، ويسميه مجاذيب الزوايا عشقاً ويقولون إنه من صفات السماء. ولكنه يظهر على الأرض في مكان واحد: في عيني امرأة!.

ويقول المجاذيب إن هذا سرّاً لا يعرفه سوى الدراويش والمرابطة.

تجمّد اللعاب بين أسنانه. جفّ حلقة حتى أصبح يتشقق كما يتشقق طين الوديان تحت الشمس في مواسم السيول. تناثرت حبات البذار في الفضاء وخرجت أحشاء القرعة المكسورة على الحجر. توقفت حركة الأنفاس. قال بصوت كالفحيح:

- هل ... تعشقين اوداد؟

راقب التحولات على وجهها. رأى كيف حفر السؤال وجوماً في جبالها الحزين. وكلما استمرّ الصمت كلما توغّلت في صحراء الحزن. نفس الحزن المكابر، الغامض، الذي يحفره الزمان على وجوه الرسوم الحجرية في تاسيلي ومتخدوش.

مشت بضع خطوات نحو الجدار. رمقت جلد الثعبان بنظرة غائبة. تكسّر ضوء المشعل الكثيب على وجنتها اليمنى فغلب الحزن وصار شقاءً:

- وهل يقسو الدراويش فيرمي بسؤال كهذا؟

هوى البدن من القمة السهاوية وارتطم بالحجارة الصّماء.

(١١)

انهار في الزاوية، وأسند ظهره على الجدار. جاءت الوصيفة الحبشية بالشاي. أمسك بالكأس الزجاجي فرجفت اليد. وضع الكأس على الكليم الأحمر المرسوم بالثلثات البيضاء. ترّبع. قال:

- السهل يعرف أنك في عصمة أوخا. الفاتحة في الشرع تربط بقيد من حديد.

لم تتحرك. تحركت الشفتان المرسومتان بلون «تافتست»؛ لون البكارة:

- ثمة ما هو أقوى من الحديد. مَنْ غير الدرويش يعرف ذلك؟

ابتسم بحزن. نظر إلى طربوش الرغبة الذي يتوج كأس الشاي. قال بشقاء:

- أحسست أن الميعادلن ينتهي على خير. هل سمعته يغني أول مرة؟

لم تجب. مضى زمن قبل أن تومئ بالإيجاب.

جمع أشلاءه وبعث الحياة في الحطام. قال ببلاهة:

- كما هزّني عزفك على آلة الشياطين. أول مرة أعرف طعماً لهذا الإحساس المجهول.

ازدادت سموقاً وارتفاعاً، رجع الملاك إلى أصله وتحول إلى طيف. ارتدى غلالة بيضاء وسكن الضياء.

أفرغ الدرويش حجره من الحجارة وقال بتسليم:

- سأبلغه الرسالة.

(١٢)

منذ حلت لعنة القبلي لم تتمتع الصحراء الجنوبية بهذا الصفاء.

خرج الجلّاد الأبدى من القمقم السماوي واستوى على عرشه في قلب الفضاء. أمر جنده فجلدوا بدن الصحراء العاري بسياط من نار، منفذين طقوس قصاص خالد كتبه القدر على جبين الصحراء منذ خمسين ألف عام.

مشى الدرويش فوق السنة السراب. تسللت الرمضاء في ثقوب نعله الجلدي القديم وحرقت لحمه القدم فركع على ركبتيه وزحف نحو جبل معزول نحته الريح وجردّه من التواءات فبدا مثل قالب السكر الذي يجلبه

تجّار القوافل. جبل حزين مثل كل الجبال في «تادارات»، حفر عليه الزمان جمالاً غامضاً، حزيناً، ذكره بالأميرة في وقتها عندما نطقت عيناها بالسرّ. لا يعرف لماذا يهزّ هذا الحزن في الجبال، والأشجار، والناس وبقية الأشياء. هل لأنه يحس فيه سرّ الحياة؟ أم لأنه خفي؟ أم لأنه يذكره بعزلته عندما كان طلحة عطشى تقف وحيدة، يائسة في الوادي القاسي؟ ولماذا يطير العقل ويحرق القلب عندما يحلّ في ملامح امرأة جميلة مثل الأميرة؟ يعرف شيئاً واحداً: الأميرة لم تعد امرأة أرضية عندما نطقت عيناها بالسرّ وامتزج الحزن في وجهها بالكبرياء.

اشتعل اللهب. بلغ حذاء الجبل. دسّ رأسه في ظل صخرة رفعت رأساً أفقياً مدبباً. نزع نعليه البائسين ونثر على قدميه ماءً من الزمزمية. ماء يغلي. شرب من فم الزمزمية مباشرة فنزل في جوفه سائلاً فاتراً. سكن النسيم. مات الهواء في الفضاء. الحر حرق حتى الهواء. تناول نعله ومروح به أمام وجهه ليحرّك الهواء الميت. فتح فمه وشهق بصوت عال كي يلتقط نفساً. هواء.

أوصله الرعاة إلى «تادارات». قضى معهم أربعة أيام مسيرة الطريق. تركوه في الوادي وواصلوا رحلتهم إلى «مساك صيطفت». قالوا إنه إذا لم يجد «اوداد» في هذه الثغور فلن يجده في أي مكان. ولكن الجلاّد اعترضه منذ الأصيل؛ جرّد سيفه من غمدها وسكب أنهار السراب في الصحراء فتراكض موسى بين الوديان والجبال ولكن لم يعثر لـ «اوداد» على أثر. راقب الصحراء وهي تستسلم في أحضان الجلاّد. في الغرب سبحت أشجار الطلح في أمواج اللهب. وكلما ازداد الهواء موتاً وسكوناً ازداد اللهب تأججاً وجنوناً.

في الشرق والشمال ارتفعت القمم الجبلية المكشورة في سلسلة متتابعة الرؤوس، تسلّم بالقدر في «سير»، يرسم عليها السراب أعرافاً خرافية تتمسّج وتسرّض بخشوع. أسا الجبال الممزّقة فمكتنصاً الأجداد القدامى وحفروا ز قلبها الكهوف. ثم أسسوا بالزينة رنطارهم الخنيز إلى المجهول غرباً وشرقاً.

صدر صخورها الأشكال والألوان والخيالات. عانوا من الأرق في الليل فسَلّوا أنفسهم بالحرافات. وما لبثوا أن أضافوا الرسم إلى الجدران. ولكن الحنين الغامض إلى المجهول، إلى الأصل، لم يهدأ فاستيقظوا ذات صباح ووجدوا أنفسهم يرسمون الآلهات والآلهة. اكتشفوا الكثر الذي بحثوا عنه طويلاً فأحسّوا بالسكينة واطمأنوا إلى أنهم قادرون على أن يمهرروا لوحاتهم بالتوقيع، فكتبوا التعليقات بجوار الرسوم بأبجدية «التيفيناغ»، ودَوّنوا مواقع الكنوز والآبار بالرموز والرسوم والحروف. راق لهم الأمر فوسعوا نشاطهم ووسموا كل صخرة في الصحراء الكبرى ببصاتهم. ولم يكن ليعتقد أحد اليوم أن كل شيء بدأ من مهاجر وحيد يعتزل في كهف ويحاول أن يعبر عن حزن غامض إلى الأصل.

ولم يعرف الدرويش أنه يبعث هذا الدور من الفناء بعد مرور ثمان آلاف سنة على بدء المسيرة.

كان يجمع تحت الصخرة ويحاول أن يلتقط الهواء، الذي قتله الجِلْدُ بسوطه الناري، عندما رأى المعجزة. حدّق في الصخرة بعينه الحولاء وقفزت الكرة الخاوية في صدره وخفقت. عادت الأحشاء للقرعة الجوفاء وتوقف عن محاولاته في اصطیاد نسائم الهواء كما يفعل المصابون بالربو. نهض وأسند جسمه بمرفقيه مستلقياً إلى السوراء: أمامه وقفت الأميرة. نزلت طيفاً من السماوات واستقرّت ضيفاً على الحجر، في الحجر: رفيعة القامة، نحيلة، متكبرة، حزينّة. تماماً كما رآها آخر مرة. على شفتيها نفس اللون المدهش، لون «تافتست» البكر، تعويذة العذارى وسرّ الغسق. زحف نحو الصخرة ووضع يده على الحجر. كان الرسم من النوع المجسّم. المحفور في صدر الصخر. تابع تقاسيمها المحفورة بأصابع مرتعشة. رسم العاشق الأول الربة في وضع جانبي، رافعة رأسها في شموخ، تنظر نحو العراء، نحو القمم المكابرة، البعيدة، الكثيرة.

وضمّ سمائه على الشفتين الملونتين بسرّ الأسلاف، ونزل، سرحاناً،

بحذر، إلى الذقن المدور، ثم الجيد العاجي الطويل. تحمس الصدر النافر
فجمد الدم في الإصبع. طارت الأحشاء من القرعة، قفزت الكرة من
الصدر، و.. تدفقت من عينيه الحولاء الدموع. استمرّ يتحسس أطراف
الربة المحفورة ويسكب الدموع حتى لم يبق عضو لم يتحسسه بيده. الدموع
حارة كماء الزمزية وجسد الربة مشتعل مثل النار.

قرر أن يطفىء لهيب الربة الحجرية بدموع العين الحولاء الحارة كالدم.

بلل سبابته بسائل العينين ومررها على جسد الربة الحجرية. همس بلا
إرادة:

- تينيري.. ت.. ي.. ن.. ي.. ر.. ي.. ي..

(١٣)

«أوداد» أيضاً مسلوب.

كيف استطاع الميعاد أن يسلب الجميع؟ يسلبهم من أنفسهم ويأخذهم
إلى المعشوق، وربما إلى المجهول؟ «تافاوت» مسلوبة. في عينيها رأى
الاستلاب. والأميرة مسلوبة. نفسها تهفو إلى.. أوداد! وأوخا مسلوب
بالأميرة، مأخوذ و.. آخر ما توقعه أن يرى «أوداد» المتوحش مأخوذاً، في
عينيه نفس الوميض الذي رآه في عيون الآخرين. وهو؟ هو، الدوريش،
أليس مخطوفاً أيضاً؟ تقلّصت الكرة في القفص وتذكر أن ثمة مخلوقاً واحداً
ليس مسلوباً بمخلوق: الربة الحجرية!.

مسح اللعاب وحدث نفسه بصوت مسموع: «... ولذلك هي لم تفقد
شموخ الآلهة مثل الباقين، مثلنا نحن الذين تعلّقنا بمخلوقات الإنس
فوهبناهم أنفسنا. كلنا مطلقون. مأخوذون. الأميرة وحدها ظلت متكابرة،
مضيئة مثل الربة الحجرية برغم أنها نذرت نفسها لطائر الفردوس. هل لأن
أوداد أيضاً ليس مخلوقاً أرضياً؟».

سحب الهواء الجبلي وصاح بالوحي جملة بعثها أجداده المرابطية فجأة في القرعة الجوفاء: «آخ. آخ. كل مَنْ تعلقَ بامرأة مسلوب. كل مَنْ تعلقَ بالذهب مسلوب». كثيراً ما جاء شيوخ القادرية الجوالون وحدثوا الناس عن قدرة هذين الغولين في الاستيلاء على نفوس الناس. وأكدوا أن الجن تملك المسكون وتسلبه نفسه بالمرأة والذهب. ويروى في النجع أن شيخ الطريقة نفسه رُوج لهذه الدعوة وأنذر الناس وحذر من هذين الشركين في بداية عهده. ولا أحد يعرف حتى الآن كيف غفل عن المبدأ وقبل ذلك الصندوق المشؤوم من أيدي التجار. ويتحدث أتباع القادرية العابرين عن كيفية التحول في النفس وحلولها في الآخر فيقول إنها لا تختلف عن تحول الصياد إلى ودان أو غزال عندما يحاول أن يصطاد ضحيته في الغسق.

الدرويش نفسه رأى صياداً من النجع انخطف وحلَّ في الودان! عرف النجع أماسيس أمهر صيادي الودان. لا يخرج إلى الجبل إلا ويعود مُحملاً جِماله بشاتين أو ثلاث. وقبل حادثة التحول لاحظ الجميع تحولاً آخر في سلوك أماسيس: أفرط الشقي في الصيد وأباد القطعان في سفوح «أكاكوس». ولم يعد يكتفي بشاة أو شاتين يقتسمها بين بيته ويورِّع منهما على الجيران ولكنه أصبح يقضي هناك أياماً قد تتواصل إلى أسابيع ويعود مُحملاً جِماله بعشرات الشياه. يسلمها ويعلقها في زاوية البيت لتجفَّ ثم يذهب ويبيعها لتجار القوافل في عراء السوق. توقف عن التصدَّق على الجيران. ويقال إنه قترَ حتى على أولاده وبخل عليهم بحاجتهم من اللحم. وأفشت امرأته السرَّ للجارات بعد شهور فقالت إن رجلها قرر أن يكون غنياً وسيحقق الحلم قريباً!

بعد أيام، عند الغسق، عاد إليها أماسيس من «أكاكوس» محشوراً في جلد ودان أشعث حزين. وقد تدلَّت قلادة تعاويذه الجلدية من قرنيه المعقوفين، فطارده الكلاب فابتعد ولكنه ما لبث أن عاد في الليل. قالت امرأة أماسيس في الصباح إنه استطاع أن يغافل الكلاب ويتسلل عبر الظلمات إلى البيت.

أيقظها وهو يرفس الأواني والصحون ويلق وجوه الأطفال الغرقى في النوم بلسانه اللزج . ثم اقترب منها وحذّثها بعينه عن رحلته القاسية وقال لها أشياء كثيرة غامضة لم تستطع أن تتبينها بوضوح بسبب كثافة الظلام .

في الفجر سمعت الكلاب تنبح بشراة وتطارده نحو «ايدينان» المسكون . فتحت عينها في قبس الفجر فوجدت في حجرها أحجية أماسيس ! .

أمّا أماسيس نفسه فلم يعثروا عليه في «أكاكوس» . تتبعوا الأثر فوجدوا آثار الدم حيث أصاب ضحيته بالسهم . ثم وجدوا ملابسه معلقة على شجرة برية في السفح . جاءوا للعرافة بعينة من دم الضحية ممزوجاً بالرمل فقالت إنه حاول أن يصطاد أنثى الودّان وهي حامل .

انتظرت امرأة أماسيس رجلها في الودّان . قضت على الكلاب بالسّم . طافت العراء والوديان ، وتسَلّقت أكوكاس وفتشت في الكهوف والشقوق والصخور . عادت وأخذت معها الأولاد كي تحرق قلبه وتستدرجه بهم . ولكن الودّان ترك لها التائم في حجرها و.. اختفى .

قال الرعاة إنهم شاهدوه يعتلي «ايدينان» المسكون ويتسلل عبر الصخور الصعبة ويدخل في الألواح العمودية المنصوبة نحو السماء ، فعُقبَت العرافة على إفادتهم بالقول : لم يحدث في الصحراء أن دخل مخلوق إلى ذلك الحَرَم وعاد من جديد!

(١٤)

تزحزح قرص النار عن المركز وواصل سفره غرباً . سحب وراءه السياط المفتولة من نار الجحيم فتحرك الهواء والتقطت الصحراء الأنفاس . زحفت ظلال الصخور وتمددت حتى نزلت الوديان . ارتفع اللهب عن جسد الأرض وطار عبر الفضاء في غلالات شفاقة كالبخار . خرجت العظاءة من شق في الحجر وركنت في الظل تلهث وتراقب غلالة النار في فزع . استمرت أشجار

الطلع تنحني نحو الأرض المحروقة في تصبر واكتئاب رافضة أن ترفع رأسها،
لأنها لم تصدق أن أمر السماء قد صدر بتأجيل طقوس العذاب الخالد إلى
الغد. هبّت نسمة شالية فجبتها في فروتها لتمنصّ منها الرطوبة وتستعير منها
الحياة. في الأحراش الذابلة الشهباء غرّد أول طائر برّي بنداء البعث فأيقنت
الكائنات في تادارات أن حبل الحياة لم ينقطع فخرجت، تنادت، رددت
البشارة في صلب الفناء لتبرهن أن الحياة حقاً مستمرة.

(١٥)

جلسا متقابلين على صخرتين فوق القمة. كشف أوداد عن وجنتين
بارزتين خاليتين من الدم. سافر بعينه إلى الأفق البعيد، نحو أقصى الشرق،
حيث تنتصب القمة الخفية الأخرى. قال:

- تغيرت كثيراً منذ لقائنا الأخير.

- خي - خي - خي

- حتى صحتك تغيرت.

- خي - خي . . أنت أيضاً تغيرت. أنت أيضاً مخصص و . . مسلوب!

- مسلوب!

- وهل يبقى الإنسان إنساناً إذا رهن قلبه عند إنسان آخر؟

هبّت نسمة شالية. سحب أوداد نفساً عميقاً كأنه ينوي أن يستولي وحده
على الهواء. فتج موسى أيضاً صدره وتزوّد بنصيه. ستر أوداد فمه قبل أن
يتابع حديثاً توقف منذ أن تلقى البلاغ:

- . . ولكن أوكا يقف بيني وبينها.

اعترض الدرويش:

- ولكنها اختارتك أنت.

-

- لا أعرف رأي الشرع حرفياً ولكن..
- أنا لا يهمني الشرع. هناك ما هو أقوى من الشرع.
-

- هناك النبل. هل نسيت النبل يا موسى؟

نكس الدرويش رأسه. قال بحياء:

- دع النبلاء يتحدثون هذه اللغة. لماذا لا تتحدث لغة الأنبياء؟ أرى أن هذا أيسر...

- النبل لغة القلب. الأميرة تفهم ذلك. وسوف تتلقى مني إهانة إذا تصرفت مع أوخا بلغة غير النبل.

ضرب الدرويش كفاً بكف. وثب من الصخرة. خاطب الفراغ:

- النبل. النبل. آخ.. آخ.. الكل يتستر بالنبل. يسترون عوراتهم بالنبل، يقيسون حتى الأنفاس بالنبل، رجالاً وشباباً، شيوخاً ونساءً، عجائز وأطفالاً. أصابني الصداغ.

تناول حجراً ورماه في الهواء. صاح:

- سألت الزعيم مرة عما إذا كان دستورنا الضائع مكتوباً بلغة النبل فقال إن «آنهي» مكتوب بلغة الحياة التي لا يفهمها إلا الحكماء القدماء. لغة أخرى...

اقترب من اوداد. أمسك بمعصمه وسأل:

- هل تعرف ما هي هذه اللغة، التي سمّاها الشيخ لغة الحياة؟

مسح اللعاب بكمه. ارتجف قبل أن يجد ما حاول طويلاً أن يعبر عنه:

- لغة الحياة هي لغة الموسيقى. الأشعار. امزاد. لغتك التي تعلمتها من طائر الفروودس. من همهمة الريح في أفواه الكهوف، حفيف النسيم في الطلح

الصبور. خي - خي - خي . . هي ، هي تلك المعزوفة الشجية التي استعارتها أصابع الأميرة من الجنات. آخ. آخ. أصابني الصداع!.

بصق؛ طارت الأحشاء من القرعة. تقلص القلب في القفص وتحول مرة أخرى كرة حنظل. صاح:

- لماذا تقيّد نفسك بالنبل كما يفعل البلهاء؟

- ناموس الصحراء؟

- ليس ناموس الصحراء.

- ناموس . . الناس، في الصحراء.

- وما علاقتك بالناس في الصحراء؟ أنت ودان الجبل، غزال البرية.

طائر الفردوس. لم أسمعك تتحدث عن ناموس الناس قبل اليوم.

- ما دمت قررت أن أنزل إلى سهلهم فيجب أن ألزم بقانون السهل.

- هل تنوي أن تتحدّاه في مبارزة؟ خي - خي . . أنت لم تستفد من

جيرانك الصقور.

ملاً صدره بالهواء. انتصب ونفخ شذقيه كما تفعل العظاءة لإفزع الصغار ويم شطر الأفق كأنه ينوي أن يطير أو يقفز من القمة. تتم يحدث نفسه:

- الغناء ناموس الصحراء. والنبل . . لا. ليس النبل. كل أهل

الصحراء يخلطون بين النبل والكبرياء. لماذا تسمّي كبرياء هؤلاء المغرورين نبلاً؟

ضرب عمامته الهزيلة، التي يتدلّى طرفها حتى يكاد يلامس الحجارة، بكلتا يديه واستمر في حوار مع نفسه:

- ينفخون صدورهم بالكبرياء كما ينفشون أجسامهم بالثياب ويدعون

أنهم يفعلون ذلك حسب شروط النبل الذي ورثوه عن الآباء والأجداد.

افتراء. افتراء. هل تدري أنهم يفترون على الأموات؟

عدّل طرف اللثام السفلي وقفز إلى جوار اوداد في وثبة واحدة :

- كذب . . ناموس الأجداد هو الغناء . الأجداد لم يتركوا سوى الغناء وامزاد . لأنهم تعلّموا ذلك من الصحراء . آخ . آخ . . تشبّه بالتكبر أوخا الذي يلفّ رأسه بقطعة قماش طولها سبعون ذراعاً ويقف فوق فوهة البئر منفوشاً كجمل ميت . . خي - خي . . نبلكم غدر بناموس الصحراء .
الناموس الذي تعلمته من طائر القمم والفردوس .
- قلت لك إنها ستحتقرني إذا لم أحتكم إلى الناموس . أنت لا تعرف المرأة .

- ومن أخبرك أن ناموسهم مثل ناموسنا؟ هي من آير ونساؤنا من أزجر .
- المثلثون هم المثلثون . ناموسهم مستمد من نبع واحد: الصحراء!
- لم يستمدوه من الصحراء . حقاً إن عمامة أوخا المهيبة تشبه قمم تادارات ولكني أرى فيها تطاولاً على القمم . الكبرياء تطاول على الصحراء!
احترق قرص النار حتى كاد يقطر بالدم . اقترب من حافة الأفق مكسوراً . انطفأ الوهج وفقد الغطرسة وأصبح بائساً ، ذليلاً ، حزيناً .
الصحراء لا تسمح بحال أبدي . حتى الجلاّد الخالد كسرت كبرياءه وجعلته يغرب مكسوراً ، محطماً . شقيّاً .

غمغم موسى :

- النبل تمنحه الصحراء . والكبرياء يصنعها الناس بأنفسهم ليقيدوا بها أنفسهم . ما تتحدث عنه ليس نبلاً .
توارت الصحراء في غلالة الفسق . نطقت بالغموض .

(١٦)

صام الدرويش .

امتنع عن الطعام حتى برزت عظام وجنتيه . غارت عيناه وبدت العروق

في يديه كمروق الأشجار الصحراوية. أصبح هيكلاً من العظام المتقلبة. استولى الشحوب على البشرة وتحلّى عنها الدم. فاز أيضاً بلون أخضر. نفس اللون المدهش الذي عير به «اوداد» وتميز به سكان الكهوف في تادارات ومتخدوش.

العجائز الفضوليات والمحترفات قرأن الإشارة في لونه المدهش وأجمعن على أن الدرويش في صيامه لم يخالف سلوك أجداده المرابطية (الذين يجذبون ويضربون صدورهم بالسكاكين ويصومون عن الطعام شهوراً عند وقوعهم في العشق الإلهي)، ولا تقاليد القبيلة التي يقتل فيها الشباب أنفسهم بالجوع حالما تحقق قلوبهم بعشق الصبايا. ولكن لم تستطع أدهى تلك العجائز وأكثرهن خبرة بالحياة والعشق أن تدلّ القبيلة على موضوع عشق الدرويش: هل هو الله؟ أم مخلوقة أرضية بئسة؟ وتوجّه الكثيرون إلى الإمام بسؤال عن رأي الشرع في شرعية أن يتخلّى الدرويش عن السماوات ويخالف سلالة الدراويش المرابطية وينزل إلى الأرض ليقع في عشق فتاة حمقاء من النّجع تفرح وتحزن، تبكي وتغني، تأكل وتذهب إلى العراء لقضاء الحاجة.

أجاب الإمام الفضولين بلغة أتباع الطريقة القادرية الغامضة وتحدث طويلاً عن الحلول، فاتهمه الخصوم بأنه تعمّد أن يخاطبهم باللغة الخفية كي يخفي السر ويتهرّب من المجاهرة برأي الحق والشرع خوفاً من أن تصيبه لعنة المرابطية. الإمام تجنّب دائماً الإساءة للأولياء والدراويش.

ويعتقد أهل السهل أن الدرويش لا يجوع حتى إذا صام لأن الملائكة تتولاه وتطعمه. وما زالوا يذكرون ذلك المريد التيجاني الذي زار أزجر وظنوا أنه من الباحثين عن الكنوز. تطاول في آكوكاس وسكن كهوف تادارات بلا زاد ولا ماء. جاء بخبره الرعاة فاستضافه الزعيم آده ونحر على شرفه الذبائح. جاء الزوج بقصعة خشبية مليئة بالكسكي وقطع كبيرة من اللحوم. تحلّق الرجال حول ضيفهم وكشفوا عن الطعام ففاحت روائح

اللحم حتى أُصيب الأطفال والصبيان بالدوار وبكوا بأصوات مكتومة وهم يختبئون في زاوية الخباء عند الأوتاد ويتنظرون أن يفوزوا بالعظام وبقايا الطعام بعد أن حرمهم الجذب من اللحم عاماً كاملاً.

ولكن المريد التيجاني لَقَّتهم درساً حياً في الصبر. نظر إلى الفراغ بعينه الفارغتين اللتين تشبهان عيون العميان وقال ببرود لا يليق برجل جاع دهرًا: «قطعت على نفسي عهداً ألا أذوق طعاماً طعماً لطعام ما لم أعثر على واو. أنا زائر من زويلة. أبحث عن واو. أبحث عن واو». ولاحظ الجميع، بما في ذلك الإمام، أنه كرر «أبحث عن واو» مرتين. ولم يدر أحد يومها أن يوماً سيأتي وستُبعث فيه واو من الزوال والخرافة وتنهض مدينة من الأساطير تروي العطشان وتكسو العريان وتطعم الجائع وتتقد التائه من الضياع. يومها أضاف الضيف عبارة لا تقل غموضاً عن بحثه وراء واو المجهولة. قال: «الوجد والشيع لا يلتقيان. وأنا اخترت الوجد».

وبرغم ذلك لم يجد. لم يجد واو ولم يجد الله. ربما لأنه أخطأ التوقيت وسبق الزمن الذي حدده القدر لبعث واو من المجهول في صحراء أزجر. فقد تدرج من رأس الجبل في «مساك صطفت» وسقط بجوار موقد الرعاية عند السفح، ميتاً.

ولم يبق من ذكراه إلا تلك الأسطورة الشيقة التي قصّها على الزعيم وبث فيها حكمة الجوع. قال إن الذئب إذا شبع بكى بكاءً مرّاً واستولى عليه الشقاء، لأنه يعلم أن العقابة هي الجوع. أما إذا جاع فيضحك ويملاً الوديان والسهول بالقهقهة، لأنه يعلم أن الجوع سيليه شبع يوماً ما! وعلّق المريد على نص الأسطورة فقال: «كلما توغلت في الجوع أحسست أني أقرب من يوم الميعاد في واو».

ولكن ثمة مَنْ طعن في موهبة المريد الفاضل وقال إن الأسطورة مستعارة حرفياً من «آهبي».

بعد أيام من الصفاء عادت السماء وتحجبت بالغبار .

جاء آخاد إلى خيمة الزعيم . وجده يتربّع وحيداً في المدخل ويراقب ، في خشوع ، الغمامة الرملية التي تحوم حول رأس «ايدينان» المسكون .

جلس بجواره وسكت طويلاً . أذن له الشيخ بإشارة من رأسه فتكلم :

- الدرويش سيموت .

استفهم الزعيم بالإيماء فأوضح آخاد :

- لا أحد يعرف متى ذاق طعاماً آخر مرة . قالت المربية الزنجية للعجائز ان أصابع العرّافة وراء بلواه .

عوى الريح بموجة وحشية . انتصب بينها العجاج . واصل آخاد :

- قالت أيضاً إن موسى يهذي بربة حجرية ولا يريد أن يغادر الرابية المجاورة للبشر ، من ناحية واو .

-

- قالت أيضاً إنك الوحيد الذي يستطيع أن يقنعه بأن يكسر صيامه عن الطعام والكلام . إنه يرفض أن يردّ على توسلات أهل السهل . حتى الإمام فشل في أن يجبره . . .

قطع آخاد إيضاحه وأنصت للريح . رفرفت أطراف الخيمة وتوثبت لكسر القيد والانطلاق في الخلاء . نزلت غلالة أرجوانية ظلّاء . عمّت الصحراء الكابة .

نهض واقفاً . أحكم زمالته السوداء حول وجهه وتمهّل لحظات . تتمم بالدواع ولكن الزعيم عاد إلى الخشوع وراقب الفراغ .

تحت الرابية، عند كوم الحجارة المصقولة بسيول الزمان القديم، جلس الدرويش. حوله حامت أشباح نساء وصبيان. بكى طفل وعبث الريح بثياب النساء، الواسعة الأكمام، فصفت ببطء كأنها أجنحة الغرائق العابرة، فأصبحت النساء منفوشات مثل القرب المليئة. عرفن الزعيم فتقاربن بالرؤوس وابتعدن عن الرابية.

وقف الشيخ فوق رأس الدرويش.

جلس أمامه على رؤوس أصابعه. تابع موجات الغبار وهي تصفع وجه موسى الذي انحسر عنه اللثام وتلجّ فمه وتبيّس حول شفّيته. قال الزعيم أخيراً:

- هل أنت شقي؟

لم يجب. أمسك الزعيم بمعصمه. أدخل يده تحت العمامة وتحسس جبينه. أنزل يده إلى الأرض وحساها في التراب ليمنع الداء من الانتقال. قال بلغة خفية:

- لن يفتح الجوع لك أسوار واو. أنت تعرف ذلك.

أقام الريح بينهما ستاراً. انتظر الزعيم حتى مرّت الموجة فاستمر:

- مَنْ مَنّا لم يبحث عن واو؟ أنا أيضاً بحثت عنها يوماً ما. هذا سرّي...

ضرب صدره بقبضة يده وأعلن:

- وإذا لم تعثر عليها هنا فإنك لن تجدّها في أي مكان حتى لو صُمّت ألف عام.

استمرّ الدرويش يحدّق في الفراغ والغبار.

قال الشيخ بحزن:

- لم تستطع امرأة في الصحراء أن تملأ الفراغ الذي يحاول الرجال الحقيقيون أن يملأوه بواو. حتى المريد التيجاني فشل وسقط ميتاً. أنت تعرف قصته.

بدأت الظلمات تحجبها عن بعض.

صمت الزعيم.

ولكنه ما لبث أن اقترح:

- ستذهب معي الآن وستحدث عن واو. واو التي في صدر كل مخلوق و«واو» الأخرى التي نبحث عنها في الصحراء الأبدية.

لم ينطق الدرويش. ولكن الزعيم لاحظ، رغم كثافة العتمة، خيطاً شقياً يفلت من عين موسى ويخترق طبقة الغبار فوق الوجنتين.

(١٩)

قَطَر الزعيم مراهم الأعشاب في فمه وسهر على رأسه حتى آخر الليل. وعندما اقترب الفجر وأسند الشيخ ظهره إلى الركيزة لينام زاره ملاك في القبس البكر ووخزه بسبابته الشفافة تحت السرة وأخبره أين يرقد المرض.

سقاه الزعيم شايًا أخضر في الصباح ومكث في رعايته ثلاثة أيام أخرى. بعدها سمح له بالخروج. هام مع المساء في الخلاء. أرخى القبلي قبضته على سماء السهل فتباعدت حملات الغبار وخفت سرعة الريح. أنصت لغمغمات الجن في «ايدينان». تلا ذلك عواء فاجع بعيد لذئب جاثع.

خرج «ايدكران» من ظلمات السفح الرهيب. عبثت الهبات المتقطعة بأسفاله البالية. استوقفه مواسياً:

- آ - آ - آ - ه . . . ماذا فعلت واو المشؤومة بدرويش القبيلة؟ ماذا

فعلت واو آير بقلب موسى الرحيم؟

- وهل واو في آير؟
- واو في كل مكان. في كل الصحراء.
- وهل تبحث في صحرائنا عن واو أيضاً؟
- وَمَنْ مَنَّا لا يبحث عن واو؟ واو. . . واو. تُبَعَثُ مرة واحدة في ألف عام. وربما في عشرة آلاف. ولكنني أحرص ألا أخلط بين واو الحقيقية و«واو» المزيفة.

- أنت حكيم. أنت لا تشبه الباحثين عن الذهب.
- عندكم في أزجر أيضاً تقولون إن واو ثلاث. اثنتان معروفتان والثالثة هي الخفية.

- لا يتحدث الباحثون عن الكنوز بهذه اللغة. مَنْ أنت بالله؟
- . . . وأنا أقول إن واو اثنتان فقط. واحدة تلك التي يعرفها الجميع. والثانية واو الفردوسية، الخفية، التي لن تستطيع أن تجدها في ضلوع امرأة! آ
- آ - ه. . . نبحث عنها في أقاصي الصحراء وهي أقرب لنا من جبل الوريد.

- عجيب! ألسنت أنت الذي زرتني في بيت الزعيم في الفجر؟
- بين الضلوع يرقد فراغ سرّي لن تملأه امرأة يا موسى. ما أشقى الدرويش إذا عشق!
- عجيب. . .

هَبْ غبار كثيف فحجبهما بالعمّة. سأل موسى:

- ألا تخشى تنكيل الجن يا ضيفنا الجليل؟

- لا يخشى الجنّي الجنان.

- عجيب. . .

نزل حجاب الظلمات. تراجع الزائر الغامض وصعد الكهف الرهيب.
تابعه الدرويش حتى ابتلعه الحجاب الفاحم. سمع عواء الذئب الفاجع وعلت همهمة الأشباح في القمة.

في نهار اليوم التالي ذهب إلى البئر. وجد أوخا ما يزال يناوب على الفوهة. لجأ إلى المجاز كي يستقره:

- انتصب مارد الجان بين السماء والأرض وانتظر أن تتخذ العرافة التدبير وتقيّد الريح كي يهأ بعروسه. خي - خي - خي انتظر المارد الفرج طويلاً ولكن العرافة لم توفق. . قلب المارد يحترق. خي - خي . .

مسّ الاستفزاز أوخا. رفع رأسه إلى السماء المتجهمة وتكلم بنفس اللغة:
- قلب الدرويش احترق قبله. أراهن أن هذه أول مرة تشهد فيه الصحراء درويشاً عاشقاً.

انزعج موسى. مسح اللعاب بكفه ووجهه نحو غريمه عيناً حولاء:
- مَنْ قال إن الدرويش عاشق؟ الدرويش لا يعشق. الدرويش لا يعشق سوى الله. هل سمعت؟

ولكن أوخا كَثُرَ آخاد بمرفقه وانطلق في ضحكة مكتومة.
كانا يقفان على مسافة قصيرة من الفوهة حيث تجمع الزنوج والأتباع لشدّ عنق البئر إلى أعلى صوتاً له من غزوات الغبار.

أحسّ موسى بالصداع، وتقلصت الكرة في قفص الصدر. الوجع جعله يعاهد نفسه ويخاطبها قائلاً: «هذا يكفي. يكفي. انتهى . . .». تراجع. صعد المرتفع. سمع الجماعة يقهقهون بأصوات عالية، كريهة.

ذهب إلى آكوكاس. اعتكف في كهف ثلاثة أيام. ركم تحت الصخور وتوسّل للآلهة المحفورة في بصمات القدماء أن تطفئ الجمره الوحشية في صدره. تَمَرَّغ في التراب المقدس مثل الجذع وراقب الأشباح الجلييلة، الغامضة

في سقوف الكهوف. هم أيضاً ينظرون إلى الفراغ، إلى الأفق البعيد، مثل
الربة الحجرية في تادارات. لا. ليس إلى الأفق البعيد. إلى أبعد من الأفق
البعيد. إنهم يحدّقون في المجهول. في السرّ الذي نقتل أنفسنا بحثاً عنه. إنهم
يحدّقون فينا. يروننا ونحن لا نستطيع أن نرى أنفسنا. في وجوههم حزن
ورحمة. جلال وسخرية. تلك التعابير التي تنطق بها ملامح أب عرف الحقيقة
وبخل بها على ابنه شفقة عليه. هم الآباء ونحن أطفالهم الأشقياء.

ساعديني يا آلهة الأجداد القدامى . . .
من هناك عاد الدرويش بالوحي . . .

(٢٢)

تربّص بالعرّافة.

حام حول بيتها المنسوب تحت الراية شرق النّجع. خيمتها مرقعة
وملفقة من قطع نسيج مختلفة. شريحة منسوجة من وبر الإبل، شهباء، متأكلة
نهشها الغبار والشمس، تحرق الخيمة وتشطرها نصفين. ثم تليها ثلاث قطع
منسوجة من شعر الماعز الأسود، بادت أيضاً وبهتت وامتنّ شعاع الشمس
لونها الداكن. ثم يمتد شريط من الجلد باهت، موسوم برموز وتعاويز وخطوط
غامضة لا يعرفها إلاّ العرافون. أما من الجانبين، عند الركائز الجانبية،
فألحقت بالخيمة قطع مختلفة من الخرق البالية والقماش الرثّ وبقايا الملابس
البائدة.

هذا المزيج الغريب من الرقع صنع من خباء العرّافة بيتاً فريداً ومميزاً يثير
سخرية المكابرين المستهترين، ويزرع الخوف في قلوب المؤمنين الذين يخشون
السحر ويتجنبون العرّافين.

راقب «تيميظ» وهي تحمل أطباق الرماد من الموقد وترميها في العراء
المجاور. اقتفى أثرها عندما ذهب لزيارة «تامغارت» في المساء. لم يدخل

الخباء في غيابها. انتظر أياماً، حتى ذهبت الزنجية الفظيعة إلى واو لتؤدي زيارة إلى الأميرة.

مسح اللعاب. بصق التراب. ضرب جبينه بقبضته وضحك قائلاً لنفسه إن زيارتها ستطول. تسلل في العتمة ودخل الخباء المعطر بالبخور والجاوي والأعشاب البرية و.. رائحة أخرى، حادة، استفزازية، غامضة. رائحة السحر؟ أم رائحة الحليب السماوي الذي تحلبه العجوز من ضرع النجوم لتسقي به صغار الجن كي يكشفوا لها حجاب المستقبل ويخبروها بسرّ المجهول؟

(٢٣)

وجدها مطمورة تحت الركيزة. تيمط لا تختلف عن عجائز القبيلة في هذه الحيلة. العجائز يدفنُ أشياء من الخفية تحت الركيزة حتى لا تصلها أيدي الصغار. أخفت العرافة أيضاً أخطر سلاح تحت الركيزة كي لا يقع في يد الأعداء. ها - ها. وما الفرق بين صغار العجائز وأعداء العرافة الكبار؟ كلهم أطفال. الرجال أيضاً أطفال كبار. ولكن الدرويش ليس رجلاً. ها - ها. متى عاملت قبائل الصحراء دراويشها على أنهم ذكور ورجال؟ ها. سحب المقيض الليل من الغمد الموسوم وتابع خروج الثعبان المتوحش من جحره. مدية العرافة. سلاح الأساطير. السمّ المجسم. ثائم السحرة الخرافيين في «كانو». التعويذة السرية التي تحمي وتميت. تحمي المجاذيب وتعيد المصاب بالوجد إلى العقل والصواب. السلاح الشيطاني الوحيد الذي يقتل غيباً ويصيب العدو على مسيرة أربعين يوماً. السلاح الوحيد الذي يتجاسر نصله المعتم في أن يدخل نحر العرافة. ها. العرافة أخذت السرّ من شفاه النجوم والإيماء الخفي الذي يهيم به الخلاء الممدود. ويُقال إنها بعثت مع تجار القوافل هدايا سرية إلى العراف المجوسي في «كانو» فأرسل لها الحصن محفوراً في المدينة وحذّرها بلغة الإشارة والرموز أن يقع في يد الإنس.

الأعداء. لأن في المدينة يكمن سرّ تميّط. حياتها رهينة بصون المدينة والمحافظة عليها، ومماتها في فقدانها ووقوعها في يد العدو. الجنّة! ها.. وقد انكشف السرّ بمشيئة الصدفة. إذ اختلق لها القدر شجاراً حامياً مع امرأة شرسة من قبائل الأتباع، اتهمت العرّافة بأنها تأمرت مع ضرّتها وأطعمتها سحراً جعلها لا تتوقف عن تجسّؤ رائحة كريهة كي ينفر الزوج المشترك ويفرّ إلى الضرة. كن يتمتّعن باحتساء الشاي الأخضر في ظل العشيّة بيت «تامغارت» عندما فوجئت بهن المجتمعات تتبادلان الاتهامات وتتنازبان بالألقاب. لم تمض لحظات حتى تشابكتا بالأيدي. غرست العرّافة سوارها الفطيع، المصنوع من سن الفيل، في رقبة عدوتها وهي تشدّ شعرها باليد الأخرى، فتجعل نحرها بارزاً وعينيها الجاحظتين تصعدان إلى السماء، وتواجهان أشعة الشمس الوحشية. الوضع لم يدم طويلاً. فوجئت العرّافة التي كانت حتى ذلك اليوم تجهل براعة الأتباع في فن العراك، بيد المرأة تتسلل تحت كمها الواسع وتصل إلى نهاية الذراع، حيث ثبتت المدينة بسوار متين منقوش من جلد الأفعى. سحبت المقبض فخرج المارد من القمقم ورأسه المدبب الشره يتوق للدخول في غمد آخر أكثر دفئاً: لحم بني آدم!.

في هذه اللحظة فوجئت الحاضرات (اللاتي حاولن الفصل بين الغريمتين طوال الوقت) بالعرّافة تنهار وتتخلّى عن رقبة المرأة. قفزت برشاقة صبية واحتمت وراء عجوز معمرة تجاوزت المائة عام وقد شحب لونها الأسود وبهت وأصبح يميل إلى البياض. ظلّت ترتجف كالطفل وهي تهمهم بالتعاونيد. ولم تطمئن وتتخلّى عن لحاف المعمرة المقدس إلاّ بعد أن أعادت لها النساء مديتها الخفيّة، وباشرن في الوساطة لمصالحتها مع الخصمة العنيدة.

توقفت تميّط عن حمل سلاحها تحت الكم الفضفاض وبحثت، منذ ذلك اليوم، عن مكان حصين يحمي المدينة السرية من أيدي الأشرار.

سرق الزيت من زنجيته العجوز. انتظرها حتى خرجت لتحلب الأغنام في القبس البهيج فزحف إلى زاويتها وصب السائل الجلي الزكي في الزمزية. زيت الزيتون. تقول الأساطير إنه يسقط من الأشجار الفرعونية الهرمة، الجليلة، المنتشرة على جبل نفوسة مثل نجوم سوداء. حبات داكنة في مسبحة الرسول. معصور بأنامل صبايا شهيات، يحمله تجار القوافل إلى الجنوب ليقايضوه في تينكتو وكانو بوزنه من هباء التبر. عجوزه الزنجية قايضته بثلاثة أضعافه من السمن الصحراوي. من سمن الصحراء تفوح أزهار الرتم ومن الزيت الجبالي نجوم الفراعنة السوداء وحبات الصندل والمسك التي انفرطت من مسبحة الرسول.

حل متاعاً وخرج إلى العراء مع المساء.

جمع حطب الرسو وأوقد النار. هداً الريح. طوّفته الظلمات. جاء بثلاثة أحجار. نصبها بجوار الموقد على هيئة مثلث. وضع قدر الفخار فوق الحجار وصب الزيت من الزمزية في القدر. سحب نفساً زكياً. عقب زيت الخرافات في الخلاء الميت، المظلم، الغامض. ذكرته رائحة الزيت بالختان. المدينة أيضاً ذكرته بالختان. أنجبت أمه معلولاً، نحيلاً، ذابلاً. كبرت معه العلة وراففته في السنوات الأولى فرفض الإمام إجراء العملية خوفاً عليه من النزيف. بلغ الحادية عشرة فقبل الإمام وأعطى الإشارة. أعدوا العدة وجهّزوا الخيمة. صنعوا له عرشاً من الرمال كالذي ينسونه للعرسان. غرسوا حول العرش المدي والسكاكين والسيوف كي يرهبوا الجن ويجبروهم على التراجع عن نيتهم في الاختطاف. جاءت النساء في زرافات سوداء وتجمهرن أمام الخيمة يقرعن الطبول ويملأن السهل بالزغاريد. اعتصم الصبيان بزواية الخباء واقتربت من عرشه عجوز تباوية ترطن بالتعاويد الوثنية بلغتي التبو والهوسا. ثم طوّقت معصمه بسوار من الجلد علّقت فيه صرة من الشيح لإرهاب أهل الخفاء

أيضاً. خرج - فدخل الإمام وعلق في رقبته قلادة من التهام المدسوسة في جلود الغزلان. رفع يده اليمنى عالياً وقصَّ الهواء بالمقص البشع المخصص لجزّ الماعز وحشاش. شعور الصبيان المقلين. دخلت امرأة حمقاء يراها لأول مرة تحمل عموداً من الطلح المصقول هزته أمام وجهه فرأى في رأس العمود ربطة من سيور الجلد وقطع النحاس والحز الملون. أدخل الإمام يده الخشنة تحت سرتّه وأمسك بالعضلة. صرخ. هزّت المرأة الحمقاء العمود أمام وجهه فبعث الخليط العجيب صوتاً كحشرجة المخنوق فضحك رغماً عنه. في تلك اللحظة تعانق شقا المقص حول رقبة العضلة وأحسّ بالوخز وسائل حار، لزج، يسيل على فخذه.

صرخ فابتلعت الزغاريد صرخته. عزّته المرأة الحمقاء وصاحت بالبشارة:
- إيك. إيك. يا درويش فأنت اليوم ملاك طاهر!

(٢٥)

ولكن الطهارة لم تتم. الغشاء المقطوع من عضلة الإثم، من عرق الشيطان، لم تكن كافية لتطهير البدن النجس بالشهوات. الجمرة المشتعلة بالرغبات تحرق الرأس وتحوله قرعة جوفاء. تأكل شرايين القلب ليستحيل كرة خاوية من الحنظل. تطير بالعقل وتضع واحة من الأوهام تنافس واو في الثراء والسخاء والجمال فتخلق من امرأة أرضية برونزية تنفّس وتأكّل وتقضي حاجتها، ملاكاً سهاوياً... ربة جبارة تستقرّ بكبرياء في الحجارة.

عرق الشيطان...

عضلة الإثم...

لعبته مع النبلاء البلهاء أدهى. العرق الشيطاني هو الذي يلعب برؤوسهم ليلفوا أنفسهم بقناعين مهيين: قناع حول الرأس وقناع حول القلب. النبلاء يلفون القلب المسكين أيضاً بقناع ليسموا ذلك نبلاً. خلقتهم

الصحراء طلقاء ففضلوا أن يخترعوا الأصفاد لأنهم لم يجدوا في خلاء الله الواسع قيلاً واحداً يكبلهم. لم يجدوا جداراً يستعبدهم فاکتشفوا شعائر النبل ونسبوا إلى «آنهي» المفقود. لم يكفهم هذا القيد فعدوا صنماً آخر: ركعوا للنساء وزحفوا على بطونهم عند أقدام الصبايا. خاضوا حروباً قبلية وشنوا غارات ظالمة على الجيران وتنادوا في تحالفات قبلية واسعة النطاق ليغزوا الأدغال ويعودوا بالسبايا الزنجيات والخلاسيات الحبشيات. البلهاء. أشعلوا في الصحراء ناراً بدافع من عرق الشيطان. ولكنهم لم يحققوا النصر لأنهم لم يعرفوا كيف يملأون الفراغ. حتى الحكماء نسوا أن عضلة الإثم هاوية لن تشبع بنساء القبيلة. لن تروها كل نساء الصحراء. لن تطفئ نهمها كل سبايا الأدغال. لأن النهم. . . لأن الخواء الأبدي في العرق نفسه، ولن يفلح مخلوق ما لم يجد الشجاعة في نفسه ويستلّه من أصله كما يستلّ الرعاة جرجير الحماة.

هذه هي الرجولة يا أوخا. هذا هو النبل يا أوداد. هذه هي الحقيقة يا آخاد. .
النبل هم: الخصيان! ها - ها. . وحدهم الأطهار. النبل في الطهارة.
ها. .

(٢٦)

ابتلع الصحراء سكون ما قبل آدم. السكون البكر، المجهول الذي يلي الفناء أو يسبق الخلق. في رأس الشعبة الصاعدة نحو ايدنيان المغدور وقفت طلحة وحيدة، غامضة، حائرة، ضائعة في ظلمات الصحراء وسكون الزوال. تبدو فروة رأسها العتماء، في ضوء النار، مثل عمامة لزاثر من أهل الخفاء. في جوارها أحسن موسى بسكينة.

طيفات النار وهي تأكل عظام الراس وحرس حرم السكون الإنساني.

في البليز، فاحية الجبل، ارتفع عواء طليح النار من الغمام

سحب المقبض من الغمد فخرج الثعبان النهم من جحره السري . أطل
كاهن الأدغال من معبده الوثني . رأى في لسان المدينة المعتم ، المبهم ، سورة
التائم . تعاويز ألف عام . صيحات قبائل الأدغال .
نزع السروال .

تضاعف السكون . سكون زمان لم تحف فيه الحجارة . زمان يعرفه
بالإحساس ولا يعيه بالعقل . الزمان الضائع الذي بحث عنه دائماً . زمان لم
تفصل فيه حواء عن صدر آدم ، ولم يفصل فيه آدم عن صدر الأرض .
الزمان الذي لن يعود إلا إذا قضى على عضلة الإثم واستل عرق الشيطان من
جذره ، تماماً كما يستل الرعاة جرجير الحمادة الحمراء .

ركع على الحصى . غاصت الركبتان في التراب الرحيم فشعر بعزاء .
تشجّع . رفع رأساً حاسراً نحو السماوات الظلماء . قبض على المقبض
السحري بقوة . قرب لسان الثعبان الخرافي الشره إلى العرق الشيطاني الذي
طير عقل بني آدم وصنع منه دمية بلهاء في يد ضلع طائش !

رأى النجوم . الزيتون الأبيض . جليس المعزولين . دليل الضائعين
الأبديين في صحراء الأرض وصحراء السماء .

أغمض عينيه ونزف العرق . حبس أنفاسه وجّر النصل الشره على رقبة
الشيطان . زلزلت الأرض . رأى جمهرة النساء المتشحات بالسواد . هزّت
المرأة الحمقاء جذعها المتوّج بالنحاس والخرز وصاحت بالبشارة : « ابك . ابك .
يا درويش فأنت اليوم طاهر ! » .

زغردت الجنيات في ايدينان المسكون . انحنت الطلحة الضائعة وأزالت
الأم بلمسة سحرية . زحف . السائل اللزج يغمر فخذيه . أمسك قدر الزيت
بكلتا يديه . اندلق . ولكن قوة ماردة مدّته بالشجاعة فصمد حتى غمر جرحه
بالسائل الحارق .

انهار على قفاه
شَمّ مزيجاً من الدم والزيت الزيتوني، الفرعوني .
سمع زغرودة الجنية الحسنة في ايدينان .
ارتفع عواء الذئب الفاجع .
غاب في الظلمات والسكون .

القسم الثاني

١ - حلقة الأرض

انطلق المهاجران في مسيرة العبور
قطعا مسافة . بدأت المتاهة
توجه الأول بطلب إلى السماء :
« ربي هبني جرّة مختومة من ذهب »
فتودّد الثاني وركع بدعاء :
« اللهم هبني جرّة ماء » .

* * *

امتدّت الصحراء
حرق قرص الشمس الأرض
اشعل النار في السماء
انهار الأول في منتصف الطريق
دسّ رأسه في كنزه ،
فعبّز التبرّ أن ينقذ قلبه من الحريق

* * *

بلغ الثاني واحة المحال
يحمل في القلب جرعة الماء
وفي اليد الأخرى جرّة المال .

إبراهيم الكوني - «أسطورة»

(١)

نشب الخلاف حول البئر مع حلول الخريف .
عاود العجاج حملته فأمر الزعيم بإيقاف تقدم السور . حاول أوخا أن
يقنع أتباع السلطان بالتوقف ولكنهم احتكموا إلى السلاح وتناوشوا مع رجاله
بالسيوف . تدخل الزعيم وبعث الإمام رسولاً إلى سلطان واو . استدعى أوخا
واختل به في الخيمة . في المساء عاد الإمام من مهمته في واو فعقد الزعيم
اجتماعاً للشيوخ .

جلس الزعيم بجوار الركيزة . ترُبع على يمينه الإمام . على الكلیم تخلق
الشيوخ . في الزاوية جلس الزوج والأتباع وانهمكوا في إعداد الشاي .

في الخارج توقفت الريح عن العواء واكتفت بالغارة في أنفاس قصيرة،
متقطعة، كأنها تريد أن تقول شيئاً، كأنها تريد أن تحاور العرافين وتخبرهم،
بلغتها الحقية، عن سرّها، عن سبب إصرارها على غزو السهل في السنتين
الأخيرتين . لأن لغة الريح سهل فهمها حتى على الأطفال عندما تصبح ضعيفاً
مقيماً على أهل الصحراء .

رشف الإمام الرغبة من كأس الشاي . سحب لثامه الناصع على أنفه
المعقوف كمنقار الصقر فعاد اللثام وانزلق إلى القم . تكلم :

- قال إن واو لن تبق بلا سور . الأسوار درع المدن . وإلا فلا يوجد فرق

بينها وبين واحات «تارجا». المدن منيعة بأسوارها، والواحات مفتوحة على الصحراء من جهاتها الأربع..

تبادل الشيوخ النظرات خلسة. واصل الزعيم رسم رموزه فوق الرمل بجوار الركيزة.

رشف الإمام الشاي وأحكم زمالته المهلهلة ببطي الطرف المدلى خلف أذنه.

قال:

- قلت له إن البئر شريان حياتنا، فأجابني بأن السور لن يكون سوراً إذا بقي البئر خارجه. قطع على نفسه عهداً أن يتركنا نرتوي ونسقي إبلنا وأغنماننا في أي وقت، كما اقترح أن.. أن نتنازل عن كبريائنا ندخل المدينة..

هتف الزعيم

- ندخل المدينة؟

- نعم. يعرض علينا أن نستقر ونقيم في الديار والجدران.

ضحك الزعيم ضحكة عصبية، غامضة. تكلم شيخ نحيل بارز الوجنتين، متغضن الجفنين يجلس بين شيخين منكفئين نحو الأرض. قال بهدوء:

- لو كنا نريد أن نستقر بأرض لفعلنا ذلك منذ سبعة آلاف عام. لو كنا ننوي أن نبرك بين الجدран الخرساء لبنينا مدناً أجمل من تينبكتو، مدناً حقيقية لن تنافسها سوى واو الحقيقة، لا واو المزيفة التي يريد أن يغرينا بها ليحبسنا كالعيد. المجوسي. إنه مجوسي!

تشجّع الشيخ الذي جلس بجواره فرفع رأسه المزمل بلثام أسود وتوعد بسبابته:

- لماذا لم تقطع رأسه؟ يأتي وافداً غريباً ونعطيهِ الأرض والماء ثم يتجاسر ويستولي على القرية وعلى الوادي. أصبحنا غرباء في صحرائنا وأصبح اناسي سلطاناً على السهل وعلى أزجر. بدأت أيضاً أشك في أنه مجوسي.

صاح الشيخ الآخر الذي جلس على يمين العجوز:

- قلت كلمتي منذ اليوم الأول. قلت إما أن نترك له السهل ونرحل إلى تادراوت أو مساك، أو نشيعة هو إلى «تارجا» أو نحو الحمادة. والنحس الذي جلبه لصحرائنا لم يبدأ اليوم. جاءت معه ريح لم نعرفها من قبل. سوف تطمر البئر اليوم أو غداً. وسواء استولى على البئر أو لم يستول فإن ريحه ستستولي على ما عجز هو عن الاستيلاء عليه. لقد خالفنا تعاليم أجدادنا التي حدثنا بها «آنهي»: أهل آير سَحَرَة يسْخُرون كل شيء: الريح والمطر والحجارة والشجر.

رفع الزعيم يداً نافرة بالعروق، مرسومة بالفضون فسكت الشيوخ. وجد فرصة عندما جاء ذكر الدستور الضائع فقرر أن يتخذه مدخلاً كعادة الحكماء:

- لا أعرف عما إذا كان «آنهي» قد حذّر حقاً من أهل آير بالذات أم أنه حذّر من الغرباء إجمالاً. ولكن ما أعرفه يقيناً أن آنهي قال إن قلب الغريب يحمل سراً. نحن أذنّا له ولقومه بالإقامة لأننا لا نستطيع أن ندعي لأنفسنا ملكية صحراء الله الواسعة. ومنحناه الماء لأن آنهي نفسه، الذي تقولون إنه حذّر من الغرباء، سَطّر في أولى الصفحات تحذيراً أقوى يقول: «إذا منعت جرعة الماء عن عابر سبيل منعتها الصحراء عنك».

تهذّل لثامه الأزرق فرفعه فوق الأنف. استمر:

- كثيراً ما وقع المتبرعون بالماء ضحايا لقطاع الطرق. يهرعون إليهم بالماء وهم يموتون عطشاً وعندما يرتوون وتدبّ في عروقهم الحياة يعود الشيطان يسري في نفوسهم مع الماء فيقتلون اليد الإلهية التي منحتهم الحياة. فهل

يضرهم أنهم وقعوا ضحايا وشهداء؟ لا تفهموا أني أدعو للتسليم في البشر ولكن «آني» دعا في كل سطر من سطره إلى لغة المحاوراة والاحتكام إلى العقل..

سكت ثم اقترح في النهاية :

- أمهلوني قليلاً. سوف أحاوره بالتي هي أحسن.

جاء تابع يوزع الدور الثالث من الشاي. في الزاوية خفتت جذوة النار. في الخارج سكت الريح كأنه يتصنت ويتجسس.

(٢)

بماذا تتمتع شفاه الريح؟

تتجاوز مع الجان في تجاويف الصخور وبين ألواح ايدينان. تنفخ أشداق الثياب والأكمام وتملأها بسر الصحراء. تعوي في الخلاء بفجعة الذئاب الجائعة لأنها أيضاً جائعة. تتحرق للنيل من ضحايا المجهول. تداعب الرملة للعب وتزرع على وجهها الموج والغضون والتجاعيد. تسطر الرموز على التراب وتحفر الرسوم لتنافس أنامل الأولين المبدعين الذين نقشوا الشجر مجسماً على الحجر.

الريح..

بأي سر تأتي الريح؟

تحدث بلغة يفهمها الأطفال. تهمس في أذن الرضيع بسر الصحراء، بسر الماء. تنقل أسفارها من بحر الرمال العظيم لتبني بحراً أعظم من الرمال. تطيح برابية ذهبية هنا. تنثرها. تذروها وتحولها هباء في الفضاء. ثم تعود وتخلقها من الفضاء لتصنع رابية أجمل في مكان أبعد. تطير باللقاح وتتوسط بين ذكر النخل وأنثاه وترتب اللقاء المستحيل للعاشقين. يتزوجان عن بعد فتولد الحياة في عراجين كعنقود نجوم «بنات الليل» في الليلة الظلماء.

الريح . . .

رسول المجهول إلى نجوع أبادها الوباء . تغسل الصحراء من داء أنك
الشيوخ والأطفال . تعزي هياكل العجزة وتهرع لنجدة الرضيع . تقتل الغول
وتعطي الأبرياء الشفاء والحياة .

الريح . . .

قدر الصحراء . تمحو الأثر وتحجب واحات النجاة . فيضيع المهاجر ،
ويموت بالعطش وهو يعوم في ماء السراب . ولكنها تلقيه أيضاً في أحضان واو
المفقودة عندما تشاء .

الريح . رسول القدر إلى صحراء البشر ، تختار منهم قرابين تقدمهم
طعاماً للآلهة .

لماذا تقسو الريح فتطمرحلمة الأرض وتقتل المياه في الآبار؟

لأن يد الريح هي اليد الوحيدة التي تحفر اليوم ما طمرته في رحلة
الأمس .

أما لماذا تقتل نجوعاً اليوم لتحيا قوماً في بطن المجهول غداً فذلك سرّ
تعرفه الصحراء وتجب عنه بسؤال : لماذا يموت اليوم إنسان؟ لماذا يولد في
الغد إنسان؟ ولماذا يولد اليوم إذا كان سيموت غداً؟

(٣)

أرسل في طلب العرافة .

جاءت مع العشيّة ، بعد خروج الشيوخ من البيت . جلست وراء الركيزة
متلحفة بلحاف في سواد قطعة من الظلمات . بصقت تبغ المضغة وراءها
وأهالت على البصقة حفنة من تراب . سألت الزعيم :

- كيف الغبار؟

رفعت يداً ضامرة، نافرة بالعروق، ونقرت رأسها بأصابعها الطويلة
مشيرة إلى الويل. عاد الزعيم:
- لم نر أشرس ولا أعند.

واففته بتنهيدة طويلة. احتجّ الخصم الخفي فصنع الخباء بضربة مفاجئة.
ترنّح الخباء وشفقت أطرافه الجانبية كأنها أجنحة طائر خرافي ترفرف استعداداً
لبداء الهجرة. علّق الزعيم:

- أهل واو أسعد حظاً. جدران الحجر أنفع في مقاومة الريح.
- عندما يقرر أن يمدد من ضيافته ويستوطن فإنه يصبح كالوباء لا تعصم
منه الجدران حتى لو كانت من حديد.

- ولكن لن يعجز أهل المعرفة عن إيجاد حيلة.
انتظرت أن يفسّر الإشارة فسكتت. أثني على مواهبها:
- أنت عرّافة قديرة. أزجر كلها تشهد بذلك.

انتصب بينها الصمت. زار الخصم بموجة جديدة من الغبار. طوّقت
رقبتها بطرف اللحاف الأسود قبل أن تتساءل:
- تقصد السلسلة؟

اعتدل الزعيم في جلسته. هربّع. التقط عوداً ورسم على الرمل رموزاً
غامضة. قال بنغمة خفية:

- . . مصنوعة من أقوى أنواع الحديد. طولها سبعون ذراعاً. هيّا.
سوف أعطيك ناقة. هل تكفي ناقة؟

تمايلت الزنجية بيأس. أطلقت أنيناً طويلاً تعودت أن تهتف به عندما
تقدم على فتح معركة مع الجن. قالت:

- أنت لا تعرف ما تقول يا شيخنا. أن لا تتخيّل شروط سلسلة أعِدّت

لتقييد رسول القدر. الريح ليس جنًّا يا سيدنا الشيخ .

- هل الريح رسول القدر؟

أجابت بعد صمت طويل :

- نعم .

- كيف عَرَفْتَ؟

ضحكت . كشفت عن أسنان مهذمة خربها تبغ المضغة :

- هذا سرِّي . كيف أكون عرّافة دون أسرار؟

...

- الديمومة يا سيدنا، الديمومة إشارة القدر.

سكت . عاد يحسّ النبض :

- هل تكفي ناقة؟

قالت بغموض :

- لا معنى للعطية عندما يتعلّق الأمر برسل القدر، بإرادة الآلهة .

في واو وعدوني بقطع من الإبل إذا قدرت أن أصنع السلسلة ولكنهم لم يستطيعوا أن يوفوا بالشرط الذي وضعه القدر .

- الشرط؟

- نعم هل تستطيع أن تفني به أنت يا شيخنا؟

- تكلمي .

لم تتكلم . فتحت صرة في طرف لحافها وتناولت حفنة من التبغ المطحون، ألقت بها في فمها . قالت وهي تمضغ بجسارة :

- هل تستطيع أن تضحي بصيبة بكر من بنات القبيلة النيبالات؟

ردد الزعيم بدهشة:

- صبية بكر من البنات النيبلات.
- بجداول مخضبة بالدم يبدأ حَبْكُ السلسلة.
- ألا تكفي ذبائح الأنعام؟
- هزّت رأسها بالنفي.

اقترح الزعيم:

- لم يرد في القرآن ما يبيح التضحية بالصبايا.
- صنعُ السلسلة في القرآن تدخُّلٌ في إرادة الخالق. الريح رسوله.
- جرّبي الأنعام.
- لن تفيد.
- صفّر الرسول في الخلاء. تحالف مع المساء وكثّف من ستار الظلمات.
- سمع الزعيم العرّافة تعيد:
- الأنعام لن تفيد.

(٤)

جاءت فتاة خلاسية من الخباء المجاور. أوقدت النار في الزاوية وبدأت في تحضير الشاي.

استمرّ الزعيم يحرق الرمل بسبابته ويرسم رسوزه بجوار الركيزة. رفع رأسه وسأل بعد صمت طويل:

- أحزني قرار الأميرة.

صمت العرّافة فأضاف:

- بلغني أنها تعلّقت بوّدان الجبال.
- مبلغ علمي أنها لم تقرر شيئاً بعد.

- أَوْخَا لَا يَسْتَحِقُّ هَذَا الْمَصِيرَ. سَمِعْتُ كَثِيرًا عَنْ تَقَلُّبِ مَزَاجِ بَنَاتِ آيَرِ وَلَكِنِّي لَمْ أَصْدُقْ عَقْلَاءَ آزْجَرِ. ظَنَنْتُ أَنَّهُمْ يَتَحَامَلُونَ عَلَى نِسَاءِ هَذَا الْبَرِّ كَمَا يَتَحَامَلُونَ عَلَى رِجَالِهِ وَلَكِنَّ الْإِنْقِلَابَ فِي مَوْقِفِ الْأَمِيرَةِ أَكَّدَ أَنَّهُمْ عَلَى حَقِّ.

- عَوَدْتُنَا أَلَّا نَتَعَجَّلَ فِي إِبْدَاءِ الرَّأْيِ يَا سَيِّدَنَا.

- لَا أَحْتَمِلُ أَنْ يَتَأَلَّمَ أَوْخَا. لَقَدْ انْتَظَرَ الْمُسْكِينَ سَنَوَاتٍ.

- أَنْتَ الَّذِي رَهَنْتَ إِتْقَامَ الْمَصَاهِرَةِ فِي كَفِّ الْقَبِيلِ الَّذِي يَفُوقُ مَزَاجَ بَنَاتِ آيَرِ تَقَلُّبًا، فَمَاذَا كَانَتِ النَّتِيجَةُ؟

- لَمْ يَكُنْ لَدَيَّ خِيَارٌ آخَرَ. الْبِئْرُ حَيَاتُنَا وَالْقَبِيلَةُ وَضَعَتْ حِمَايَتَهُ مِنَ الْغُبَارِ فِي يَدِ أَوْخَا. مَنْ رَضِيَ أَنْ يَتَوَلَّى رَدَّ الْغَزَوَاتِ لَا يَتَسَلَّلُ إِلَى مَخَادَعِ الْحَسَنِ. أَنْتِ تَعْرِفِينَ الْحِكْمَةَ الْقَدِيمَةَ. أَنْهِيَ دَلِيلُنَا.

- الزَّمَانُ مَعْلَمٌ أَيْضًا، مِثْلُ أَنْهِي. سَيَعْرُضُ اقْتِرَاحَهُ قَرِيبًا. مَا عَلَيْنَا إِلَّا أَنْ نَصْبِرَ وَنَنْتَظِرَ.

- بَلَّغْنِي أَيْضًا أَنَّ أَهْلَ وَاوْ يَنْوُونُ أَنْ يَسْرِقُوا مِنَّا.

فَهَمَّتِ الْعُرَافَةُ الْإِشَارَةَ. ابْتَسَمَتْ. قَالَتْ بَعْدَ صَمْتٍ قَصِيرٍ:

- جُئِلْنَا عَلَى رِعَايَةِ الْغُرَبَاءِ. أَنْتِ رَبِيتِ فِينَا هَذَا الْخَنَانَ كَمَا رَبَّيْتَهُ فِينَا الصَّحْرَاءِ.

- نَحْنُ الْآنَ أَصْبَحْنَا الْغُرَبَاءِ. أَنَايِ يَرِيدُ أَنْ يَسْلُبَنَا الْبِئْرَ.

- وَاوْ لَسْ تَبْعَثُ مِنَ الزَّوَالِ بَدُونِ بِئْرِ يَا شَيْخَنَا.

تَرْتَجُّ الزَّعِيمَ عَيْنًا وَيَسَارًا وَرَدَّدَ فِي خَشْوَةٍ:

- وَاوْ. رَاوْ. لَنْ تَبْعَثَ وَاوْ مِنْ مَجْهُولِهَا، يَا تَيْمِيطُ، عَلَى يَدِ بَنِي آدَمِ.

الْإِنْسَانُ دَبْسٌ وَ«وَاوْ» فَرْدُوسٌ مَفْقُودٌ. الْخَيْرُ خَيْرٌ مَا ظَلَّ طَلِيقًا فَإِنْ انْتَضَمَ فِي قَنَازَةٍ وَمَسَّتْهُ يَدُ الْأَثَمِ الْمَلْعُونِ فَسَدَ وَتَفَسَّخَ كَمَا يَتَفَسَّخُ ذَهَبُ الْكَتْرِ الَّذِي لَمْ تُنَحَرَ عَلَيْهِ ذَبِيحَةُ تَفَكِّ الطَّلَسَمِ.

- ولكن أهل الصحراء لن ينعموا بفردوسها ما ظلت مطمورة في مجهولها.
المهاجرون الصحراويون يريدون أن يشربوا ويرووا مواشيهم ويلاقي بعضهم بعضاً ليروّجوا للتجارة ويتبادلوا البضائع. يريدون أن يفوزوا بهذا هنا على الأرض، اليوم قبل الغد، وليس في اليوم المجهول.

- ماذا نفعل إذا كان هذا هو سرّ الله الذي وضعه في واو. لا تُبْعَثْ من ضياعها إلّا في اللحظة الأخيرة. ولا يفوز بنعيمها إلّا مَنْ كان مثلها ضائعاً، وحيداً. ولا أرى غرابة في ذلك. لقد جئنا وحيدين إلى الصحراء وسنعود إلى المجهول وحيدين.

قل لي يا شيخنا. اسمع لي بسؤال: ما حاجة الإنسان لـ «واو» وهو في صراط العودة إلى الأصل؟

رفع رأسه عن رموزه. في عينيه لمعت دموع تحت ضياء النار. جاءته الصبىة الخلاسية بالشاي فأزاح الطبق بحركة خشنة فتراجعت الصبىة مذعورة. تكلم بصوت غنوق فُخِيل للعرّافة أنه يأتي من بئر:

- لأن فيها العزاء. لو لم توجد «واو» في مكان ما، يوماً ما، لما.. لما كان للصحراء معنى. لما كان للحياة معنى. واو.. واو هي العزاء.

في الخارج سكت الريح، وعاد يتصنّت.

(٥)

لم تستعر مدن الصحراء من واو الضائعة أسلوب بناء الأسوار فقط ولكنها استعارت، كما يؤكّد شهود العيان الذين بقوا على قيد الحياة، أسلوب المعمار الصحراوي كلّهُ: الديار ذات البنيان المربع، المتوجّج في الأطراف بمثلثات «تانيت» الهرمية. السقوف العالية المحبوكة من أعراف النخل المشطورة في الوسط بضلفتين أو ثلاث من جذع النخل أيضاً. أمّا النوافذ فعالية، تجاور السقف، مثلثة الشكل أحياناً، ومقوسة تحاكي مداخل الأروقة أحياناً أخرى.

ويحرص البناؤون أن يستروا أفواه النوافذ بأسنان دقيقة من أعراف النخيل ليحجبوا البيت عن عيون الفضوليين. وفي كل بيت تمّ بناء سلم داخلي يؤدّي إلى السطوح يقتصر استعماله على النساء، فيتزاورن ويتسامرن من هذا الطريق السماوي الخفي، المعزول عن حياة الرجال في أروقتهم السفلية الظلماء. ممرات المدينة معتمة، وأروقتها ظلماء، ويتخذ التجار من أفواه الجدران والممرات والأروقة دكاكين لهم، يجلسون في كسل على السدة الحجرية المبنية بجوار الجدار، يهشّون أسراب الذباب، يحتسون الشاي الأخضر ويثرثرون. وفي العادة، فإن السوق الكبير يقوم بالقرب من السور، في مواجهة الباب الذي يؤدّي إلى طريق القوافل حتى يتبادلوا البضائع ويعقدوا الصفقات مع التجار الوافدين دون أن يضطروا لاستقبال الأغراب في الأروقة فيأمنوا الأسرار والحريم.

ففي مدينة صحراوية عريقة مثل غدامس يقع السوق في المدخل الجنوبي المؤدّي إلى طريق تينبكتو للقوافل. وفي مرزق يقوم في الشمال على طريق طرابلس الغرب، أما زويلة وتينبكتو وتامنغت، برغم المسافات الهائلة التي تفصل المدن الثلاث، فتميّزت بين مدن الصحراء بإقامة أكثر من سوق وذلك بسبب كثافة القوافل وزحام التجار.

وفي «واو» الجديدة خصص السلطان الرقعة الكبيرة الملاصقة لسفوح ايدنان المغرور كسوق للمدينة، فرفع البناؤون رأس السور ليضموا الرقعة، وفتحوا باباً مهيباً إلى الجنوب يليق باستقبال أغنى التجار وأكثر القوافل ثراءً. وقد شاء السلطان أن يفتح باباً خلفياً نحو النجع في الغرب، لا تيمناً بتينبكتو الأم أو محاكاة لـ «واو» الخفية، ولكن تنفيذاً لنيته في ابتلاع البئر وضمه إلى جوف المدينة.

ورغم المدة القصيرة التي استغرقها جيشه الزنجي في البناء إلا أنهم استطاعوا أن يمدوا حدودهم أفقياً حتى وصلوا إلى البئر وطرودوا أهل السهل

الأصليين إلى الغرب، ومدّوا القباب والمآذن إلى السماء وتوجّوها بأهلة منفرجة وأخرى مشدودة حتى تكاد تتلامس في قممها لتعود أقباراً ساوية مستديرة. ولكن السور ارتفع عمودياً أيضاً فحجب الأبنية وبعض القباب، ولم يبق إلا الأهلة الأعجمية المشدودة تسطع في السماوات.

أكد «ايدكران» للزعيم أن السلطان دسّ رفات الأولين ومدّ يده المجوسية إلى القبور المشبّنة بالسفوح الجبلية ليشيّد بها قصور «واو» من الحجارة المقدسة.

جاء لزيارة الزعيم بعد انسحاب الشيوخ. وجده يترعّع في المدخل، يحصي حبات مسبحة في يده اليمنى. ينصت للصمت ويسبّح بحمد من وهب الريح السكنية. وقف الغرب في الخارج لحظات. كان مشهد الزعيم جليلاً وهو يغيب في ظلمات الخلاء المؤدّي لايدنينان المسكون، ويراقب «أشيت أهظ»(*) ذلك العنقود الغامض من الضياء الذي يتدلّى من السماء الظلماء فوق ألواح الجبل الأسطورية التي تخفي عن السهل وطن الجن.

تقدّم. خلع نعليه. تقرّص بجواره دون أن يلقي بالتحية. تجاهله الزعيم طويلاً. ثم كوّم عقد المسبحة في قبضته وطفق يفرّكها بين يديه كأنه يريد أن يعصر من حبيباتها الخشبية سرّ السكون. ويسألها عن لغة النجوم وخفايا الخلوات وسرّ. . الريح.

بدأ الليل عدّه التنازلي. هبت نسمة شالية محمولة بنداوة البحر البعيد. سحب نفساً عميقاً. وضع المسبحة في جيبه. التفت نحو ضيفه:

- نسينا آخر مرة تمتع فيه السهل بالهدوء والصفاء. نسينا أنسام الشمال. الريح لعنة.

- مهلة. كل الرسل المُسَخَّرَة تعطي مهلة. عزرائيل نفسه يمهّل المريض

(*) «أشيت أهظ»: بنات الليل (لغة تماهق).

ويشفيه تماماً قبل أن يقبض روحه ويعيد الأمانة إلى أصلها. والقبلي، مثل عزرائيل، رسول المجهول.

- رسول لم تشهد له سهولنا مثيلاً. لم يحدث أن استمرت الريح سنوات في تاريخ الصحراء. لا بد أن ثمة سرّ.

سكت ثم سأل فجأة:

- هل اقترنا إنهما؟

...

- أنظر ماذا فعل بالسهل. حوّله إلى ايدهان^(*) أمام عيوننا. أنجز في سنوات ما تعود أن ينجزه في دهور. فماذا فعلنا؟ لكل رسول سرّه.

- حق. ولكن لم نسمع في أساطيرنا، كما لم نخبرنا «أنهي» الضائع، أن أمراً كهذا حدث في الماضي.

- حدث. صدقني إنه حدث. وإلا لما تحوّلت الأرض إلى صحراء بلا حدود.

- متى؟ قبل عشرة آلاف عام؟ قبل مائة ألف عام؟ أنا أتحدث عن الزمان الأقرب الذي عاشه أجدادنا.

- أجدادنا عاشوا هنا منذ وجدت الأرض، منذ وجدت الصحراء. ولكن الأجداد حقاً يا شيخنا أن نبحت في نفوسنا عن السبب. عن سرّ الريح.

أنصت ايدكران للسكون أيضاً. تابع بريق النجوم في السماء الظلماء.

قال:

- اعتدى على الأموات. نبش القبور وأقام بأحجارها السور.

(*) ايدهان: الصحراء الرملية (نماحق).

التفت نحوه الشيخ . تبين وميضاً في عينيه تحت ضياء النجوم . علّق بعد صمت .

- هل يفلح مَنْ بنى حصناً بأرواح الأولين؟ هل سمعت في آير أن أسوار واو مبنية بأرواح موتاهها؟

- لم أسمع .

- هل تبقى واو فردوساً للناس وحلماً يتغنى به أهل الصحراء من مهدهم إلى لحدهم ولو أقيمت بأنقاض القدماء؟ .

- لن تبقى . . .

- ويتشّدق السلطان المغرور بأنه يستطيع أن يبني واو بيد الإنسان النجس .

... -

- نعم . السرّ في النجاسة قبل أن يكون في حجارة المقابر . أوافقك أن الروح تنتقل وتسكن الحجر ولكننا نقول في أزجر إنها لا تبقى طويلاً في الحجر . تنتقل وتحلّ في رؤوس الجبال قبل أن تطير إلى السماوات أو تغوص في الأرض حتى تحلّ في المياه الجوفية . ومن هناك تتسلل ، عبر المنابع والآبار ، لتحلّ في النبات والشجر أو تتبخّر في الفضاء لتعود من قطرة المطر . ولكن السرّ أن يد الإنسان نجسة منذ أن عصى جدّنا الأول سلطاناً واو وخدعه في أمر البستان .

سكت ثم سأل دون أن يلتفت :

- هل أذكرك بالأسطورة؟

شقّ الظلماتِ نجان . أحدهما اتجه شرقاً كأنه سقط في فم الألواح المربعة المفتوحة على السماء فوق ايدينان . الثاني انهار نحو الغرب ، يجرّ ذيلاً من الضياء ، حتى اختفى في بحر الرمال . بشارة . هدية السماء إلى الأرض . حلمة الصحراء تفتقت عن بثر في الشرق وآخر في الغرب .

في الجوف تتحرك النداءة. يتململ الماء السلسيل. يفلق الصخر المرمري
ويعيد الحياة لقبائل من المهاجرين الذين رَكَّعهم العطش في القارة العارية.

رفع الشيخ يديه وقرأ تعويذة. تبعه الضيف فتمتم بتميمة بلغة «الهوسا».
عاد الزعيم إلى الأسطورة.

- التقط رجال السلطان جدنا بعد أن ضاع وعطش وفقد العقل والوعي.
رووه وأدخلوه إلى واو. قَدَّموه إلى السلطان فَأَنْقَذَهُ من جوع وآمنه من خوف.
سَلَّمَ له قطعان الإبل ليرعاها في الصحاري المجاورة. ولم تمر أعوام قليلة حتى
توالدت وتكاثرت وتضاعف القطيع. نال الراعي إعجاب السلطان فزَوَّجَه
كبرى بناته السبع. ولَمَّا كانت المرأة بطبيعتها ميالة إلى المجد والمفاخرة برفعة
الشأن فقد أَلَم الفتاة أن تتزوج راعياً من دون أخواتها جميعاً. فظَلَّت تغوي
الراعي وتدفعه لأن يتخذ من البستان المُحَرَّم مَرْتَعاً لقطعانه. قاوم جدنا
المسكين طويلاً ولكن الفاتنة هجرته في المخدع فركع ودخل بالإبل إلى
البستان. غضب السلطان وطردهما خارج أسوار واو. ومنذ ذلك اليوم ضاع
وضيَع نسله من بعده وَحَرَمْنَا من حياة السكينة في واو.

- ومنذ ذلك اليوم ونحن نغنى بالواحة المفقودة ونكابد بحثاً عنها.

- نعم. ومنذ ذلك اليوم أيضاً حَلَّت النجاسة محل البركة في يد جدنا
المخدوع. فبدل أن كانت القطعان تتضاعف تحت يديه المباركتين أصابه ما
أصابه فحلَّ وباء الجرب وانتشر في القطعان فهلكت. فهل يستطيع السلطان
المبجل أناي أن يبني «واوا» حقيقة بهاتين اليدين؟.

- لا. لن يفلح.

- كما ترى فإن تدنيس القبور ليس سبباً وحيداً في خطيئته.

- لا. ليس سبباً وحيداً. ثمة أسباب أخرى.

انصت الصمت للصمت. الصحراء في الليل هاوية من السكون.

اشتكى الشيخ :

- أنت تعرف ماذا ينوي أن يفعله بالبئر .

ولكن ايدكران ردد بصوت غامض :

- . . ثمة أسباب أخرى .

شقَّ الفجرُ الظلمات وفتقَ الأفقَ خيطُ القبس .

(٦)

نجوم الصحراء . دموع الليالي الشتوية الباردة . ضرع الساحرات . .
يحلبن من ضيائه التعاويذ والرؤى . معجم العرَّافين ومرآتهم ، في صفحته
يقرأون النبوءات . أقرط الحسنات عندما يموت رجالهن في الغزوات .
النجوم . . .

دليل التائهين . نديم المهاجرين الذين كتبت عليهم الصحراء أن يعيشوا
في المنفى إلى الأبد .

«اشيت اهظ» . تتجمهر في الظلمات . تهامس بسرَّ الخلاء . تتكدَّس
كعرجون بلح في أعناق النخيل .

«ايدي» . . مهاجر وحيد ، معلق بين السماء والأرض ، ينافس البدر في
البريق ، ولا يتزحزح عن المبدأ . مشدود بوتد كي يضيء الصراط للباحثين عن
«واو» .

«طالمت» . . تترك في قلب الليل كعجوز صحراوية حكيمة . تروي
الأساطير للأجيال عن المنفى الأبدي و«واو» الضائعة و«آنهي» الذي فُقدَ
ففقدوا الحقيقة وأضاعوا الطريق .

قبيلة النجوم اجتمعت وتشاورت عندما رأت ما حلَّ بأرض تانس
وقررت أن تهرع لنجدة أميرة الفلاة . أطلقت شهياً وهوت على صدر الأرض

بالنجوم . مرّقت قلب الأرض المتغضن المتشقق عطشاً وحفرت الآبار والينابيع .

هذا ما حدث في أحد أيام الأزل البعيد .

وكلما رأى أهل الصحراء اليوم نجماً يبرق وهوي سهروا الليل يرتلون الصلوات . يقرأون تائم الأسلاف . ويكون على روح سهاوية استشهدت في سبيل أن يهتدي مهاجر يشرف على الموت إلى «واو» النجاة قبل أن يغيب ويخلع ثيابه ليقدّم نفسه قرباناً لقدر الصحراء .

ومنذ أن هرعت السماء لتفجير الحليب الأرضي من حلمات الصدر الرحيم والصحراء لم تكف عن التزيف بالحياة . . . الماء .

قد يهبّ الريح بالغبار ليدفن بشراً هنا أو نبعاً هناك ، ولكن في شقوق الجبال أو أخاديد المرتفعات أو كنان الرملة توجد دائماً حلمة خفية تحببها الأم المعطاء لتمنحها لعابر شقي في الوقت المناسب .

(٧)

اكتشف البئر منذ ثلاثمائة عام .

ويقول الرواة إن مكتشفه هو رجّالة من أهجار . جاء من تامنغت يحمل في سرّه خريطة شفوية عن كثر في أزجر ورثها عن جدّه . ويقال إن الخريطة الأصلية مكتوبة بالتيفيناغ على حجر وجد مدفوناً في أحد الكهوف ، ثم قام أحد الفقهاء بنقل رموزها إلى جلد جاموسة بريّة حتى يسهل التنقل بها في الصحراء . ولكن الفقيه لقي مصرعه بسبب هذه الجلدة نفسها واستولى عليها الجدّ الأهجاري بحدّ السيف . وبرغم وجاهة الجدّ ونسبه إلى زعامات أهجار إلّا أن الأصل النبيل لم ينقذه من الموت على يد مجموعات باحثة عن الكنوز . ولكنه استطاع أن يشوي القطعة الجلدية النفيسة ويأكلها قبل أن يقع في يد العدو . ويبدو أنّ حكمته جعلته يتوقع هذا المصير . فترك وصيته للحفيد لدى

عجوز معمرة تجاوزت المائة عامة يتهمها بسطاء القبيلة بتعاطي السحر. وقامت المعمرة بتسليم الوصية للحفيد بمجرد أن بلغ سن الرشد وستر رأسه بالقناع. واضطرت أن تسهر معه ثلاث ليال متتالية كي تجعله يحفظ الرموز بالدقة التي تشترطها خرائط الكنوز القديمة. وما أن تم له ذلك حتى استأذن أمه في الخروج. سافر إلى آزر تنفيذاً للوصية وبحثاً عن الكنز الأسطوري، فماتت العجوز المعمرة عقب سفره بسبعة أيام بعد أن سددت الدين ولقنته سرّاً كتمته طويلاً. ولكن القضاء على الخرائط الأصلية (الحجرية ثم الجلدية) ونقلها إلى اللغة الشفوية لم ينقذ الحفيد من مطاردة الأعداء وكيد المحترفين الباحثين عن الذهب.

سافروا في أثره.

في جبال تاسيلي بدأ في تنفيذ التعاليم. سَلَكَ فجاجاً وأخاديد جبلية واهتدى بالطريق بواسطة رموز تيفيناغ ورسوم الأولين المنقوشة على الصخور وجدران الكهوف. وكلما وجد صعوبة في تفسير الألفاظ القديمة أو اختلط عليه أمر بسبب حيل الأجداد اللغوية في تمويه أهل الجشع والنهم لجأ إلى عجائز تشبّثوا بالسكنى في كهوف تاسيلي منذ آلاف السنين، ليفكّوا له الرموز ويفسّروا ما خفي عليه من مفردات. كانوا يترددون كثيراً في قراءة الطلاسم الصخرية ولكن كلمة سرّية استعارها من العجوز كانت تشجّعهم على التجاوب وتفتح له الأبواب. وهي عبارة عن ثلاثة أبيات غامضة من الشعر لم يفهم معناها. ويبدو أنها كتبت بلغة «نماق» القديمة أيضاً. ولم يعرف الحفيد عمّا إذا كانت الأبيات الثلاثة مستعارة من الوصية الأصلية التي تركها الجد أم أن العجوز الحكيمة هي التي اجتهدت وحصّنت بها مهمته استناداً إلى تجربة طويلة في الاختلاط بالناس وفهم عميق لطبائع أهل تاسيلي المعروفين بانطوائهم وعزلتهم وريبتهم في غيرهم من سكان الصحراء. في «ابغهرملن» انحرف شرقاً. انحدر مع الوادي حتى أفضى إلى «تانزوفت» بعد مسيرة يومين. قضى ليلة في رأس الوادي وأنصت لتمنّات الجن في أكاكوس الجنوبي

وهو يسهر الليل ويستعيد في ذاكرته النقطة التالية في الخريطة الشفوية .

واصل الرحلة عند الفجر . وعندما انتصف النهار بلغ الموقع . تماماً كما حدّد الجدّ الوصية . ترجّل وسار عبر السهل يجرّ المهري خلفه . أنصت للسكون المهيّب وراقب الألواح السماوية الجلييلة فوق رأس «ايدبنان» . رفع رأسه وراقب قرص الشمس الربيعي وهو يتربع على عرشه مهدداً بسيّاط النار .

بلغ الربوة الأولى .

أناخ المهري وتركه وراءه الرابعة . في البداية برك في استسلام وشرّع يجرّ رافعاً رقبته الهيفاء الطويلة نحو الشرق . ولكنه نهض فجأة . التفت حوله في قلق واستنفار . عاد إليه وأناخه مرة أخرى . ثم قيّد قائمته الأماميتين المثبتين المغمورتين في التراب بحبل محبوك من شعر الماعز . مضى ولكن رفيقه لم يكفّ عن توتره وحركات رأسه العصبية .

بلغ الرابعة الثانية .

اقترّب القرص من جسد السهل العاري . سكب أمطاراً من الضوء الناصع . جرى السراب أنهاراً من هب القيلولة .

وقف وقرأ تعويذة بلغة مجهولة . لغة الجن والأجداد والكنوز . سكن لحظات . غمره العرق . استدار يمينا . قطع الأخدود بخطوات واسعة . خطوة . خطوتان . ثلاث . أربع . خمس . ست . سبع . ثم ركع على كوم من رماد . تناول منه حفنة ودّره فوق رأسه المعمم . بدأ يحفر . يحفر . يحفر . .

حفر ليوم وليلة دون أن يغفل الأعداء عن مراقبته من التلال المجاورة . استراح وغفا ساعات ثم استيقظ في اليوم التالي مع حلول المساء وواصل الحفر . يزيح التراب بيديه ويحمل الرمل بعيداً في جراب من الجلد . استعان بالمهري فحمّله أثقالاً من التراب والرماد والحجارة والحصى . ولم يتوقف عن

العمل حتى خدشت أظافره لوحاً صخرياً صَلْدًا. نهض ورفع يديه نحو السماء
وقرأ الفاتحة تَرَحُّمًا على الجَدِّ الرحيم. جنا من جديد وأزاح اللوح المستدير
بعناية. قلبه يتوثَّب ويتقافز ووجهه يغسله عرق مدرار. كَشَفَتِ الهاوية عن فم
معتم كئيب ولعت الفوهة بطوق دقيق مرمرى صقلته الجبال ووسمته بأثار
آلاف السنين. دفع اللوح وأبعده عن الفوهة. انحنى فوق الفم المظلم. لمع
بريق في القاع البعيد. تناول حجرًا. قذفه في الهاوية. مضى زمن قبل أن
يسمع الضجيج في الماء. حفر حول الطوق المصقول. برزت الحلمة الرائعة.
حلمة الصحراء المرمية النافرة في ثدي الأرض الضامر، الذابل، الصبور،
المعطاء. امتصت منه الشمس النضارة والحياة. هوى نجم في الزمان البعيد
وفجَّر ينبوعاً.

فهم الباحثون عن الذهب وعادوا على أعقابهم. أمَّا الحفيد فاستمرَّ يحفر
الأرض المجاورة ويحِثُّ المنخفض المحاصر بين الرابيتين حتى نزل شبح أحد
العابرين ضيفاً عليه. جرَّد جملة من الأثقال وقَيَّد قائمته الأماميتين. حلَّ
المساء فطلع قمر غامض. انشغل الحفيد في إعداد الشاي فقال المهاجر
الوحيد:

- لا تتعب نفسك يا ولدي. آن لك أن تتوقف وتحمد ربك.

حدَّق فيه الحفيد طويلاً. حاول أن يصطاد التعبير الخفي في عيني الزائر.
عينان تنظران في الفراغ وتشبهان عيون العميان. سأل:

- هل أنت عَرَّاف؟

- كل مَنْ طاف الصحراء مهاجراً فهو عَرَّاف. كل مَنْ تعلق قلبه
بالصحراء فهو عَرَّاف.

- سأتوقف عندما أعر على الإرث. جذي رجل جاد. لم يمزح في حياته.
صيته يتردد في كل آهجار.

- جاد. جاد أكثر مما يجب.

- هَـزَأَ بِي . بدل الكنز عثرت على بئر . ما معنى هذا إن لم يكن سخرية؟

- بل أنت الذي لم يفهم الإشارة؟

- الإشارة؟! .

تعلق المهاجر بالقمر . في هيئته خشوع . في عينيه الزجاجيتين فراغ وغموض . قال :

- أوريثك أعظم كنز . وهبك الحياة وأنت تريد كنز الشرور .

ابتلعت الصحراء هاوية السكون . اجتزَّ الجملان فعادا من الهاوية إلى الحياة . تساءل الحفيد :

- هل يمكن أن يضحي جدي بحياته في سبيل أن يبقى بئر في سهول أزجر سرّه الخفي؟ أنا لا أصدق .

- وهل جدك هو الذي وضع الخريطة؟ وعلى كل حال . . .

سكت لحظة ثم أضاف :

- فإن كان فاضلاً فهو بالسرّ عليم . وإن كان شرماً فقد مات بجهله . ولكن هذا لا يغير من الأمر . لقد أهداك أنفـس عطية في الصحراء . فاحمد ربك !

تلملت جمة في صدر الحفيد . صعدت وسدّت حلقة . استأذن الضيف . حمل أمتعته الهزيلة على الجمل . قربتان من الماء هما كل زاده في المشوار الطويل . شبعه حتى اجتاز به الرابية . ودّعه ثم وقف وتابعه حتى اختفى وراء التلال المؤدية إلى «إيديتان» المسكون . شبح جاء من المجهول وغاب في طريقه إلى المجهول أيضاً . عاد إلى كنزه واستلقى بجوار المهري . تابع البدر الجليل وذكرته خيبته بالمعشوقة الحسناء .

كان يهيم في البرية الشمالية بحثاً عن الكلا والمراعي عندما أرسلت في طلبه مع أحد الرعاة الأتباع . نزل في وادٍ يجاور منتجع عشيرتها وتسلل إلى

بيتها في الليل. استقبلته وراء الحباء وجلسا في العراء الرملي تحت ضوء قمر شحيح، شاحب، أخبرته بمصرع الجَدّ ولكنها لم تأت على ذكر الوصية. اكتفت بالتلميح. قالت «يُحسَن أن تمر على معمرتكم العجوز فقد ترك لك عندها وصيته الأخيرة».

سافر إلى عشيرته وتقبل هناك العزاء. وعندما بلغ سن الرشد وأخبرته العجوز الحكيمة بتفاصيل الوصية تذكر إيماءتها الذكية فازداد إعجاباً بها. جميل أن تفوز بامرأة حسناء، ولكن الأجل أن تفوز بحسناء ذكية. لأن الحسن والذكاء معجزتان يستحيل أن تجتمعا في امرأة واحدة. ولم يصدّق أن هاتين المعجزتين مصيدتان للرجل إلا اليوم بعد أن قبض في رحلته الماء بدل هباء التبر. حسن المرأة وسيلة لامتلاك الذهب والفضة، وذاؤها مصيدة لاستعباد الرجل. لا يدري الآن عمّا إذا سبق له أن سمع هذه الحكمة الفظيعة من أساطير العجائز أم أن خبيته القاسية هي التي أوحى له بها.

رأها أول مرة في المرعى. نزلت سهلاً معشوشباً عقب شتاء ممطر. ترافق جمعاً من الصبايا. تهش قطع الأغنام. تطوق خصرها الضامر بلحافها الوردي. صدرها البكر نافر بارز برغم الثوب الفضفاض. شعرها الفاحم مضفور في جدائل دقيقة مشدودة ببعضها في الأسفل عند انسدها على الكتفين. قامتها طويلة كمهرة إبل برغم أنها لم تكمل الثالثة عشرة. وعودها يميل إلى النحول كغزلان الرملة. في عينيها السوداوين الواسعتين فرح وبهجة. أقسم في نفسه: «ستكون لي»، وذهب إلى أمه وفاتحها. ابتسمت وقالت قبل أن تطلبها: «إنها لك». ثم ذهبت إلى أهلها وطلبتها وقالوا لها: «هي له. ما أسعد الصبية إذا فازت بإعجاب الفتيان وهي في سن الثالثة عشر. هي له». فوجيء بها في المرعى تقتحم عليه خلوته وتقول له بجسارة: «أنا لك». ضحك ببلادة ولكنها أعادت: «أعد العدة. هل تظن أن طلب بنات الناس أمر سهل؟ يجب أن تعدّ العدة منذ اليوم». تابعها بدهشة وهي تحصي تجهيزات صبية حسناء من بنات النبلاء: أربعون ناقة أصيلة. عشرة جمال.

هودج مصنوع في «كانو»، ثلاثون رداء من الحرير، خمسة عشر لحافاً من الصوف الجبلي الملون. ثلاث خيم جلدية، وثلاث أخرى من وبر الجمال أو شعر الماعز. و... مصوغات الذهب والفضة. أساور. أقراط. خواتم. قلادات...

انتهت فضحك ببلاهة مرة أخرى. قال: «لم أعر على كنوز الذهب ولم أذهب في غزوة إلى بلاد الأدغال» ولكنها تركته وعادت إلى جمع الصبايا دون أن تعلق على شكواه. و... أدرك أنه ارتكب أول خطأ في علاقته بقرينة المستقبل. عقله اليافع لم يقل له حتى ذلك الوقت أن جنس حواء لا يطيق عجزاً في الرجل. العجائز تقول إن على الرجل أن يظل أمام المرأة في موقف القادر. وحتى إذ لم يقدر فعليه أن يدعي القدرة ويكذب. المرأة تغفر الكذب ولكنها لا تغفر العجز.

وكان عليه أن يتوسل ويستعطف ويبعث لها الرسل كي تتنازل مرة أخرى وتلتقي به في المراعي بعد إهانته الغاشمة في ذلك اليوم. وكان عليه أيضاً أن يتعلم الكذب والكلام الخلو فيهمس لها في أذنها بالوعود. قال إنه سيأتي لها بالصحراء كلها زاحفة على ركبتيها، بكنوزها وثرواتها وإبلها ونبلائها وأتباعها وزنوجها وقوافلها. نفس القوافل التي تعود من تينبكتو وكانو وأغادس بالذهب والحرير والحلي.

ظلَّ يعيد عليها هذه الأسطورة سنوات. وعندما غدر اللصوص بالعجوز، ولقته العجوز المعمرة الوصية بعدها بعامين شلته الدهشة. خرج من خبائها وذهب إلى العراء البعيد وتمرغ في التراب وضحك في ظلمات الليل كجني. ولم يجد غير الضحك يعبر به عن دهشته. فصدّق ما يُقال في عشيرتهم من أن الأسطورة إذا تكررت طويلاً تصبح حقيقة. والآن... الآن لا يستطيع أن يطفىء قطعة الجمر في قلبه بعدما اكتشف أن تلك الحقيقة، التي ظنَّ أن الله كافأها بها تويجاً لصبره الطويل، هي حقيقة مزيفة. والكنز المطمور

في جوف الأرض ليس ذهباً وإنما مجرد ماء! ماذا سيقول للمعشوقة التي صبرت أيضاً وانتظرت هذا اليوم سنوات؟.

لم ينم حتى الصباح.

شقَّ قَبَسَ الفجر البتول خطَّ الأفق. نهض ووضع متاعه فوق المهري. وقف فوق الفوهة طويلاً. وكلما تأمل العنق المرمرى المصقول الذي حفره بأظافره وأزاح عنه ركام الرمل والحجارة والحصى والرماد ازداد في قلبه الحريق. . . فجأة، في لحظة وحي أم طيش لا يدري، تقدّم من الفوهة المجروحة بالحبال واستغلال آلاف السنين. لامس الطوق الحجري الأملس. صعد الفوهة وأقعى فوقها. تدلّى ثوبه الواسع وغطى العنق المرمرى الذي صنعتّه يد سماوية. في محاولة آثمة لإذابة الغيظ وإطفاء الجمر، ضغط. . وضغط، فانهال الغائط في القاع حتى استقرّ في الماء. تراجع القبس واسودَّ الأفق. تعالى نحيب الجنّيات في «ايدينان»، وألغت الشمس رحلتها في ذلك النهار. أقام السهل مأتماً وسقطت دموع كبيرة من مقلتي المهري المسكين.

لم يلحظ الحفيد البائس العبارة المحفورة بالتيفيناغ أسفل العنق المرمرى الإلهي، لأن امرأة آهجارية من النبلاء زرعت في رأسه أن الذهب هو الكثر الحقيقي وليس الماء فصّدّقها.

عاد إلى آهجار.

وصل المنتجع بعد المغيب. مضى إلى خبائها فوجدها تتفرّص في المدخل. ترك المهري بعيداً وتقدّم نحوها. لم تنهض لاستقباله. كأنها تعلم بخبيته. كأن أخباره سبقته إليها. ولكن أهل الصحراء يقولون إن الريح هي التي تنقل الأخبار في الصحراء. أحسّ بغصة. تحرك كوم الجمر وعاد بحرقه من جديد. رشق رمحه بجوارها فنذت عنها شهقة لم يتبّه لها. جلس في الظلمة بجوارها. لم ترحب. لم تسأل. يقيناً أنها تعرف كل شيء. استمرّ الصمت طويلاً. في النهاية قال:

- لقد عدت .

ارتفع ثغاء الجديان في العراء المجاور . قالت :

- أعرف .

خُيِّلَ له أنه التقط نغمة السخرية في اللفظة . غرست في قلبه مديّة .
أحسَّ بالنصل يتسلل في صدره ويلامس رأسه القلب المحروق . قال :
- يا ليتني لم أعد .

لم ترد . كتمت آهة أليمة . أحسَّت بالسائل اللزج يتدفق من العجيزة
ويغمر فخذها .

قال :

- لا أصدّق أن الجدّ سخر مني .

استمر التزيف الحار . تحسست حجرها فوجدته مبتلاً . الثوب في حجرها
كله مبلول .

قال :

- أم أنه القدر؟ ماذا فعلت حتى يسخر مني القدر؟

عمَّ الصمت . استمر الدم يغمر رجليها ثم قدميها و . . يسيل على
التراب فيمتصه الرمل العطشان . حاولت أن تنزع الرمح ولكن الألم ضربها بمس في
الرأس . كتمت صرخة وتنحنحت في كبرياء .

قال :

- أراك ساكئة ، فمتى تتكلمين؟

رأت في العتمة خيط الدم يسير نحوه عبر مسام الرمل العطشان .
حاصرته بسرعة وأهالت عليه التراب .

قال :

- أعرف أني هُزمت ولكن لا تبخلي عليّ بالرأي .

أحسّست بالدوار . ترنّحت مرتين ولكنها عادت واستعادت توازنها . رفعت رأسها في شموخ .

أحسّ الحفيد أن نصل المدينة يغوص . وجهه غسله العرق . ظهره أيضاً . قال بيأس :

- كنت أظن أن هزيمتي هزيمتنا معاً ولكن يبدو أني أخطأت . . .

غالبت الدوار فنهض الحفيد . قال مودّعاً :

- إذا رأيت رأياً آخر فسوف تجديني في الوادي المجاور .

قضى ليلته في الوادي .

في الصباح زاره والدها وقال له إنها نزفت حتى ماتت .

لقد ماتت .

مضت شهور قبل أن يصدّق الحفيد أن ما حدث يمكن أن يحدث . قتلها بيده . برحه . ونزفت بجواره وهو يحاورها عن خيبته ويحاول أن ينتزع من فمها الأمل الذي قتله الكنز المفقود . ولكن الكبرياء أخذتها منه . الكبرياء أقدم مقبرة لأهل الصحراء .

خاب مرة أخرى فهام في البرية . هجر الرعاة واعتزل في الصحراء الشرقية البعيدة . غاب شهوراً فبحثوا عنه . وجدوه هيكلاً عظيماً ينكفيء داخل حفرة في وادٍ عار . فقأت الديدان عينيه وأكلت اللحم على وجهه فبدا بشعاً ومشوهاً .

مات عطشاً بعد أن حاول أن يحفر بيديه بئراً بدل ذلك البئر القديم الذي ورثه في وصية جدّه وأهانه بالبراز . لأن تفكيره في معشوقته ألهاه أن يقرأ التحذير المنقوش بالثيفيناغ على العنق الضيق المصقول بالحبال ، أسفل الفوهة :

∴ > | . [. | . | ∴ ∴

∴ > - | ∴ + ∴ > ∴^(*)

(٨)

استلقى الحاج البكاي إلى الوراء وقال بيأس :

- ازدهرت التجارة وازدهر اللصوص .

هشَّ السلطان ذبابة بمروحة سعف تتدلَّى بسيور جلدية ملوَّنة . قال :

- لا ينبغي أن تغفل عن الناموس . ناموس الصحراء . تجفُّ السماء وتموت المراعي ويعمَّ الجفاف والمجاعة سنوات وسنوات ، نهرع إلى صلوات الاستسقاء وننوّسَل إلى السماء . ننحر القرايين وننعم على السَحرة والعَرافين كي يفكّوا الطلسم . ثم . . فجأة ، تندفق مآقي السماوات وتنهمر بالمطر . تسيل السيول فتجرف البيوت والأنعام وحتى البشر . إنها تختار قرايينها من بني آدم دائماً . كأنها ترفض أن تنازل عن الدين القديم الذي دفناه مع ماضي الظلمات منذ اعتنقت الصحراء دين المسلمين . كأنها تريد أن تقول أيضاً إن الإنسان يموت في كلا الحالين : في الجفاف والمجاعة يموت بالعطش والجوع وفي مواسم الأمطار والحياة يموت بالسيول .

استمرَّ الحاج البكاي يستند بمرفقه على الوسادة الجلدية الحمراء ، بصره معلّق في السقف المجدوك بالجريد والسعف . فمه مفتوح وأسنانه بارزة . انحسر لثامه الأبيض الباهت عن لحية فضية كثيفة . برزت وجنتاه فبدت عيناه غائرتين ، غائبتين في المحجرين البارزين . قال بصوت واهن كأنه يحدث نفسه . كأنه لم ينصت لحديث السلطان أناي :

- لو لم يغدر بي سلطان أهجّار لما حدث ما حدث . نقض الاتفاق وسحب رجاله في آخر يوم . لقد استولى الأوباش على القافلة كلها .

(*) ايغهدن آمان ويغ ، ايديني تكونت دىغ (مَنْ أفسد هذا الماء ، ناله قصاص الصحراء)

[لغة تماهق].

ولكن السلطان أيضاً تجاهل شكوى الضيف وواصل تعليقه بشأن الموت والحياة:

-أردت أن أقول إن الشرّ قد يأتي في الخير، والخير يولد في الشرّ. هل تفهمني؟

اعتدل الحاج في جلسته. ثنى ركبتيه تحت جسده البدين وقال بشقاء:

- دعني أفسّر لك بعض ما حدث يا سيدنا السلطان. منذ سنة ونصف قضى أشقياء بني آوى على قافلة لي عائدة من مرزق. لم أحدثك بذلك في الحين لأنني وضعت كل ثروتي في الصفقة الأخيرة. رهنّت حتى بيت أولادي في غدامس ووضعت الثمن في صفقة العمر. لا أعرف ما الذي جعل التجار اليهود في طرابلس يرفعون أسعار التبر المستورد من تينكتو في ذلك العام. ويُشاع أن الإقبال عليه من قبل التجار في بلاد النصارى هو السبب. جازفت أول مرة في حياتي وخالفت نصيحة ناحوم الذهبية التي كان يروى له أن يرددها أمامي: «لا تضع بيضك كله في سلّة واحدة حتى إذا وقعت السلّة لم يتكسر كله». كان يقول إن هذه تعويذة المهنة وسرّ نجاح اليهود في التجارة. ولكني لم أتحصن بالتعويذة فتمكّن منّي الخصوم والمنافسون القدماء في غدامس. أسأت التقدير فظننت أنهم نسوا العداوات القديمة. نسيت أن الإساءة لا تُنسى، والوحش المجروح يسكن العرين ويتحين الفرصة للانتقام. ما أقوى ذاكرة الإنسان عندما يقرر الانتقام!

ضرب البساط التواني بكلتا يديه وقال بوحشية:

- الله نفسه ينسى الإساءة ويغفر، ولكن الإنسان لا ينسى ولا يغفر!

تمتم السلطان:

- استغفر الله!

ولكن التاجر الشقي لم ينتبه ولم يستغفر. استمرّ يقصّ تفاصيل المكيدة:

- أول ما فعلوه أنهم اتحدوا . ثم بعثوا برسول يحمل بالهدايا إلى الزعيم «ايتسي» في آهجار وحاولوا إغراءه بالتراجع عن الحماية ورفع اليد عن قوافلي . ولكنه كان نبيلاً فأعاد لهم الهدايا مع الرسول وأجابهم أن الموت أهون من الغدر، والوفاء للعهد لا يشتري بالمال . وما أن مات الزعيم الجليل في العام الماضي حتى أعادوا الرسول محملاً بقافلة من الهدايا مستغلين حداثة عهد ابن أخت «ايتسي» بالزعامة وبالحياة وجهله بالمواثيق ونواميس الصحراء فعاهدهم وسحب المقاتلين لترك القافلة غنيمة للصوص...

رفع نحو السلطان وجهاً شاحباً موسوماً بالتجاعيد والغصون . بدا أنه شاخ في لحظة . قال بصوت فاجع :

- ضربوا ضربتهم . غاصتِ الطعنة في قلبي حتى النصل . حجز المرابي على البيت وطرده أولادي . امرأتي وأولادي في الشارع . أبناء الحاج البكاي ، أثرى تجار الصحراء ، يتسولون في أسواق غدامس . هل تصوّر يا سيدي السلطان أن أمراً كهذا يمكن أن يحدث في أقل من شهر؟

هزّ أناي عمامته السوداء موسياً فواصل الضيف :

- أنا الآن مطوق بالديون . لن أستطيع أن أزور حتى أولادي لأن الوالي العثماني يريد أن يزجّ بي في الحبس تنفيذاً لحكم القاضي . لن أستطيع أن أعود إلى غدامس لأن في ذلك نهايتي . إذا حبسوني فلن يطلقوا سراحي . سيظهر القاضي إفلاسي ويشمت بي الخصوم الأوباش . دعنا الآن من الكبرياء . لأن التجار وحدهم يتنازلون عن هذه الخرافة عندما يصل النزاع إلى برزخ الحياة والموت . عندما يهدد التسول الأطفال فلا يبقى للكبرياء معنى . ولكن لم يبق لي ما يمكن أن أتنازل عنه أصلاً . هل تفهمني يا سيدي؟

ارتجفت أصابعه وانهار إلى الوراء مرة أخرى في حين ظلّت ركبته مثنيتين تحت بدنه البدين . حدّق في الفراغ ودارت عيناه في محجريهما كأنه يحتضر .

تابعه السلطان بدهشة دون أن يكف عن مطاردة الذباب بالمروحة المطرزة بالجلد والسيور. وفي لحظة أغمض عيناه وغاب، وعندما فتحهما رأى «أناي» فيهما بريقاً مدهشاً يتلألأ تحت ضوء النافذة العالية المثلثة الأضلاع التي تجاور السقف. انسابت الدموع في خيطين كسولين فاضا من المحجرين الغائرين وتسللا وغابا خلف طرفي اللثام الملتف حول الرأس بإهمال.

لأول مرة يرى «أناي» رجلاً يبكي.

(٩)

المساء . . .

انطفأ خيط الضوء في الأفق فتشجعت السماء وتحررت من الحياء. زحفت في الظلمات والتحت بالصحراء في طقوس العناق المحموم. ولا يحلو للسما العاشقة أن تغازل الصحراء إلا بعد أن تجلدها في النهار بسياط النار. كأنهما رجل وامرأة لا يطيب لهما الحب إلا بعد تبادل صنوف العذاب. وكلما كان عراكهما بالنهار قاسياً طاب لهما الالتحام في فراش الليل. فيلفح أحدهما الآخر بالأنفاس الحارة، يتدفق من جسديهما الصهد والعرق. يتوقف الغبار ويركع القبلي. يسود الصمت كأن الفناء قد حلّ. تتوجّع النجوم وتنحني فوق صدر الأرض. تقترب من أثناء الصحراء وتلثم الحلمة القديمة التي حفرتها إنقاذاً للتائهين الذين ضاعوا منذ خرجوا من واو المفقودة وأصبحوا منفيين أبديين. ولا ينتبه للطقوس المعقدة سوى العرّافين السحرة؛ فيهرعون لقراءة الرموز في معاجهم المعلقة في الجسد السماوي الخفي، فيعرفون سرّ الأجنة قبل أن يهجروا مستقرهم في بطون الأمهات.

ولا يتوقف اللهاث الصيفي إلا عندما يشق القبس الأفق إيذاناً بانفصال الجسدين وإعلاناً عن بداية جديدة لطقوس العذاب الأبدي. تشهد الصحراء

ميلاد خيط الفجر البكر، ويبقى خيط المطر الحلم الوحيد الضائع في مخدع
العاشقين.

(١٠)

اجتاز مرأً معتماً يعزل جناح الأميرة عن قصر السلطان.

وجدها تقبع في الزاوية. تضع على رأسها وشاحاً أزرق مشبعاً بالنيلة.
تدلىّ الشاح على الوجنتين فصبغهما بزرقة خفيفة. غطت منكبيها بلحاف
أسود مشبوك من الأمام، فوق الصدر، بمشبك ذهبي سباعي الزوايا.

نهضت لتحيته. جلس بجوار الجدار وسط وسائد الجلد الملون ومساند
الوبر المحشوة بالتبن وخرق القماش.

أسدل طرف لثامه العلوي على عينيه وصمت. سكنت الأميرة أيضاً
وانكفأت فوق الرموز الغامضة التي نقشها صناع النسيج على الفرشة التوتية.

اخترق خيط الضوء البكر فتحة النافذة العالية المثلثة الأضلاع مبشراً
بشروق الشمس. بدأت واو تصحو وتبدأ في ممارسة يوم آخر من الحياة
والزوال. علا صوت مطارق الحدادين في رواق الذهب واستقبلت الأسطح
النساء والخدم، ودبّ العبيد والأتباع في الممرات والشوارع والأسواق.

جاءت الجارية بصينية نحاسية دائرية صُفّت فيها كؤوس الشاي.
وضعتها على مسند خشبي مثبت في الجدار، وصبّت السائل في الكأسين
ففاتحت الدار برائحة الأعشاب البرية. قدمت لهما شاي الأعشاب ولكن
السلطان لم يرشف من كأسه. وضعه على الفراش الأحمر المنقوش برسوم بارزة
بيضاء وسوداء وقال أخيراً:

- ذلك كان سيحدث. هو نفسه كان يتوقع ذلك. صدقيني.

الأميرة أيضاً لم ترشف. وضعت الكأس على الفراش قبل أن تتمتم:

- ليس عجباً أن يموت الإنسان، ولكن المؤلم هو أن يموت ميتة فاجعة.

شدّت الوشاح حول رأسها وأضافت:

- السّم!

- أنا أخالفك. إذا كان عليه أن يموت فلا معنى للكيفية التي يموت بها،

بالسّم أم بالسيف!

انكفأ فوق الرموز وأضاف بحزن:

- قلت لك إنه يعرف أن هذا سيحدث. فمنذ أن قدّم أول التنازلات

انفاذاً للمملكة الصحراوية العظيمة من الزوال، بدأ العدّ التنازلي لسلطانه.

لم يقل لي ذلك حرفياً ولكنه أوماً مراراً. قال لي أيضاً إن الرجل النبيل لا

ينبغي أن يتراجع أبداً. الرجل الحقيقي إذا فعل ذلك مرة سار في هذا الطريق

إلى الأبد، حتى يجد نفسه قد تراجع عن كل شيء. وإذا تراجع عن كل شيء

فقد خسر نفسه وخسر بذلك العالم.

صمت مرة أخرى. ثم استمر:

- الرجل النبيل لا يعرف المناورة. وهي حكمة مستعارة من أنبيى ولكن

المرحوم في ذلك اليوم دعمها بأساطير كثيرة سمعها من المشايخ والمعمّرين

الحكماء. وعزاؤنا أنه لم يهادن زعماء الأدغال حباً في اكتناز الذهب.

- ولكن هذا ما يجري على ألسنة الناس.

- لا تصدّقي ما يجري على ألسنة الناس. لقد تنازل وضخّي بنبل

السلاطين وكبرياء المثلثين في سبيل المملكة الصحراوية الفريدة. في سبيل

تينبكتو. في سبيل واو الضائعة التي نُفينا منها يوماً ونحلم جميعاً في أن نعود

إليها يوماً.

- ولكن الحلم لم يتحقق. وتينبكتو لم تزدهر ولم تتحوّل إلى واو برغم

التنازلات. لقد استولى عليها زعماء بامبارا بالذهب أيضاً. بنفس المعدن

الممسوس الذي رأى المرحوم أنه سيكفل لتينبكتو الازدهار لتصبح واو الموعودة.

- الباقي على الله . أمّا واجب المؤمن فهو الإخلاص في العمل . ولا أظن أن ثمة مَنْ يجسر على الطعن في عمله البطولي .

- طعنوا وما زالوا يطعنون . هل نسيت شيوخ القادرية في تينبكتو الذين جاهروا له بالعداء؟

- لو لم يكن متساعماً حليماً لما تجرأوا . هذه تهمة تُحسب له لا عليه . الحلم مزية ندر مَنْ تمتع بها من سلاطين تينبكتو .
- الناس يتغنون بالسلطان همّ .

- الناس يتغنون بال دراويش لا بالسلاطين . همّ درويش . مرابط ولم يكن سلطاناً في يوم من الأيام .

رفعت نحوه وجهاً شاحباً وعينين حزيتين . قال بجسارة . :

- يُقال إن خلافاً مع المرحوم كان بسبب العم همّ . ساعني ولكن يُقال إنك اتهمته باغتيال العم المهاجر في البرية .

- لا تصدّقي ما يُقال .

- أعرف أنك تكره نبش المكائد .

- أكره نبش الماضي .

رشف من الأعشاب وأعاد الكأس إلى الكلمة .

- لا أفكر إلا فيما من شأنه أن يساعد في بناء واو . سنبنى مملكة أخرى أعظم وأقوى في أزجر . وسيعرف المجوس أنهم لم يحققوا نصراً باستيلائهم من جديد على تينبكتو . لأن تينبكتو هي «واو» . و«واو» لا تموت ، ولا يمكن الاستيلاء عليها ، لأن لها ألف روح . ولأنها خالدة ونحن زائلون .

تهدّجت نبرته فجأة وأخفى عينيه بطرف اللثام كما يحدث مع شهود العيان عندما يأتون على ذكر الواحة الموعودة . بل إن هذه الرجفة المقدسة تعترى كل

الحالمين بالثور على المدينة المفقودة.

ولكن السلطان كان يتابع وميضاً آخر في عينيها. الحزن. ليس الحزن الذي يولد بين يوم ويوم. حزن آخر. قديم. طويل. جليل. والزمن هو الذي وهبه القداسة وحوّله إلى شقاء. على المجبولين على الحزن يجيئ شقاء وضياء. فكيف استطاع الولد الجليل التائه أن يستلها؟.

ولكن السلطان يعرف أيضاً أنه لن يستطيع أن يعزيها حتى لو طلبت ذلك. لأن الإنسان إذا تعلّق بإنسان آخر عجز العالم كله عن التدخل للعزاء.

شَقَّت الشمس البتول قلب الدار برسول من نور، فاخترق العتمة وشقها إلى نصفين. عند حذاء الجدار المقابل سلط مثلث الضوء فانكسر إلى شقين: السفلي سقط بزوايئيه الأفقيتين على الأرض، فوق الفرش، في حين تسلقت الزاوية العمودية من المثلث الجدار في شقاوة وكبرياء. تابع السلطان بفضول حبل النور وهو ينهمر بذرات غبار، تتلامع بإغراء، فوق رأس «تينيري»، فتخيّل هباء التبر اللعوب، وهو يراقص، عندما يهب النسيم.

(١١)

لم يُشاهد الماء في البئر منذ نزل الوافدون السهل وبدأوا في استنزافه لبناء مدينتهم. وأجمع العقلاء، يؤيدهم الرعاة الحكماء، منذ البداية أن التراجع سيستمر إذا استمر البئر في استقبال قوافل التجار وإبل الرعاة وامداد بناء «واو» بحاجتهم من الماء بشكل سوف يهدّد السهل بالعطش. وعندما أفضى الزعيم لـ «أناي» بمخاوفه في الشهور الأولى لتأسيس المدينة تنازل السلطان وحوّل قوافل كثيرة إلى بشري سردلس و«العطشان» لإرواء القوافل والتزوّد بالماء اللازم لمواصلة رحلاتها. كما خصص فريقاً من زوجه لجلب المياه من البئرين دعماً للبئر في محنته التي لم يكن البنيان سببها الوحيد، ولكن غبار القبل هو الذي ضاعف الاستنزاف، فبدت التحصينات التي بناها «أوخا» على الفوهة بائسة ودخيلة على الطراز المعماري القديم. أكل الماء الطين

المخلوط بالخصى والسبخة الحمراء فتداعت الحجارة وترنح الحصن المستدير الذي يشبه عمامة كثيفة على رأس مكابر!

وإذا كان صقل الفوهة يعود إلى أنواع الجبال الثلاثة، المفتولة من الليف والحلفاء وشعر الماعز، فإن صقل الجابية الصخرية للمساء يعود إلى الماء ويكشف عن العمر الطويل في الاستعمال، ويؤكد حكمة وردت في أنهى يروق للرعاة أن يرددوها كلما وردوا إلى البئر لإرواء إبلهم: «الحجر أقوى ما في الصحراء ولكنه يتفتت بالماء. الماء، إذن، أقوى من الحجر، وهو أقوى ما في الصحراء». وفي رواية أخرى أن النص الوارد في أنهى قد خصّ الرياح بالذكر بدل الماء، ولكن شاع شبه اتفاق يميل لإيثار الماء على الرياح.

يَرِدُهُ الرعاة بالإبل في قطعان جماعية من جهات الصحراء الأربع. يتعارفون، يتسامرون، ويسخرون الليلة للقرعة وأغاني «أساهغ» ومواويل المهاجرين الحزينة التي تتحسّر دائماً على منفيّ شقيّ عاش في الصحراء طلباً لـ «واو» ولكنه مات دون أن تفتح له أبوابها. وفي الفجر يبدأ من ابتسم له الحظ ووقعت عليه القرعة بإرواء قطيعه. ويُقال إن بئر السهل هو الوحيد في أزجر الذي ترده الإبل المفقودة. ويؤكد الزعيم ذلك فيروي كيف طاف الصحراء كلها بحثاً عن ثلاثة جمال ضاعت له في شبابه، حتى اضطر أن يلجأ لأحد الفقهاء المشهورين في واحة «آدرار» فكتب له حجاباً في ورقة صفراء متأكلة الأطراف دسّها في قطعة قماش ملوثة بالدهون بعد أن استولى منه على قطعتين فضيتين، ونصحه أن يتوجّه حالاً إلى سهل آكوكاس لأن ملك الجن أخبره أنه سيُعْقِلُ له جماله هناك. وعندما عثر على الجمال في مراعي الطلح المجاورة وقع في الوجد وأصيب بالدهشة تعجباً لمواهب الفقيه إلى أن التقى براع عجوز كشف له السرّ. حدثه بالمعجزة بجلال لائق عندما جلسا تحت ضوء القمر لتحضير شاي العشاء فضحك الراعي الحكيم حتى استلقى على قفاه ودمعت عيناه. ثم مسح دموعه وقصّ عليه قائلاً إن جميع الرعاة في أزجر يردون البئر عندما تضعي جماهم. وربط هذه الأعجوبة بقصة اكتشاف البئر

وكيف عاقبت الصحراء الحفيد الأبله عندما أهان الماء ليشفي الغليل المجنون الذي لا يستولي إلا على المسوسين الباحثين عن كنوز الذهب. وانتهى إلى أن الفقيه المزيف استغل جهله بكرامات «البئر المرباط» وسلب منه القطعتين الفضيتين بالمجان.

(١٢)

في العراء المحاصر بين الرابتين، حول الفوهة، ينتشر الجبل والبحر ويزحف حتى يعتلي السفوح، ينزل الروابي ليستقر في المنخفضات الأخرى حيث تعود الرعاة أن يربطوا بقطعان الإبل عبر أجيال. يتغنون بالمواويل الحزينة عن واو الضائعة ويتظفرون، في صبر، دوراً ألزمتهم به «القرعة المقدسة». ويتناقلون في السهل فصصاً قاسية حدثت في الماضي أثناء الانتظار.

في أعوام الجذب يزدحم السهل بالقطعان حتى يقبض بالإبل والمواشي والقوافل التجارية العابرة. ويرجع اختراع القرعة إلى تلك السنوات القاسية. وهي تقليد حكيم سنّته تجارب طويلة من الفوضى شهدها البئر عراقاً على الماء قبل أن يهتدي العقلاء في الصحراء إلى المبدأ النبيل. وكما يحدث دائماً فإن التجربة لا تستحيل إلى تقليد إلا إذا دخلت الكتاب الحكيم ونُسبت إلى «أنبي» الضائع، فلكي يقتنع العوام والمتوحشون من الرعاة بفضائل القرعة رَوّج العقلاء خرافة تقول إن تعاليم «أنبي» هي التي تشجع على اللجوء إلى هذا المبدأ. وقالوا أيضاً إن إرادة القرعة هي إرادة القدر، وإرادة القدر هي مشيئة المجهول. واخترقوا الخرافات وابتدعوا الأساطير لتأييد دعواهم، وما لبث العقلاء أن صدّقوا هذا الادعاء كما صدّقوا، من قبل، ادعاءات كثيرة اخترقوها بأنفسهم ونسبوها إلى «أنبي» دون أن يقدر أحد أن يميّز بين ما هو أصيل من حكم الكتاب وبين المأثورات المزعومة والدخيلة التي نسبها إليه أهل الصحراء فيما بعد.

ففي ذلك العام البعيد شهد البئر موسماً مشهوداً من مواسم الجذب.

تزاومت القوافل فوق الفوهة واحتكم الرعاة إلى القدر وحكموا القرعة . كانوا يسحبون حاجتهم من الماء طوال النهار، ويستنزفون الحلمة المسكينة، اليتيمة، المعطاءة، حتى آخر قطرة لإرواء الإبل البائسة التي كُتب عليها أن تعاني، إلى جانب غياب الغيث، لعنة أخرى: ماتت الحشائش وجفّ الندى من النبات البري ولم يبق سوى شجيرات صحراوية شاحبة في بعض الوديان . هذا ساهم في إضعاف مقاومة الحيوان الوحيد، الصبور، القادر على أن يقاوم العطش ويصوم عن الماء شهوراً كاملة . وكان الرعاة يخفون حزنهم على جماهم العجفاء بأغاني «أساهغ» محاولة منهم في التعبير عن التعاطف مع الأصدقاء، وشكوى مكتومة ترتفع مع النغم الشجي، الشقي، إلى المجهول علّه يتدخل ليخفف اللعنة ويتوسط لدى السماء .

ولكن حلمة الحياة كانت تجفّ قبل أن ينتصف النهار فيضطر الرعاة أن يتركوها ويصبروا، وينتظروا، حتى صباح اليوم التالي كي يمنحوها الفرصة في الليل لتسترجع عافيتها وتستدرّ حليب الحياة من جديد .

استمر تدفق القوافل واستمر تراجع الماء في باطن الأرض، واضطر حكام الرعاة إلى تمديد مهلة الاستنزاف من ليلة إلى ليلتين متاليتين، ومن ليلتين، إلى ثلاث ليالٍ كاملة، ولم يلحظ أحد كم مضى من الزمن على رباط ذلك المهاجر الوحيد، النحيل، الذي يرافق مهرية أصيلاً، ضامراً، أبلق، حفر الجذب في جسده أخاديد عميقة، فاختفى سنامه وبرزت عظام صدره النحيل . كما لم يعرف أحد ما إذا كان من أولئك الرعاة الذين دفنوا قطعانهم في الصحاري المجاورة بعد أن قضت عليها المجاعة والجفاف، أم أنه عابر سبيل . وقال الرواة إن بنته النحيلة وقامته الغامضة تشبه عفاريت «ايدينان» وبشرته الشاحبة، الخضراء التي تشبه لون الأموات، من الدلائل التي تشير إلى أنه من سكان كهوف تاسيلي أو «تادرارت»، فهم وحدهم في الصحراء ينفردون بهاتين الميزتين: نحول الجن وغموضهم، وبشرة الموق وخضرتهم . ويؤكد أحد الرعاة الشيوخ أن المهاجر وصل في نفس ذلك اليوم المشؤوم الذي

شُحَّت فيه آخر قطرة ماء وبدأ حكماء الرعاة في إنقاذ الوافدين الجدد باستنباط الثرى من قاع البئر. وقف يتفرّج على الجَمْع، ولم يتقدّم لنيل نصيبه من حفنة التراب إلّا عندما استدعاه شيخ الرعاة. وضع له الحفنة في وعاء السرج المخصص للماء وعرفه براع زنجي مارد وقال له إن القرعة حكمت بأن دوره سوف يليه في الطابور الطويل. وقف طويلاً أمام الشيخ يتفرّج على الصينية النحاسية المطلية، في الباطن، بالقصدير الأبيض، كأنه يؤدّي طقساً سحرياً مستجدياً شفاعة السماوات. قال العجوز في نفسه: «آه. إنه الكبرياء القديم»، ثم تقدّم من المهاجر وابتعد به عن الجمع وقال له:

- لا معنى لذلك اليوم. انس كل ما تعلمته في القبيلة وامضغ التراب قبل أن تشرق الشمس ماءه. الشمس تمدّ أصابعها وتلاحق حتى القطرات المدسوسة في الثرى.

ولكن المهاجر لم يلحق التراب الندي. ذهب إلى العراء المشرف وانتظر دوره. ويُقال إنه قدّم طبق التراب إلى مهره الأبلق، كما دأب على ذلك طوال أيام الانتظار.

ساء حال الحلمة ولم تنزف في ليلتين متتاليتين سوى قطرات بائسة. يرس الرعاة وغامر الكثيرون بالبحث عن الحياة في أقرب الآبار. سافروا إلى بئر العطشان الذي يقع على مسافة ثلاثة أسابيع شمال غرب «سردلس». ولم يستغرب أحد فشل المجازفة. إذ بلغ السهل نبأهم فيما بعد مفيداً بهلاك أغلبهم.

مكث المهاجر في السهل.

يهجع تحت الطلح الميت في الوديان الشرقية حتى الزوال. ثم يقود جملة من رسن بائد مفتول من شعر الماعز، ويطوف تجمعات الرعاة. ولا أحد يعرف لماذا يفعل ذلك. وقد قام إليه شيخ الرعاة واستوقفه ثلاث مرات ليحثّه على الصبر ومجاهدة شيطان الكبرياء، ولكن الطيف الأخضر لم يلتفت إليه في

المرات الثلاث، واستمرَّ يشقُّ طريقه في زحام الإبل وقطعان الماعز حتى يبلغ الروابي المطلة على الوديان. يفكّ زمام المهري ويطلق سراحه ليرعى في الطلح اليابس ويستلقي في العراء، متوسداً السرج. يراقب الفضاء كأنه ينتظر تألق النجوم ليناجيها بتعاويد العرافين السرية كي تدرّ الماء في البئر. سخر منه بعضهم، ولكن صمته وغموضه وبشرته لم تشجعهم على التهاذي فانصرفوا عنه وتجنّبوه.

اشتدت المحنة وبدأت القطعان تهلك عطشاً. شحّ البئر ولم تعد القطرات التي يدرّها في الليالي تكفي للشرب، فأوقفوا إرواء الدواب وبدأوا في توزيع الجرعات على ثلاث فترات: واحدة في الأصيل، ثم عند حلول القيلولة، والأخيرة مع العشية. استمر الصهد والقبل واستمر تقاطر القوافل على البئر فاضطر الحكماء إلى اختصار حصص الماء إلى فترتين، ثم اقتضى الأمر إلى الاقتصار على مرة وحيدة في الأيام التالية.

هلكت القطعان.

رفض الفرسان نحر مهاريهم فتعقّنت الجثث وسعت في السهل الديدان. سكن النسيم فخيّمت العفونة والروائح الكريهة فدارت برؤوس الرعاة وأصيب الكثيرون بنوبات قيء وإغماء. قام العقلاء فنحروا قرابين سخية ولكن ذلك لم يخفف من قساوة الشمس، فازدادت تسلطاً وشراسة مع سكون الهواء، واستمرت تلهب الجسد الصحراوي البتول بسياط النار. تتوقف أنفاس الصهد في القيلولة لتواصل صهر الكائنات في العشيات. في إحدى تلك العشيات شاهد الرعاة المهاجر المكابر يجرّ المهري ويتجوّل بين الروابي. يجمع بعر الإبل في الغرائر. لم يستطع الفضوليون أن يمنعوا أنفسهم من ملاحظته. حتى العطش، حتى الموت نفسه، يعجز أمام فضول بعض الناس. ولا يُستبعد أن يوجد عدد منهم على أبواب الجحيم في يوم الحشر. تابعوه خفية إلى الرابية فوجدوه يطرح كرات الجلّ على بساط السرج ويفرّكها ليستخرج منها حبيبات الشعير. ولم يخفوا دهشتهم كيف استطاع هذا

الشیطان، الغامض، المقنع بمسوح الأشباح، أن یتهدي إلى هذه الحيلة. وما أدهشهم لیس مواهب المهاجر، ولكن حصوله على طعام نفیس لمهریه فی الفضلات هو ما أثارهم وأيقظ فی نفوسهم الحسد. فلم يتوقع أحد أن فضلات سنوات الرخاء یمكن أن تحفی جواهر تكفی لإطعام الدواب من جوع سنوات الجذب. وكلما فرغ من غرارة تسكع فی السهل وملا أخرى. یطرحها على البساط ویلتقط منها الحبیبات النفیسة. یفرکها بین یدیه الشاحبتین، المیتتین ویقدمها لصدیقه الضامر. جاءه رفاق السهل لیستضيفوه بالشای الأخضر، ولكنه رفض بکریاء وقال إنه لا یشرب الشای. زاد ذلك من فضول بعضهم وأثار غیظاً فی نفوس البعض الآخر، وأكّد آخرون أن الضیف الغریب جتی حقیقی نزل من «ایدینان»، أو أقبل من كهوف تاسیلی. فلم یحدث أن سمع أحد فی الصحراء الکبری کلها بصحراوي لا یشرب الشای الأخضر. عرف أهل الصحراء رجالاً لا یأکلون اللحم، وآخرین لا یعاشرون النساء، وفريقاً یصوم حتی عن الطعام ولا یقات سوى الأعشاب، ولكن لم یحدث أن رأوا فی هذه القارة العظيمة رجلاً لا یتلذذ باحتساء شراب الفردوس. السائل الخرافي الذي یشبهه الصحراويون بشراب واو الموعود. ولم یذوقوا طعماً لشراب یوازیه متعة منذ أخذ الجذّ الأول أوراق النبتة السحرية من «واو» ودخل بها الصحراء. اتخذہ الأحفاد غیمة لا تفارق متاعهم. یحضرونه فی طقوس جلیلة، فیزیل شقاء الطريق ویشفی من وعشاء الأسفار. یرى الصداغ وینفع البرد والحر. یمسح الهمّ والألم ویشحن النفس بالفرح والوجد. یسمّ المسافر رائحته على مسافة یوم ونصف فیتهدي بها إلى النجوع لینجو من العطش والموت. فمنّ یجسر فی الصحراء ویتنازل عن حصته من شراب الفردوس؟ کیف لا یظن الرعاة أن المهاجر جتی ممسوس، أم شیخ مبعوث من دنیا الموق إذ رأوه یرفض الشراب الوحید الذي بقی لهم من واو الضائعة.

أخبروا حکیمهم فأخفی دهشته تحت عمامته السوداء وسکت. ذهب إلى

ضيفه فوجده يداعب مهرية الأبلق . لاحظ شيخ الرعاة أن البقع البلقاء في جسم الجمل ليست العلامة الوحيدة المثيرة في هذا الحيوان النادر، ولكن في عينيه رأى سرّاً لم يره في عيون أذكى المهاري . عينان كبيرتان، سوداوان، ذكيتان، تنطقان ببريق خفي كأنهما عينا إنسان . بل إن شيخ «رحاة أيقن في تلك الأمسية أنهما عينا إنسان . فيها يشعّ بريق، في العتمة، أقوى مما تنطق به عيون الناس عادة عندما تنوي أن تبوح بسرّ.

قال الشيخ وهو يتقرفص أمام الغريب ويعدلّ من وضع عمامته :
- لماذا رفضت أن تشرب الشاي؟

...

- البئر شحيح والقوافل تتوافد . الشاي يشفي من العطش ولا يرفضه إلاّ جنيّ أو ممسوس .

- لم أذقه يوماً .

- لا أصدق !

...

- لم يولد في الصحراء منّ لم يذق من شراب وائنا المفقودة .

...

- اليوم لن نحصل على ماء .

سكت ثم أضاف وهو يحاول أن يصطاد نظرات ضيفه في عتمة المساء :

- ولا على الطين !

استمرّ المهاجر يحثّ الأرض بسبابته ويرسم رموزاً بالتيفيناغ ثم يعود فيسحونها ليكتبها من جديد . يشّ شيخ الرعاة من الرد فواصل الاستفزاز :

- قالوا لي إنك أعطيت الطين للمهري واقتسمت معه الماء أيضاً . لا

يدهشي أن يكرم الفارس مهرية ولكن مصيبتنا في الماء تفوق التصوّر .

سنموت . سنموت . الجمل يتحمّل شهوراً بلا ماء ولكنك لن تصبر يوماً واحداً بلا ماء .

لم يحب المهاجر فصاح الراعي :

- ما فعلته إثم يعاقب عليه العقلاء في الصحراء . فَمَنْ أَنْتَ؟ مَنْ؟

لم يتكلم المهاجر، لم يتنسم . غاب في رموزه وإشاراتهِ المرسومة على التراب .

شرح العجوز:

- إذا نضب الحليب في حلمة الأم نهش الطفل الحلمة . وكلما تلقى الشدي عضة تألم وتقلص وزاد بخله بالحليب . هذا ما فعله الآن بالبئر . سوف نموت إذا لم تحدث معجزة . صدقني! .

لم يتكلم الرجل . كأن حديث الشيخ لا يعنيه . أحس العجوز بالعبث فيش وانصرف .

في الليلة التالية أجمع الفضوليون أنه أعطى نصيبه كله للمهري . في نفس الليلة بدأ يترنح في خطوه ويثن . ركن إلى السرج وأسند رأسه بالأمته . في النهار، عندما تسلطت الشمس، وقف المهري فوق رأسه ليحجب عنه سياط النار . ظل يسند رأسه بيديه ويتفرج على حركة القوافل في العراء . وقال بعضهم إنه رفع صوته بأغنية أليمة مجهولة قبل أن يسكت إلى الأبد .

وجدوه في الصباح ممددا على ظهره، يضع رأسه بين يديه على السرج، ويحدق في الفراغ، ميتاً . فوق رأسه وقف المهري، يحني رقبته الطويلة ويلثم يدي رفيقه بشفتيه الكبيرتين اللتين تفصد منها زبد حاراً . في عين الجمل رأى شيخ الرعاة شقاء لم يره في عيون البشر . هرع الرجال إلى الجثة في حين وقف الشيخ وراقب الألق الغريب في عيني الحيوان .

قال رجل :

- لو شرب معنا مشروب واو لما مات .

نهره الشيخ فقال آخر :

- مات لأنه أثر المهري فأعطاه نصيبه من الجرعات. مَن امتلك مهرًا
أبلى لا بد أن يموت.

عاد الأول:

- محظوظ مَن امتلك المهري الأبلق..

بصق التبغ وراءه وأكمل:

- .. حتى لو مات!.

راقبهم شيخ الرعاة وهم يشيعون الجثة على الأعناق في طريقهم إلى
المقبرة. صاح خلفهم فتوقفوا. هرول نحوهم وأشار لهم بإنزال الجثمان.
سجّوه على الحصى فأخرج العجوز زمزميته الخشبية من كمّه الواسع. صبّ
قطرات ماء في كفه ومرر راحته على وجه الميت. قلب الزمزية ليستدرّ قطرة
أخرى. أمسك بها في الهواء طويلاً في الوضع المقلوب فوق رأس المهاجر
ولكن الزمزية الصغيرة، المدسوسة في قباط بائد من الخيش، لم تدر قطرة
واحدة. أسرع العجوز يسدّ فوهتها بسدادة الفلين ويخفيها تحت كمّه
الفضفاض. قال بخجل:

- اعتبرونا غسلناه. نعم. غسلناه. جسد المهاجر دائماً طاهر.

وصل المهري. اقتحم الزحمة وشق طريقه إلى الجثمان. انحنى فوق
صديقه وشرع يفتش عن وجهه تحت ثيابا اللثام. تبادل الرعاة النظرات،
وانتظروا أن يشير عليهم شيخهم بما ينبغي أن يفعلوه. وكان الراعي العجوز
يعرف ذلك. أخفى ارتباكاه وقال بصوت مخنوق:
- اتركوه!.

تراجع الرجال. استمرّ المهري يعلق وجه الميت بشفتيه الكبيرتين،
المزبدتين اللتين نبتت في أطرافها شعيرات بارزة خشنة. ثم مدّ رقبته إلى
اليدين وأصابع الرجلين ولثمها أيضاً. رفع رأسه إلى السماء، نحو الشمس،
وجال بعينه الشقيتين في العراء الممتد إلى الأبد وركع بجوار الجثمان. أصدر

خواراً أليماً كأنه ثور. نفث الصوت المدهش من صدره في حين نطقت عيناه
الذكيّتان بالفجيعة.

تمتم العجوز:

- الفارس لا يستطيع أن يملك المهري الأبلق، والمهري الأبلق لن يكسب
الفارس أيضاً. لا بد أن يختفي أحدهما.

نهض الجمل مرة أخرى. حدّق طويلاً في قرص الشمس، ثم ظلّ
الجثان بقامته المديدة وهاجر بعينه الأسرتين في الأفق البعيد، حيث تلالاً
المراب للعب في شاة وشقاوة وإغراء.

وافق الشيخ على اقتراح أحد الرجال فبعثه إلى «تادارات» برفقة قافلة
عابرة. اثار جرب قديم أكلت السيء على الفخذه اليسرى فلم يستطع أحد
أن يتبين القبيلة التي ينتمي إليها صاحبه المرحوم ولكن صاحب الاقتراح
أقنع العجوز قائلاً: «سمعتة يغني بلكنة سكان الكهوف. سكان تادارات.
ثم.. ثم ألا يحدثك لونه الأخضر عن نفسه. وجوه أهل تادارات ميتة.
الوحيدون في الصحراء الذين لا تجري الدماء في وجوههم. أشباح. ألم تر
بنفسك أنه من قبائل الأشباح؟».

أطلقت القافلة سراحه في الوديان العارية وعبرت الجبال الأسطورية إلى
مرزق.

عاد إلى السهل بعد ثلاثة أسابيع.

في تلك الأثناء جاء فارس إلى السهل بالبشارة: نزلت الأمطار في تاسيلي
وسالت وديان كثيرة: تانزوفت، ايفهر ملن، وأميهرو. بعد يومين وصلت
أنفاس المطر فتنفس السهل الصعداء وتراجع الحريق السماوي. نزلت أغلب
القوافل إلى تانزوفت، وبقي العجوز، مع بعض الأصدقاء القدامى، يربط
فوق البئر. خف الضغط والاستنزاف على الفوهة فجادت الخلعة بالماء ودرّت
حليب الحياة. ملأ الراعي الجايبة بالماء ودعا المهري الأبلق للوليمة. وضع

الرسن في خياشيمه وجزه إلى المربع الحجري المائل المبني في المنخفض، أسفل الفوهة، بحجارة مصقولة لامعة. في الجابية تألق الماء تحت أشعة الشمس كألسنة السراب. هبَّت نسائم مغسولة بالمطر فاقترب الراعي العجوز وجلس على طرف الفوهة. ابتسم وقال للمهري:

- بالأمس كان وعداً. سراباً. واليوم هو ماء. ماء حقيقي. تستطيع أن تجرب إن كنت لا تصدق. هيا اشرب قبل أن يغضب منا المجهول ويعيده سراباً كما بالأمس!

المهري الضامر، الغث، الذي ازدادت عظام قفصه بروزاً حتى استحال إلى هيكل متنقل من العظام، المهري الجوعان، العطشان منذ شهور، الذي اختفى في ظهره السنام، رفض في كبرياء أن يشرب الماء. تحمس الطبقة الفضية المتلاثلة، اللعوب، ثم رفع رأسه نحو الأفق.

جاء أحد الرجال. قال للعجوز:

- إنه لا يصدق. سوف أجعله يصدق. هذا الأبله!

شمر عن ساعديه المحروقين بالشمس وثنى سرواله حتى الركبتين وقفز في الجابية. غمر وجهه بالماء بكلتا يديه ثم انحنى وشرب جرعات متتالية. رش ساقى الجمل الأماميتين مداعباً، وفجأة ركع داخل الماء ضاحكاً كطفل، فبل ثيابه الشاحبة البالية. خرج فوجد الجمل قد مضى. ذهب وربط فوق قبر صديقه القديم. قال الراعي العجوز: «هنا سيموت. هنا لن يطيب له أن يشرب الماء. سنبعثه إلى تاسيلي. صاحبه جاء من تاسيلي. الموق الذين لا يجري الدم في وجوههم يسكنون تاسيلي أيضاً. هناك توجد كهوف أقدم من كهوف تادارات».

سلمه إلى أول قافلة عابرة إلى «تامنغت». أوكل لهم أن يفكوا قيده في تاسيلي، فعاد بعد أسابيع أخرى. ازداد نحولاً وذبولاً وبرزت حتى عظام

فكيه . غارت عيناه في المحجرين العظميين و . . . انطفأ فيهما ذلك البريق المدهش الذي أثار العجوز في لقائه الأول بالجمال . في المرة الماضية عندما عاد من منفاه في تادارات بقي في العينين حزن ، ولكن عودته من تاسيلي سلبته حتى هذا التعبير الأصيل ، الكتيب وحلّ في المقتلين الفريدين خواء ، فراغ ، لا مبالاة . ضياع . نعم . ضياع مَنْ فقد شيئاً حميماً ، عضواً من الأعضاء ، جزءاً من الروح ، قلباً حاراً ، ونس من العثور عليه . وعندما ينس أطاع القدر وسلّم بأن يعيش بجوف خاو ، بارد ، خال من القلب . الضياع في العينين من فراغ القلب .

استمر يتشبث بصيامه عن الكلاً والماء . حاول الراعي أن يرويّه مرة أخرى ولكن المهري أشاح بوجهه ورفع رأسه في كبرياء . هاجر إلى الأفق البعيد ، القاسي ، اللانهائي ، ثم تحرك نحو الرابية حيث دفن صديقه . يقف بجوار كوم الحجارة ويرفع نظرة خاوية ، باردة ، مئة نحو الأفق الخالي حتى يزحف المساء . راقبه أياماً ثم ذهب ليحدّثه في ليلة احتلفت فيها كائنات السهل بظهور البدر . قرأ سورة الفاتحة على المرحوم . أتبعها ببعض التعاويذ التي تعلمها من العرافين ، واعتدل في جلسته أمام المهري . نقر بإصبعه على حجر القبر وقال :

- هذا مأوانا كلنا . لا أعرف من أين تأتي ولكني أعرف أننا نذهب جميعاً إلى هذا المثوى . هذا مصري ومصريك أيضاً أيها الأبله فلماذا تعجلّ به إذا كان سيأتي رغماً عنك؟ أبله . أنت أبله ! .

سكت لحظة . أنصت للسكون الصحراوي . متاهة من السكون . رفع رأسه نحو البدر الغامض ، نحو الألواح الجليّة فوق قمم «ايدينان» وقد ضاعف ضوء البدر من غموضها وجلالها . قال :

- هذا وحده يكفي . جمال البدر وغموض الجبل في ضيائه . هذا السكون . استمع إلى السكون أيها الأبله . ألا يكفي هذا كله سبباً للحياة؟ ألا يكفيك

هذا المبرر كي تكون سعيداً أيها الجاحد؟ آ - آ؟ ..

رفع صوته بأغنية شجية . حزينة . بثها حنينه إلى المجهول وفرحه بالبدر المضيء ، حملها بشكواه من قساوة القبلي وسعادته بالنسبات الشمالية المغسولة بأمطار الحمادة الحمراء . شحنها بما يعرف وما لا يعرف عن الصحراء وانتهى فيها إلى أن الحياة جميلة وتستحق أن يعود فيها الأموات من القبور ليعيشوها من جديد .

انتهى من الغناء . سكنت لحظات . تنفس بعمق وخاطب الأبلق الواقف فوق رأسه مثل نصب صحراوي وحيد :

- بالأمس عشنا أياماً قاسية ، هل تذكر؟ تلك الأيام العصبية ذهبت برفيقك ولكن ها قد جاء الفرج وتصدّت الأمطار لجنون القبلي . ثم . . ثم لا تريد أن تفهم أن أحدهما لا بدّ أن يموت؟ لم تعرف الصحراء حتى الآن فارساً امتلك مهريةً أبلق مثلك وكتب لهما أن يعيشا معاً . هل تفهم؟ أحدهما لا بدّ أن يخفي . هل تفهم؟ لا تسألني عن السبب ، ولكن هذا هو الناموس .

تمدّد على ظهره بجوار القبر ، في الناحية الأخرى القريبة من سفح الرابية . أزاح طرف العمامة حول وجهه وحدّق في البدر البهيج ، الوضيء ، بسحنته المستديرة ، الخفية ، الواعدة بالأسرار . حدّق حتى لمعت عيناه بنداوة . أسند رأسه بذراعه وغنى من جديد . أغنية رعوية أليمة من الحان «أساهغ» الفاجعة . استمرّ يشق السكون الجليل بصوته المتعب ، الشقي ، حتى استوى البدر العجيب في قلب السماء ، أغفى . وعندما نهض في الصباح قرر أن يهاجر . الموال الليلي أيقظ في قلبه أشجان المهاجرين الأبديين وأخبره أنه استقرّ في السهل أطول مما يجب . إذا استقرّ الصحراوي في مكان أكثر من أربعين يوماً تحوّل إلى عبد . عبد مثل سكان الواحات والمدن المسيجة بأسوار الحجارة . هكذا يحذّر أنبي .

اعتدل في جلسته وقبّل نحو القبلة ليتفرج على القبس البكر في خشوع

العطية الإلهية التي تفصل بين السماء والأرض وتبشر بميلاد النهار. النور. الحياة. الخيط الفجري الأول يخفي البكارة الضائعة ويحمل ملامح «واو» المفقودة دائماً. ولكنه، ككل الأشياء الأصلية، المجهولة، البتولة، لا يعمر طويلاً. تلاشي السحر وهدد الأفق بالنور الآخر. السليط، المسلح بسياط النار. ارتجفت أطراف الصحراء. كشفت عن صدرها وتهايت لتلقي قصاص الجلاّد.

انتهت طقوس. وبدأت طقوس أخرى.

نهض العجوز. بحث عن الجمل في العتمة فرأى شبحاً مطروحاً على الحصى، في المنخفض، أسفل حجارة القبر. تقدّم خطوات فوجده يستلقي على جنبه الأيسر، يمد القائمتين الخلفيتين في حين ثني الأماميتين بموازاة البطن الضامر. رقبته الطويلة ممدودة نحو الشرق. مغمورة بحبيبات الرمل والحصى. العين اليمنى خاوية، والشفتان انفرجتا عن نابين ناصعين، سال منها خيط رفيع من اللعاب وارتسمت عليهما ابتسامة خجولة، شاحبة، غامضة.

شمّر الراعي عن يديه النحيلتين وبدأ يبيل على الجثة التراب.

في الأفق انبثق أول شعاع مهّداً السبيل للشمس كي تواصل مسيرة يوم آخر.

(١٣)

زحف السور ببطء. التفّ الجناح المتجه شمالاً حول رابيتين في العراء الشرقي وبدأ يعتلي الراية الثالثة، في طريقه إلى البشر. الجناح الآخر تحلّف عن المسيرة بالمقارنة مع قرينه الجسور، وتلخّأ في أطراف السهل الجنوبية. وبرعم حيوية الزوج ومهارة هؤلاء المردة فإن العمل تعثّر في هذا الشق وسار أبطأ من الطرف الشمالي. اضطر أهل التدبير أن يدفعوا بمزيد من السواعد لتقديم الجناح وإيقافه على قدميه لينسجم مع قرينه. ولكن الرملة، التي بناها القبلي في غزواته الأخيرة، استمرت تعرقل المسيرة وتعطل إنجازاً معمارياً حاز،

حتى الآن، ليس على إعجاب سكان السهل فقط ولكن أثار دهشتهم أيضاً. وحتى لا يتورط الجبابرة في تشييد الصّرح فوق الرمال أشار خبراء المعمار ألاّ ييخلوا بجهد أو وقت في حفر خندق يمكن من الوصول إلى تربة صلبة تؤمن للسور أساساً يمكن الاعتماد عليه. ولكن الوصول إلى الأرض الطينية لم يكن سهلاً فتحايلوا وناوروا وحاولوا أن يتجنبوا الكثبان العالية المتناثرة في أقصى الطرف الجنوبي المؤدي إلى فلول معسكر أهل السهل. تعثر البناء وتعرّج امتداد السور حتى وصفه خبثاء السهل بأنه ثعبان أقبل زاحفاً من الأدغال لابتلاع البئر. وقال الدرويش أن شاعرة مغمورة (ولكن موهوبة) نظمت قصيدة في هذا المعنى كي تحمّس رجال القبيلة ليدافعوا عن عرض ينوي جبابرة الأعراب اغتصابه.

واصل الجبابرة التحدي.

تطاولوا في الجدار الجبار ليل نهار. تأتاهم نساءهم بقصع الطعام في حملات منتظمة. تسبقهن الزغاريد الضرورية لتأجيج الحماس. يشعلن لهم النيران ويتطوعن لحمل المشاعل في الليالي الظلماء. وفي بعض الأمسيات القمرء يقرعن الطبول ويعزفن على «امزاد». يرفعن أصواتاً باكية إضافية، فاجعة، تشكو الهجرة الأبدية وقساوة الصحراء لقاض مجهول. تستمر المواويل الحزينة طويلاً دون أن تتوقف سواعد الرجال عن العمل، بل يبدو أن الغناء الحزين يحفزهم ويزيد من عنادهم، ثم تبدأ الرقصات المجنونة المستعارة من قبائل بامبارا والهوسا وبني آوى. وكثيراً ما يتواصل الرقص والتصفيق والزغاريد حتى يكشف الأفق عن قبس الفجر.

خلال هذا الفرح لا تتوقف شخصية فريدة عن السعي هنا وهناك. شخصية وهبت نفسها للمعمار وآلت على نفسها أن تشيّد «واو» جديدة في القارة الصحراوية بدل «واو» القديمة التي ضاعمت أو أضاعها الجّد الأول بضربة حمقاء. كان قصيراً، نحيلاً، خلاصياً انتصر في بشرته اللون الزنجي. يتلفح بزمالة بيضاء، يلفها حول رأسه بطريقة مضحكة أثارت سخريه.

الجميع: يلف طرفاً حول الرأس، ويغطي فكليه بطرف آخر يشدّه إلى الخلف، أسفل الرأس، بعقدة محكمة، ليتدلّ الطرف الأسفل فيغطي الذقن والرقبة، في حين تبقى الوجنتان عاريتين حتى الأذنين. ولم يعرف أحد أيضاً من أين استعار هذه الطريقة الطريفة في لفّ العمامة، برغم أنه يقول دائماً إنه اهتدى إليها بنفسه. هذا المخلوق الصغير، الذي يشبه الجرادة، هو العقل المدبّر لمعمار «واو». جاء من تينبكتو برفقة قافلة والتحق بالسلطان خصيصاً للقيام بالنيان. ويُشاع أن «أورغ» بعثه إلى أخيه بطلب من أناي بعد حصوله على موافقة الزعيم اده للإقامة بسهل أزجر. اسمه «أخموك»، ويُقال إن هذا الاسم كنية واسمه الحقيقي «ايمستغ»^(*). ولما كان الاسم الأخير مهيناً بالنسبة لمخلوق في حجم السنونو فعلاً فقد استخدم اسم «آخموك» حتى لا يصبح رجل في مركزه أضحوكة في بلاد الأغراب. وهي حيلة اعتبرها العقلاء شيطانية، ولا تقلّ دهاء عن مواهبه الشيطانية الأخرى التي رأوا أن إقامة واو في هذه المدة الوجيزة تأتي على رأسها. فلم يسمع أحد في أساطير الصحراء أن مدينة بُعثت من الخلاء فجأة باستثناء تلك المدن التي ساهم الجن في تشييدها. ولم يخف أهل السهل استهانتهم بـ «ايمستغ» عندما رأوه في الأسابيع الأولى للبناء يصلّب يديه وراء ظهره ويقطع العراء ذهاباً وإياباً، يطأطأ رأسه، ويتحسس الأرض بعكاز مدبب العقب ليختبر التربة ويعاين الأمكنة. سخرّوا منه فنهرهم الحكماء. قالوا بلغتهم الصحراوية الغامضة: «السّر في حجمه. لولم يكن خبير المعمار سنونة لما استطاع أن يتناول في بناء القصور المكابرة وأسوار المدن. المخلوقات الصغيرة هي التي تصنع الأشياء الكبيرة. الله جلّ جلاله يحلّ في الماء والهواء. في حبات البذور وذرات الرمال. ضاق به العالم كله واتسع له قلب عبده الصغير». وحذروا الناس من اهزء. وجاء الحق وانحاز إلى صفهم. كأنه كان مكتوباً أن يكون هذا الجنّي الصغير سبباً في بلواهم التي

(*) ايمستغ: السنونو (نماحق).

كلفتهم، بعد سنوات فقط من بداية مهمته، أنفس جوهرة في الصحراء
الكبرى: البئر!

مدّ نحوه لسانين نهمين، شرهين، من حجارة كأنها أحضان غول
خرافي. قرر ضم الحلمة المسكينة إلى مملكته. يقفون كل يوم، صبياناً ونساءً
وشيوخاً، ليتفرّجوا كيف يتقدم الغول نحو الفوهة مجتازاً في زحفه المرتفعات
والروابي والكثبان الرملية. حتى عقبات الطبيعة وعراقيل القبلي عجزت عن
إيقاف مسيرته. يخرجون في مجموعات. يصطفون في طوابير فوق المرتفعات
الغربية. تستقلّ النساء في طابور، ويفصل الرجال والشيوخ في طابور آخر.
يعتزل الصبيان في جانب، ويختارون أحد الأطراف، ليكونوا حلقة أو طابوراً
مستقلاً. ييمون صوب واو، ويتابعون عملية السلب في خشوع، وحزن،
واستسلام. بعضهم بلغ سن الرشد وتوجّ رأسه بعمامة متواضعة، متوسطة
الحجم، بيضاء. والبعض الآخر ما زال حاسر الرأس إلا من فروة شعر
مقوسة تشطر الرأس إلى نصفين صانعة تسريحة طريفة مثل عرف الديك.
يروق للمعممين أن يميلوا برؤوسهم المتوجة إلى أقرانهم المعممين ليهمسوا
بتعليق ملح، ولكنهم يترفعون عن محادثة الحاسرين ويعاملونهم بالكبرياء
والاستصغار. بينهم تسود لغة الصمت.

في الأطراف القصية، المجاورة لـ «ايدنان» الخفي، تلوح أشباح الرجال
دائماً. ينقسمون هناك إلى مجموعتين: يتوسّط الزعيم تجمع الشيوخ والعقلاء،
ويليهم، بعد خطوات، تجمع يتوثب ويتوق دائماً للاحتكام للقوة، ولكن
يبدو من بعيد أن الفريقين يلتحمان في طابور واحد. في الوسط، فوق
الروابي العارية، المعمة بطبقة من الحجارة السوداء، المحروقة بحمم بركانية
قديمة، ينتشر كل يوم، منذ الصباح، أشقى الطوابير الثلاثة. يتشحن بالحفة
سوداء ويتكاثفن في كتلة واحدة حتى يصبح جزءاً من فروة الحجارة، من
العمامة البركانية القائمة التي تلف رأس الرابية. يتشبث الأطفال بأطراف
الأردية، التي تلامس الأرض، ليشتكوا من غزوات الذباب بلغتهم الطفولية.

المتعثرة. يتصدّر الجمهرة بعض العجائز المكابرات. يتوكان على عكاكيز الصدر، يسندن أجسامهن النحيلة المقوسة إلى الأمام. يرفعن وجوهاً ممصوفة بصمها الزمان بغضون عميقة ووسم القبلي بشرتها بلون نحاسي. وخروج العجائز من المضارب أعطى للمظاهرات الصامته جلالاً خاصاً وأقلق الحكماء الذين آمنوا بأساطير «واو» القائلة إن العجائز ركاتر البيوت، وإذ أجبرن على الخروج إلى الساحات أو العراء ففي ذلك علامة تقرب يوماً تتقوَّض فيه البيوت.

يفصل بعض النسوة عن الجَمْع وتسللن لجلب الماء. تملأن قريباً بدينة تعلّقنها على الرؤوس بعد لفّها بعصابة من القماش أو الخيش أو أعقاب الأكياس القديمة، حتى لا يشجّها الحبل، وتعدن وهنّ تتعثّرن في خطواتهن ويجاهدن كأنهن تردّن البئر آخر مرة. الوجه يغسلها العرق وفي العيون شقاء.

في إحدى هذه التظاهرات فقدت امرأة خلاسية صوابها فاعتدت على الرجال. كانت فرعاء في العقد الرابع. يُقال إنها تتعاطى الشعر في الخفاء. مات زوجها في غزوة شيخ الطريقة التأديبية ضد بني أوى. غلبها الحزن فهرعت نحو العقلاء. اخترقت الجَمْع الجليل وفي عينيها بريق الجنون. على شفّيتها الملفطحتين طفع زبد كثيف. شيعوها بدهشة ولكنها هجمت وبدأت تنزع العمامات وتلقي بها على الأرض. لم يتوقع أحد أن تبلغ الوقاحة بامرأة، حتى لو كانت مجنونة، حدّاً يجعلها تتجاسر على القيام بهذا العمل. ارتبك الجمع الوقور وسارع أولئك الذين انكشفت رؤوسهم يسترون عوراتهم. ولكنها حاولت أن تدرّ على رؤوسهم التراب أيضاً فتطوع أحد العالقة وطوقها بين ذراعيه. رأى في عينيها دموعاً فأمره الزعيم أن يطلق سراحها. عادت إلى الرابية البركانية فناحت بمرثية اليمّة. اقتفى أثرها الدرويش ضاحكاً.

في قلب كل فرد استيقظ الشجن وخفق بمرثية.

أ- مراثي الصحاري

منذ تعطّفت السماء وأرسلت نجمها رسولاً ليحيي السهل ويهدي
الصحراء العارية حلمة الحياة تملئت الأجنة في بطون الأمهات مع تملل
حببات البذور في أحشاء الأرض العطشى عند سقوط قطرات المطر. ينبت
العشب، يشق تربة الطين، يرفع رأسه ويهرع نحو الضوء ليشاهد جمال
الصحراء وجلال الجبال، مصمماً أن يتمتع بالهواء والقضاء ومتاهات
السكون، لحظتها يولد للعشبة قرين لها بين بني الإنسان. يستوي الجنين في
الظلمات كما تنضج الترفاسة في بطن الأرض. يدوي الاستنكار المجهول في
صرخة الاحتجاج الأولى، وتنزل إلى السهل العذراء. تغسلها العجائز
الحكيما بحليب الحياة، بماء البشر السماوي، لتسلّح إلى الأبد بتيمة
الصحراء، ثم تقطّر في فمها قطرات بخيط من وبر الجمل تطهيراً للجسد من
الطين وتحصيناً له في رحلة الشتاء المقبلة. ترفع النساء رؤوساً حاسرة إلى
السماء وتضعن أيديهن المشبعة بالنيلة الزرقاء قبل أن تطلقن الزغاريد لسمع
الرجال في الحباء البعيد أن الفرح تمّ، والمراسم قد بدأت. تستمر الزغاريد
على ثلاث دفعات ليعلم الأب أن القبيلة قد رزقت بعذراء. صبية. أنثى.
الدفعة الثالثة إشارة بهيجة يفرح لها الأب والقبيلة والسهل ورؤوس الجبال.
فمن غير الأنثى أنقذ نسل الصحراويين من الانقراض؟ من غير الأنثى في
الصحراء يستحق التبجيل، ويعامل بالقداسة، ويعبده الفرسان؟ ماذا تعني
الصحراء إذا لم تستقبل بين الحين والآخر عذراء؟ من غيرك، أيتها العذراء،
يستطيع أن يهون قساوة القبلي ويروض وحشية الصحراء؟ ولكن العذراء لن
تكون حلماً يمسح حزن المسافر ويزيل تعب المهاجر ويعزي المجذوبين بأغاني
الشوق والوجد، وتحمل أجنة الذرية الصحراوية المنقبة المهذبة دوماً بالزوال
والفناء، إلا إذا تحصّنت بقطرة من ماء النهر عند الميلاد.

كبرت العذراء وأصبحت صبية. سلّموا لها الجديان الشقية فطاردتهم في
الوديان المجاورة. استغفلوها فاخفقوا. لاحقهم فتاهت. عطشت. بكوا.

فأنقذوها بجرعة من حلمة الأم الرؤوم .

ذاقت طعم العطش وهمست لها الصحراء في الخلوات أن العطش سرّها الأول ولن يفوز المخلوق بشرف الانتهاء للمتاهة إذا لم يجرب قدرها الخالد . وأخبرتها أيضاً أن التجربة تستحق المجازفة ، والخلاص من الأصفاد والقيود والعباد قصاص لم يسبق للصحراء أن عصمت منه أحداً حتى لو كان عذراء صحراوية .

فوق الفوهة الملساء استدار البدر فرققت في أمسيات السمر ورددت أغنية عشق بهيجة . أثارت إعجاب الصبيان فمدوا أيديهم إلى صدرها . اشتعلت . اشتمت رائحة مجهولة ، خفية . تكوّر الصدر وتصلّب . تمرّد على الثياب الفضفاضة فانتصبت الحلمتان في كبرياء . استدار الردفان تحت الجلباب الواسع . اتسعت العينان الكحلان وبرقت فيهما البكارة . أطلّ شوق غامض . شوق العذراء إلى المطر والرجل والحياة . العجائز الحكيمات جلسن كي يضفرن لها شعرها الفاحم المنسكب على منكبيها المكابرين كقطعة ظلام . دهنّ الجدائل الرفيعة بزيوت النبات ومراهم العشب وقلن بخبث : العذراء عاشقة !

وهبها البدر الجليل أول حب عند مشارف البئر فجاء المهاجرون الغزاة وقرروا أن يسلبوه قبل أن يتمّ الفرح . فيا فارسي الملثم منّ يضمن لك الأّ تعود إلى المنفى المجهول؟ منّ يضمن أنك ستستطيع أن تتزوّد بقطرة ماء؟ منّ يضمن لك البقاء؟ وكيف أجرؤ وأعدك بأن أطلّ ذلك الوعاء الذي سيحفظ ذريتك من الانقراض .

أيها الصحراوي الشقي! منذ اليوم لن يكون المنفى في الخلوات وحده قدرك الأبدى ، ولكن ها هم الأعداء يعدّون لك الكفن ، والزوال يطرق بوابة الصحراء .

بـ - مراثي الفتيان

رضعت حليبه من ثدي الأم، وعندما فطموك قهراً كتمت أمراً وتناولت
في الفوهة مقررراً أن ترتوي من المنيع رأساً. أدركوك وأقاموا حفلة سمر
احتفاء بالنجاة. ولكنك تظاهرت بالوجد. جذبت وهرولت وحجلت حول
حلقة المغنيات، ثم مددت يدك خلصة وقرصت العذراء في صدرها البكر. لم
تعلم، أيها المعاند، أنك قدحت الزند وأشعلت النار في جسدها البتول.
وامتلكت قلبها قبل أن تتوج رأسك بالعمامة وتتفاخر أمام الأقران بإشارة
الرجولة.

ولكنك لم تكن تدري .

كنت يافعاً ومعانداً تتجاهل العذارى وتطلب من الحياة دمية. في المراعي
ذهبت لترعى الجديان الشقية وتحرب أعشاش الطيور البرية. هناك داعبتها
وقرصت صدرها المدور وغنيت لها مواويل عن واو الموعودة وقلت لها إنك
تريد دمية.

لم تفهم الغموض في عينيها لأنك لم تكن تدري .

نافست الطيور في الغناء، ورددتما الأشعار، وجعلتكما أمسيات البدر فوق
البشر تستغفلان الصحراء وتشبان قبل الأوان. رهنت قلبك لفتاة أخرى
فقررت العذراء البائسة أن تهاجر وتسبقك إلى واو الموعودة. ألقت بنفسها في
البئر كي تقول إنها مدينة لك بالصدر البكر، المدور، والحلمة النافرة، والقصد
الريان، والجداول المدهونة بزهور الرثم. وكي تنبهك إلى أنها لا تنوي أن
تسلم كل هذه البكارة لأحضان رجل آخر، لذا قررت أن تهاجر وتسبقك إلى
واو الموعودة وتنتظرك هناك.

وأنت، أيها الشقي، فُجِعْتَ لأنك لم تكن تسدري أن مداعبة صدر
العذراء، في ليلة بدر، إشارة العشق!

ثم . . ألقى الغرباء .

توسلوا للزعيم وطلبوا رقعة في حجم جلد جاموسة برية . وانكشف السرّ لما نفخ سحرّتهم في الجلد الملعون وقطعوه إلى سور أسطوري حاز ثلاثة أرباع السهل .

في صدر الغريب ينام سرّ، يقول الحكماء . وها هم يمدّون الخيط الشيطاني من جلد الجاموسة ليستولوا على البئر . وأنا، الفتى المكابر، المعاند، يقف مع الجّمع، ويتنظر أن يأسر الأغراب رفاتك، أيتها العذراء . أليس أشرف للفتى أن يذهب للقائك في واو قبل أن يعجز حتى عن حماية رفاتك من أيدي الأغراب؟

جـ- مراثي الفرسان

ليس السيف سلاح الفرسان، وليست الحراب ولا النبال . وليست بنادق البارود أيضاً، ذلك السلاح الشيطاني النفيس الذي أدخله تجار الشمال إلى الصحراء في السنوات الأخيرة وقايضوا القطعة الواحدة منه مقابل قافلة من الإبل . حكماء الصحراء يقولون إن سلاح الفرسان هو البئر . ولا يكسب المعارك الوحشية في القارة الجرداء إلا الشياطين الموهوبين في المناورة وتدبير الحيل للسيطرة على الأبار . وعندما يجتمع عقلاء القبائل لتسيير المعارك وإدارة الحروب، في الزمان القديم، فإنهم يخسرون ما كسبوه ويفقدون كل ما غنموه ما لم يهدم الدهاء إلى مؤامرة للسيطرة على منابع التي يتزوّد منها العدو بالياه . والنصر الحقيقي، النهائي، الذي يركّع الخصم ويجبره على توقيع معاهدات الاستسلام، لا يأتي إلا إذا نجح القادة في تنفيذ هذه الخطة . فيقول الحكماء إن قانون الحرب في الصحراء هو الدهاء، وليس كثافة الفرسان أو شجاعة المحاربين . إذا توصّل الفريق المحارب، بدهائه، إلى الاستيلاء على بئر الخصم كسب النزاع وقبض على رقبة العدو .

البئر سرّ قوة القبيلة، والبئر هو نقطة ضعفها أيضاً .

هذا جعل القبائل الصحراوية القديمة تسنُّ تقليداً ما زال الأحفاد في تادارات وتاسيلي يحرصون على مواصلته، يقضي بالإبقاء على مواقع الآبار سرية، بعيدة عن عيون الرُّحْل والفضوليين وعابري السبيل. إذا جاء المهاجر استقبلوه بالحفاوة ونال الترحيب ونحروا له الذبائح. كما يتولَّون عنه إرواء جماله أو قافلته ويقومون بتزويده بحاجته من تموين الماء محاذرين أن يهتدي إلى موقع البئر. وكانوا يقيمون دائماً على مسافات لا تقل عن مسيرة يوم واحد من النُّجْع. حتى إذا نزل الضيف العابر أمهلوه ثلاثة أيام في المضارب وهي مهلة تكفي الرعاة لإرواء إبله إذا كان من أصحاب القوافل. وإذا كان البئر يقع في الصحاري الجنوبية فإن مراسم التمويه تقضي أن يتوجهوا بالقافلة إلى الشمال حتى يغيبوا عن أنظار الغرب، وفي العودة لا بدُّ أن يعودوا من جهة الشرق أو الشمال إمعاناً في البلبلة وزيادة في إخفاء معالم الطريق.

وكان الغرب في الغالب يدرك الخدعة، ولكنه يعرف أيضاً أن البحث عن الموقع عبث وليس عليه إلا أن يخشع تبجيلاً للطقوس. فلم يحدث أن عثر مهاجر في الصحراء على بئر خفي بالخرائط الشفوية التي يروق للصحراويين أن يتبادلوها في أسفارهم إلا إذا كان بئراً شهيراً مثل «حلمة الأرض» أو «بئر العطشان» أو «بئر اطلانطيدا». ولكن الآبار، مثل الكنوز، إذا بحثت عنها اختفت، وإذا نسيتهَا عثرت عليها بالصدفة. قدر «الحلمة» أن موقعها جاء مكشوفاً في العراء. لأن النجوم أرادت أن تجعلها قبة تنقذ كل العابرين. ولكن عطايا الساء تفسد بمجرد أن تمسَّها يد الإنسان. تقاتل عليها الناس وتبادلها نفوذ القبائل ففقدت البكارة ولحقتها لعنة الممتلكات.

واليوم تسلسل إليها يد الأغراب من جلد جاموسة مستغلة نزع الزعيم في الالتزام بتدبير العقل، وسمعته التي بلغت آير، في الاعتدال والإمساك بالعصا من الوسط، فوجد الفرسان أنفسهم مهزومين قبل أن يبدأ النزاع ويلتحموا بالنزاة في معركة. وجدوا أنفسهم يتراجعون نحو هاوية المفازة،

يقفون على بوابة المنفى من جديد. تماماً كما وجد الجدّ الأول نفسه بعد أن طُرِدَ من «واو» المفقودة، غريباً، ضائعاً، منفيّاً.

القدر يريد لهم أن يمشوا على خطاهم ليعيدوا تفاصيل السيرة الأولى.

٢ - السوار الذهبي

«في أداة الإخصاب يكمن الموت».

توماس مان - «يوسف واخواته»

(١)

تقاطر العقلاء على خباء الزعيم مع العشية. فاض بهم البيت فنصب الخدم «ايسر»(*) في مدخل الخيمة. حول الركيزة تحلق الشيوخ. بعضهم ارتدى أقنعة كثيفة، بيضاء، نُسجت من قماش شفاف، لفّ حولها قطعة «تجولوست» أنيقة، زرقاء. والبعض الآخر اكتفى بتكثيف الكتان، وزاد في طول العمامة بضعة أمتار، فبدأ الرأس منفوشاً، مهيباً، صغيراً في عجلة القماش المكابرة. أولئك كانوا رجالاً ما زالوا يطوّقون بطونهم بأحزمة من جلد تتدلّى منها السيوف، يعرفون معنى العار، ويتعاملون بكبرياء. يحرصون على النبل ويتحاشون هجاء الشاعرات، لأنهم يطمعون في الفوز بزوجة صبية قبل أن ينزع منهم الزمن المؤهلات، وإذا تعدّر الفوز بالصبايا فلا بأس بخليعة زنجية أو خلاسية يستولون عليها بحد السيف في الغزوات. أمّا الفريق الآخر الذي عبر الصحراء، صحراء الزمن، وصحراء الحياة، ووقف في الطرف الآخر من الوادي، مقوّس الظهر، مجمّد الوجه، يعاني الأرق والضغط وداء المفصل. وهو كل ما كسبه من الرحلة القاسية، المدهشة، التي تبدو الآن

(*) ايسر (تماهق): حصر ارتفاعه متر ونصف، محبوك من أعواد السديس وسيور الجلد، ينصبه الطوارق لضيوفهم، كما يقضي فيه العريس السنة الأولى مع عروسه قبل أن يفصل بها عن أهلها.

قصيرة جداً برغم بلوغ كل شيخ من هذا الفريق الثمانين. تعمموا بأقنعة متفاوتة الأحجام، مختلفة الألوان، مضغوطة، متواضعة بوجه عام. طأطأوا الرؤوس في تسليم مَنْ عرف طعم الثمرة التي ما زال الفريق الآخر يجري وراءها ظناً منه أنه سيجد فيها السعادة، متوهمًا أنها تستطيع أن تشبع فيه جوعاً أو تسدَّ في نفسه الخواء.

في نظراتهم خجل مَنْ عرف أن الحقيقة وهمٌ، والمرأة أسطورة لن يمتلكها رجل. سراب لن يروي العطشان. والخواء الأبدي مرض يعاني منه كل العشاق.

سَطَّر الشيوخ رموزهم على التراب. وتربَّع أصحاب الأقنعة الجليلة في وقار، يحصون أنفاس بعضهم، ويسترقون النظرات.

في الزاوية، عند طرف «ايسبر» من الجهة المواجهة للشمس، أوقد الزنوج نار الشاي. الزعيم توسط العقلاء، وظلَّ يردد الأسئلة عن الصحة والأحوال ولعنة القبلي وأخبار المطر في الحمادة الحمراء وآير ويشكو من الحر والغبار دون أن يجد مساندة أو جواباً من الحاضرين. يش وصمت. الفريق الذي تقوَّس ظهره تحت عبء الثمانين تبادل النظرات أيضاً. لم يخرق الصمت إلا طنين الذباب وطقطقة الحطب في فم النار، وزعيق أطفال يتراكضون بين المضارب القريبة من البيت. أخفى الزعيم أنفه تحت اللثام. نقر بسباته على الكليم، ثم ثنى طرف الفرش تحت ركبته ليصل إلى الرمال الناعمة أسوة بالشيخ. فوق الرمل بدأ يخط رموزه أيضاً. قال منكساً:

- سمعتم بالخبر؟ بنو آوى قطعوا الجزية!

ابتعدت أصوات الصبيان وبقي طنين الذباب. خبث النار ولكن عظام الجمر استمرَّت تتكسَّر تحت الركام.

لم يعلّق أحد. واصل الزعيم:

- نهبوا قافلة على مشارف مرزق يحميها رجالنا. قتلوا منهم ثلاثة واستولوا على البضائع.

ساد السكون. سكون الصحراء الذي يزداد جلالاً كلما أطلت الانصات إليه. الحكماء الذين تجاوزوا الشمانين يجتمعون خصيصاً ويقضون أياماً للانصات إليه. يعتلون الراية ليتفرجوا على متاهة العراء. يهشون الذباب ويصفغون للسكوت المقدس دون أن يجرحوا جلالته بكلمة واحدة. سكون العزلة والفراغ المستعار من «واو». يقول العرفّافون.

استمر الزعيم:

- لست أنا الذي يفتي في قرارات الغزو أو الهدنة ولكن مهمتي أن أعرض الأمر على شيوخنا الحكماء.

سكت ثم استدرك فجأة:

- ولكن هذا لن يمنع أن أبدي رأياً في بني آوى ورثته عن أجدادكم. لقد أجمعوا أن مهادنة هؤلاء الوحوش ضياع للوقت علاوة على ما ينطوي عليه من مجازفة. احذروا من مهادنة كل من اتخذ من الغدر يقيناً. رأيي، كما ترون، هو، في الحق، وصية أنقلها لكم. لا أعرف ما إذا كان الفرسان على علم بالأمانة ولكني على يقين أن شيوخنا الأفاضل يتحصّنون بها مثل آية الكرسي، ويحفظون سطورها حرفياً. أمل ألا تفهموا دعوتي على أنها دق لطبول الحرب طالما لم يوصد المعتدون باب التفاوض في وجوهنا. ما رأي الجماعة؟

عاد الصمت. صمت مشحون، متوتر، ليس كالسكون. الفراغ الدائم والصمت الطويل هو ما يمنح السكون الصحراوي هذا العمق وهذه القداسة. هو ما يلبسه مسوح الجلال التي ينسبها العرفّافون إلى المجهول ويقولون إنها مستمدة من «واو».

الصمت في الصحراء شفاف، حساس، في رقة زهرة رتم، تجرحها النحلة وتدميها اللسعة. الصمت البكر، البتول، يחדشه الاحتجاج في قلب حكيم، ويقتله الاستنكار المكتوم في صدر فارس مكابر، فيفقد البكارة دون تدخل الكلام. الآن كفّ الصمت أن يكون صمتاً، لأنه أنصت بخجل للغنة

الخفية التي توسوس في الصدور. حتى الشيوخ الذين اتخذوه لغة يومية في لقاءاتهم فقدوا ارتباطهم به في هذه اللحظة وانتظروا مصرعه. تبادلوا النظرات خلسة في ساحة الصمت، المتوتر، المزيف. لم يتوقع أحد أن يتدخل العجوز «بكتة». هو نفسه لم يتوقع أن يفعل ذلك. خاصة أنه ظلّ غائباً، منذ وقت قليل، في هموم الشيخوخة. الشيخوخة التي تكفي بعبادة الصمت البكر، والتنفس بحرية، والفرجة على السماء الزرقاء والخلاء الممتد على مدى البصر. و. . ماذا يريد العجوز الصحراوي أيضاً من الحياة؟

يريد شيئاً آخر. شيء يمكن أن يعادل السكون المقدس. يريد الخلاص من الام المفاصل في الليالي الشتوية. ولكن وخزه إحساس غامض دفعه لأن يقرأ صحيفة الاتهام. هل هو الشرف؟ هل هو كبرياء المثلثين؟ هل هو الضمير؟ هل هو الواجب؟ دفعه شيء أقوى من كل هذه المبادئ. إنه السعي القديم، الشرس، الجليل، الغريزي، الذي جعل الجدّ الصحراوي الأول يتطاول في رؤوس الجبال، ويتسلق أسقف الكهوف كي يرسم همّه ويحفر في الصخور وصيته للأجيال. السباق المقدس للمحافظة على الأصل وإنقاذ النسل ومواصلة رحلة البقاء. الرغبة الوحشية في الإبقاء على الأثر. قفزة «بكتة» محاولة لدق المسار في نعش الزوال.

وقف مستنداً على عكازٍ معقوف مصقول من شجر السدر. نحيف متوسط القامة، نحيل الأطراف، ممصوص الوجه، بارز الوجنتين. ملامحه صارمة ولكن في العينين هدوء عميق. هدوء الفريق المتعب الذي يش من العثور على «واو» وترك هذه المهمة الجلييلة للفريق البديل. الفريق الآخر الذي تستهويه أحضان نساء مجهولات لم يعشقهن بعد فخر معركة «واو» قبل أن تبدأ.

الهدوء الساحر في عينيه هو ما يجذب إليه الناس فيجد نفسه يمارس صلاحيات الزعيم من حيث لا يدري، ومن حيث لا يدري الناس أيضاً.

توكأ على العكاز اللامع منحنيًا إلى الأمام. أمسك بمقبض العكاز المقوس بكلتا يديه وقال:

- هل دعوت هذا الجمع الفاضل يا شيخنا كي نحارب بني آوى؟ هل عميت إلى هذا الحد حتى تظن أن غدر بني آوى وقطعهم الجزية هو الحدث الأسيف الوحيد في أزجر الذي يستحق القلق ويتطلب تدخل مجلس الشيوخ؟ لقد تساءلت كثيرًا في الآونة الأخيرة عما إذا كنت ما زلت تتمتع بقواك العقلية، وفي بعض الأحيان أيقنت أنك أعمى. وليس لي الجمع الجليل بقساوة الاتهام، ولم أكن لأتجاسر، يا شيخنا الفاضل، لولا يقيني بخطورة ما حل بسهلنا في السنوات الأخيرة. ويبدو أن العماء عاهة لا تبدو جسيمة إلى جوار ظن آخر خامرني وكشفته للشيخ باخي في حينه (وانحنى على يساره فهزّ الشيخ باخي رأسه بالموافقة تأكيداً على كلامه). قلت له إن أهل آير هم أبرع المخلوقات في تعاطي السحر. وهم الذين أدخلوا هذا الوباء المخيف إلى الصحراء مستخفين تحت ستار العرافين والفقهاء المزيفين. وقد أيقنت أنهم أدهى من الجن في هذه الحرفة الكريهة بعد ما فعلوه بك وبسهلنا المسكين. وإلا هل يمكن أن يصدّق عاقل أن ما حدث يمكن أن يحدث لو لم تكن لأصابع السحر دور؟ هل ينزل مهاجر على قبيلة ولا يطلب سوى رقعة أرض بحجم جلد جاموس ثم يستولي على ثلاثة أرباع السهل لبيني واوًا مزعومة؟ يدفعنا بعيداً عن «حلمة الأرض» ليلتلع مزيداً من العراء، وها هو يبني أسواراً شيطانية تنوي ابتلاع البشر نفسه. فهل ثمة عاقل يشك في أن هذا الشيطان لا ينوي السيطرة على القبيلة اليوم، وغداً على أزجر كله؟ حتى أطفالنا أصبحوا على يقين من نواياه. أعترف الآن أمامكم أن الحرص على القبيلة هو الذي دفعني للبحث عن ساحر عابر أو فقيه عالم من المرافقين لتجار القوافل كي يبطل المكيدة. وأظن أنكم ستسخرون مني الآن بسبب هذا الاعتراف كما سخر مني باخي حين فاتحته بنيتي منذ شهور. ولكن مسعاي انتهى إلى الفشل على كل حال. ولكن هذا لا يعني أنني تراجع عن يقيني، لأن الخمسة

والثمانين التي أحلها فوق ظهري علّمتني أن للسحر وجوهاً كثيراً وإشارات أخرى يمكننا أن نقرأها في الطبيعة. فلم نشهد في آرجر قط قبلي استمر ثلاثة أعوام، كما لم نسمع عن ذلك من أفواه أجدادنا الأموات. والقبلي مهاجر لا ينزل الصحراء منفرداً، إنه يقبل برفقة جُمعٍ من البلايا: يطرر الأبار، يحرق العشب والشجر، يبید القطعان، وينشر المجاعة في كل مكان. وهو ما يسميه كبار السحرة بـ «النحس» في معاجهم السرية. ولا تظنّوا أن كوارث الطبيعة دائماً لعنة من فم القدر أو إشارة غاضبة من يد الساء لأن عرّافاً من «كانو» اعترف لي منذ أربعين عاماً أن يد الإنسان قادرة على أن تصنع بلايا أبشع منها، والنحس لا ينزل من السماوات ولكن أسبابه كامنة في الأرض. ولا زلت أذكر ما قاله بالحرف: «نحن لا نعرف إلا القليل جداً حتى اليوم مما يستطيع هذا المخلوق أن يصنعه» نعم. هكذا قال. ولم أكن لأذكر تفسيراً غامضاً للنحس من عرّاف عابر لو لم تنشط الشائعات التي تؤكّد أن «أناي» أدخل التبر إلى السهل ويقايض به البضائع مع قوافل الشمال سراً، وإذا صحّ ما يُشاع فإنّي لم أتحمّل عليه عندما وصفته بـ «المجوسي» في اجتماعنا الأخير، الذي كدت أنساه لطول المدة، كما يبطل أي عجب فيما حلّ بالسهل من بلاء. هذا هو الأمر الذي يستوجب المعالجة لا خطراً بعيداً مزعوماً يشكّله عصيان بني آوى في الصحراء الشرقية. وإذا صحّ ما يُقال عن الذهب فإن الرجل خدعنا عن عمد وهو العليم بميثاقنا مع الجنّ وخطورة المعدن المشؤوم على حياتنا. وإذا خدعنا عن عمد مرة (وهي ليست الخدعة الأولى على أي حال إذا عدنا وذكرناكم بخدعة رقعة الأرض) فأنا لا أشكّ في أنه يدبرّ مكيدة جديدة الله وحده يعلم الثمن الذي علينا أن ندفعه مقابلها. هذا إذا كتبت لنا منها النجاة. وإذا أردتم رأيي فإنّي شخصياً أميل إلى تصديق تعامله مع نحاس النحس، خاصة وأن كل الدلائل تشير إلى ذلك بداية بما عُرف عن أخيه «أورغ» من عبادته للذهب إلى حد جعله يقايض تينبكتو كلها وسلمها للمجوس مقابل التبر، ونهاية بإشارات الطبيعة التي حدثتكم عنها، مروراً

بالنشاط المشبوه والتحركات الخفية للتجار والقوافل والعابرين داخل السور، كلها رجس من عمل المعدن الشيطاني. فهل من الحكمة، بعد هذا، أن نجهز للحرب وننقز إلى عدو يرباط على الحدود، ونترك عدواً يضرب الحصار حول بيوتنا ويحرمنا بثراً ويهدد أعناقنا؟

زَفَر واعتدل في وقفته وانتصب فلامست عمامته الهزيلة الخيمة المشطورة بخطوط من صوف أبيض باهت. سحب العكاز المعقوف نحو جسمه النحيل ورشقه على مربعات الكليم، ثم أسند به عجيزته. تناطحت عائم الرجال وعلت المهمهمات. في زوايا الخباء علت أصوات بتعليقات مسموعة. حرث الزعيم الرمل بالسبابة وفي عينيه ابتسامة بائسة.

تكلم «بَكّه» من جديد:

- نحن جيل لا نطمح في أن نجني الغنائم أو نسلب السبايا من الغزوات، كما فقدنا الأمل في أن نجد السعادة بين أحضان الحسان، ويئسنا، منذ زمن بعيد (وهو أقسى ما يمكن أن يواجهه الصحراوي) في العثور على واو. لم نعثر عليها في الصحراء كما عجزنا أن نعثر عليها في قلوبنا. فأني معنى لحياتنا؟ وَقَارْنَا مطعون بيد الزمن وكبرياؤنا تبدد بالعمر. ولكن هذا لا يعني، يا زعيمنا الفاضل، أننا سلمنا في كل المتع ونحن نضع أرجلنا في القبور. نحن ما زلنا نتمتع بالحياة، بالصحراء، رغم المحنة. نتلذذ بالتنفس وشرب الماء والشاي، ونستمع في خشوع إلى السكون، ونجد البهجة في الفرجة على الساء وامتداد العراء. وأرجو ألا يسخر مني رجالنا الأشداء الذين ما زالوا عمياناً ولا يرون في الصحراء أجمل من النساء والمهاري والغزلان. ولكني أردت بهذا أن أقول إننا تنازلنا لكم عن كل شيء مقابل أن نتنفس هواءً نقياً من غبار القبلي، ونشرب ماءً لا تعكره قوافل المهاجرين ولا يستنزفه دلو الجشعين، وننقرج على عراء لا تحجبه أسوار الشياطين. أمّا السكون السكون اعتدى عليه الحدادون وهم يسكنون معدن النحاس في الرواق السري.

النقط نفساً وأنزل طرف اللثام العلوي على عينيه واستمر ليفوّت الفرصة على هواة التعليقات الجانبية في المجالس:

- و.. شيء آخر. شيء أهم. نحن العَجَزَة متاع القبيلة الذي يريد أن ينهكم جميعاً إلى وصية واحدة. هي وصية موجهة لكل مَنْ استطاع سبيلاً لحمل السلاح، وهي وصيتنا الأخيرة التي أستطيع أن أجزم أن كل المعمرين يساندوني في المجاهرة بها. وقبل أن أخبركم بها أجيئوني على سؤال واحد: ماذا يجني الصحراوي من حياة الترحال والشقاء إذا لم يتوّج حياته بالعشور على واو وهو الذي لم يخلف أثراً يحمل اسمه، ذرية تحمي نسله من الانقراض والزوال؟ القليلون فقط الذين ابتسمت لهم السياء وفتحت أبوابها ليدخلوا إلى واو يستطيعون أن يضحوا بالذرية ويزهدوا في نسل يحمل اسمهم من بعدهم. وغير هؤلاء القلة، فإن حاجتهم إلى حماية الأصل تفوق أي حاجة أخرى في الحياة. ولما لا يوجد في قبيلتنا رجل واحد على قيد الحياة فاز بمشاهدة واو، فإنه ليس من الغريب أن يكون هدفاً جميعاً، أو يجب أن يكون هدفاً جميعاً، التضحية بكل شيء في سبيل الأولاد الأشقياء. وهو هدف لن يتحقق إلا بردع العدو الذي يهدد جبل الوريد. هذه هي الوصية.

توقّف بكّة فأقبل الزنجي يورّع الشاي. كان قصيراً، أحمر العينين، مقنّعاً بعمامة سوداء ينسدل طرفها السفلي حتى ذقنه فانكشف فمه عن شفتين غليظتين. تناول بكّة كأساً تلاشى طربوش رغوته حتى الحافة. رفع الكأس أمام وجهه بيد مرتجفة ولكنه لم يرشف منه. في زاوية الخباء، أقصى اليمين، تجمّع بعض المغرورين. قال أحدهم بصوت مكتوم ولكن مسموع: «هذا ليس شأن الزعيم. ماذا يعني الأولاد والمحافظة على النسب بالنسبة لرجل لم ينجب ذرية؟». رشف بكّة من كأسه فعلق آخر: «هذا لا يدل إلا على حكمة الزعيم. يُحَسَد مَنْ لم ينجب ذرية هذه الأيام».

رشف الزعيم شايه على ثلاث دفعات متتالية. ثبت الكأس في الرمل وقال دون أن يرفع رأسه :

- أشفقت عليكم دائماً من جموح المتطرفين الذين لا يرون إلا الأبيض أو الأسود، اليمين أو اليسار، يقينهم أعلى عليين أو أسفل سافلين. وها أنا أسمع أصواتاً تتردد في الخفاء لتذكّرني بعزوفي عن إنجاب الذرية فلا أعرف إذا كانت تعبرني أم تثني عليّ. الجميع يعرف أنني لم أزهد في أجهل مخلوقات الأرض وأضحى بزية الحياة الدنيا وأحرم نفسي دفء العائلة بسبب شذوذ أو نزوة أو غرابة في الأطوار. ولكن قناعتي القاسية بأن هذا المخلوق الوديع عاجز أن يهني العزاء برغم كل ما وهبه الله من جمال ورقة وموهبة في الغناء ونظم الشعر. فإذا عجز الرجل عندنا في العثور على «واوه» نجده يهرع فوراً ليهب عن امرأة يذفن في أحضانها هزيمته. اللأس أمام واو هو الدافع الأول لعشق النساء. والرجال طبعاً يرفضون أن يعترفوا بالحقيقة ويقولون لأنفسهم إن هذا وهم وضلال. بل نجد أغلبهم يفقد العقل بعد بلوغ السبعين ويلجأ إلى أقرب نَجَمٍ ليخطف منهم مطلقة ويتخذ منها زوجة. وإذا لم يخالفه الحظ في القبيلة أو التجوع المجاورة يرتدي أفخر اللباس ويضع تجولموس على عمامته ويذهب إلى زعيم القبيلة ليقرع طبول الحرب كما فعل شيخنا الجليل بكّة منذ قليل. وليعذرني إذ أسوق هذا المثال الذي لا يصلح للمقارنة، لأن شيخنا بكّة هو آخر مَنْ يفكر بأن يقرع طبول الغزوات طمعاً في الفوز بسية. وليعذرني الجَمْع المهيّب أن أبدأ حديثي من النهاية. ولم أكن لأفعل لولا ما سمعت من همسات طائشة تريد أن تحوّل حتى حرماي من الذرية والعائلة خطية أخرى تُضاف إلى خطاياي التي أرى أن السهل بدأ يضيق بها اليوم. ولشدّ ما ألتني أن أسمع من شفتي رجل كريم وحكيم مثل بكّة كلاماً يحوّل اعتدالي واحتكامي إلى التعقل في القرارات التي تتعلق بمصير القبيلة، إلى تهمة رذيلة ظناً منه أن الاعتدال هبة إلهية تعطيها السماء، أو طبل الزعامة يرثه ابن الأخت عن الخال، وفاته أن هذه هي الجوهرة الوحيدة في الصحراء التي لن

تعثر عليها كما يُعثر على الكنوز أو الآبار، ولكنها مثل واو، توهب بالجهد الطويل.

اعترض بكّة :

- استغفر الله . أنا آخر مَنْ يطعن في براعتك بالإمساك بالعصا من وسطها، ولكن قلت إن مَنْ يكسب السلم هو مَنْ يتأهب للحرب .

- يسعدني أن أسمع منك هذا الرأي . واعذري أن أطرح عليك سؤالاً : إذا كنت تعترف بفضائل الإمساك بالعصا من الوسط، هل تنكر أن مَنْ حَكَّم العقل كسب الخصام حتى لو هزمه الخصوم؟

- في هذه أخالفك الرأي . مَنْ حَكَّم عقله طويلاً أثناء الحصار أطبق عليه الأعداء، لأن تحكُّم العقل هنا هو تجاهل للحقيقة وأدعاء للحكمة . ووقوع الحكم في يدي شيخ الطريقة الدعيّ مثال على ما أقول . لقد حذرنك ولكنك تساهلت . فماذا كانت النتيجة؟

- أوافقك في أن الاحتكام للعقل صعب وخطر ولكن الثمن في النهاية مدفوع . ويمكنني أن أردّ عليك بنفس المثال وأسألك : أين شيخ الطريقة الآن؟

- وهل تدّعي لنفسك فضلاً في القضاء عليه؟ لقد قضى على نفسه بنفسه . قضى عليه صندوق التبر . اعتدى على ممتلكات الجن . هذا هو السرّ . - العبرة بالنتيجة . لا يهمُّ كيف ذهب وبأي سبب، المهم ذهب لأنسا صبرنا عليه .

- الصبر مفتاح آخر . تعويذة أخرى .

- هنا يلتقي المفتاحان . الصبر وسيلة من وسائل الاعتدال .

- لا تهرب من المواجهة يا شيخنا . نحن نعرف أن كل مَنْ عبد الذهب أقام في قلبه معبداً لشعائر المجوس . هذا انطبق على شيخ الطريقة القادرية المزيف كما ينطبق على ضيفك المجوسي «أناي» اليوم .

- مرحى ! مرحى ! إذا تكلم الحكيم فلا بد أن يحتكم إلى «أنهي». هذا ما يعجبني في الحكماء. نعم. كل من عبد الذهب أقام في قلبه معبداً لشعائر المجوس والشیطان. لن أخالفك أبداً.

- بل خالفتني عندما حاولت أن ترجع سبب القضاء على شيخ الطريقة إلى شيء غير امتلاكه لصندوق التبر.

- لم أرجع السبب إلى أي شيء. علم السبب عند الله. ولكني قلت إن العبرة بالنتيجة. وأنا من حقي أن أتكلم في هذا الشأن أكثر من غيري لأنني ذقت مرارة المنفى.

أزال المثلثات المتجاوزة التي رسمها على الرمل، ثم رفع ركبته اليمنى وأحاطها بذراعيه كالطفل. قال:

... ولا أريد أن أتحدث عن تلك المرحلة الآن. ولكن لا تظنوا أنني أغفلت حقنا في البشر كما يتهمني العوام، وهذا الإمام الذي تولّى مفاوضة «أناي» طوال الوقت نيابة عني (أوماً الإمام بعمامته البيضاء فسقط طرف اللثام السفلي عن أنفه المعقوف) وأظن أنها توصلنا إلى اتفاق سأطلعكم عليه بعد قليل.

رفع رأسه نحو قمة ايدنان وأضاف:

- .. كما أرى أن من واجبي أن أعترف أمامكم بغرابة أطوار الرجل دون أن أضطر لانتهامه بسوء النية: فقد طلبت مقابلته ثلاث مرات بعد قيام مشكلة البشر، ولكنه اعتذر عن استقبالي بلباقة محتجاً بالقوافل والتجار والأعمال. ورأيت أن من واجبي أن أجد له العذر رغم كل شيء، فبعثت له الإمام ثلاث مرات للتفاوض ولدهشتي أنه وجد وقتاً واستقبله مرتين في القصر، وتوصل معه إلى نتائج سأعرضها بعد أن أفرغ من أمر الشائعات التي تُروى عن الذهب.

جاء الزنجي يوزع الدور الثاني من الشاي. تناول الزعيم كأساً عارية

من الرغبة. تأملها بنظرة غائبة ثم وضعها أمامه فوق الرسل. عاد يقول وهو ما يزال ينصب ركبته اليمنى:

- لا أنكر أني سمعت الشائعة أيضاً، بثلاث روايات مختلفة: الأولى أن «أناي» جاء من آير بناء على خطة رسمها له أخوه السلطان «أورغ» في تينبكتو، تقضي أن يشرع في بناء مدينة جديدة بديلة لتينبكتو التي أصبحت مهددة من قبل قبائل بامبارا، على أن يبقى السلطان في السلطنة مؤقتاً ليمده بالذهب اللازم لقيام مدينة جديدة بالاسم القديم، على أن يلتحق السلطان بتينبكتو الجديدة عندما يحين الوقت المناسب. ولكن مصرع السلطان جعلني أشك في هذه الرواية. أما الرواية الثانية فتقول إن في «أناي» طموح قديم يعيش فيه منذ سنوات مزاولة التجارة في آير، فحلّم دائماً بالثراء وبترعم مدينة تقوم على أرض من ذهب. والأساطير التي تُروى في القارة عن أمجاد تينبكتو في عصرها الذهبي هي التي غذت فيه هذا الخيال. وما أن رأى أورغ تعاظم خطر المجوس حتى استدعى أناي وسلم له مهمة الابتعاد بابتته الوحيدة خوفاً على مشاعرها الدينية من شعائر الوثنيين واستهتار الهمج بالقيم. هنا في آزجر وجد «أناي» الفرصة لتحقيق حلمه القديم فبدأ تشييد البنيان مستعيناً بإمدادات العبيد والتبر.

رشف من الشاي البارد الخالي من الرغبة، وأعاد الكأس إلى الأرض ليواصل:

- . . تبقى الرواية الثالثة. وتقول إن تجار الشمال هم الذين شجّعوا أناي في عمله وأمدّوه بالمال والرجال وقاموا بتغطية كل النفقات لبناء المدينة تنفيذاً لخطة عثمانية رسمها الوالي في طرابلس، تقضي بأن يتمّ بناء مدينة تنافس تينبكتو النائية في الثراء. والهدف هو استجلاب الذهب من أعماق القارة، بما في ذلك ذهب تينبكتو الأم أيضاً، لتزدهر المقايضة والمبادلات التجارية وحتى يتدفق المعدن النفيس إلى السواحل (وهذا هو الهدف الأصلي) ليغطي عجز

الامبراطورية المالي وينقذها من الإفلاس. ويُقال إن خبراء دهاء هم الذين أشاروا على سلطان الآستانة نفسه بهذا العمل. بعد أن رأوا كيف يستنزف النصارى المعدن الثمين دون أن يستغلّ الولاة البلهاء مواقعهم المتاخمة للصحراء ليقدموا خدمة مقابل مناصبهم وألقابهم وبذخهم. وتقول هذه الرواية أيضاً إن الحاج البكاي يقوم بدور الوسيط بين الأطراف الثلاثة: أورغ وأناي والوالي العثماني. وأنا لا أستطيع أن أعطي لنفسي الحق في تصديق أي رواية من الروايات، ليس لأنها تبدو أقرب إلى الأساطير كما لاحظتم، ولكن التسرع سفاهة لا تليق بالعقلاء، والحكم بدون برهان أو علم حماقة عند الحكماء. ولا أعرف ماذا سيحدث لقبيلة يتولى زعامتها شيخ أحق بinni أحكاماً على شائعات الدهماء.

سكت فساد صمت. التفت باخي نحو بكة فوجده غائباً. هل اشتاق للسكون؟ أم أنه يحذق في الأبدية؟ في غيابه حزن و... جلال. جلال الشبخوخة عندما تعقد قراناً مع الأبدية، حتى أنه أغفل حديث الزعيم ونسي الحماس الأول.

في الخارج مارست الصحراء طقوس المساء. زرعت الشمس على طول الأفق الأشعة عمودية كسنايل من ذهب فعاتت قطعان الأغنام من الوديان، تثير بحوافرها الغبار وتنفو بزعيق حاد. سمع أيضاً هدير جل هائج.

صادر الزنجي كأس الزعيم. ما زال ممتلئاً بالشاي إلى نصفه، ولكن المسائل الشريفة تبدل وذبل وشحب لونه. ما أسرع ما يفسد الشاي.. ما أسرع ما تهوم الأشياء.

علاء الزعيم:

.. الحق أقول لكم: لا يجب أن نلوم إلا أنفسنا في المحنة. خالفنا تعاليم «أنبي» وركنا للاسترخاء. أقمنا سنيماً في السهل بدل الأربعين كحد أقصى. كل من أقام أكثر من أربعين يوماً في أرض أصبح عبداً لها. ليس هذا

ما ورد في الكتاب المفقود يا شيخنا بكّة؟

لم يفق بكّة من رحلته. ويبدو أن آده لم يتوقع جوابه فواصل بلا اكتراث:
- في الماضي كنّا نرحل كثيراً إلى الصحاري المجاورة. مساك ملت، مساك
صطف، وديان متخندوش، تانزوفت، تاسيلي، ولكن الجذب، كالقضاء،
كالسرّاب، لم يمهّلنا طويلاً، وها هو يسود أعواماً. فكرت مراراً أن نهاجر إلى
الحمادة الحمراء في الشمال، ولكن تلك الجنة عانت من ندرة الأمطار أيضاً في
السنوات الأخيرة. فكانت نتيجة الإقامة في السهل أن استمرّنا الاسترخاء
والتصقنا بالأرض كأهالي الواحات، حتى إذا نزل على رؤوسنا ضيف مهاجر
مثل أناي، رأينا فيه نفوذنا القديم وأفزعنا في سلوكه سلطان الصحراويين
ونفوذهم. ارتجفنا كما يرتجف الفلاحون أمامنا عندما كنّا ننزل الواحات
سنوات الغزوات والحروب القبلية، فأحسنهنا بتفوقه واستيقظ فيه تسلّط
الرحل وقرر أن يضرب ضربته.

زفر ثم واصل:

- لم يضرب ضربة واحدة. ولكن سليقته الصحراوية أوحّت له أن أبواب
السماء تفتح مرة واحدة في وجه الإنسان، فإذا أحسن استشارها نال النجاح
وأصبح من الفائزين، وإذا تكاسل وأفلت الفرصة أقفلت الأبواب في وجهه
وعاش خائباً إلى الأبد، فدخل من البوابة المفتوحة وضرب ضربات. وإليكم
الميثاق الذي إقترحه عليكم. ولا أخجل من أن أنبهكم إلى التفوق في الميثاق،
نزعة الرحالة المتحررة، حتى الآن، من وزر الأرض، نزعة الفرسان وهم
يدهسون غلال الفلاحين الوجلين الذين غرس فيهم حب الأرض جنباً لن
يخلصهم منه إلا القبر. لأن أناي داهية فقرر أن يكسب الوقت قبل أن نفيق،
ويبني مجدداً، لأنه يعرف أن المجد مهما طال به الأجل فمصيره سيؤول إلى
تفسخ وتحلل وزوال. ولا أريد أن أقول بهذا إننا عجّزنا نهائياً عن الدفاع عن
أنفسنا، ولكنني لم أر حتى الآن ضرورة تملي هذا الجموح. فالرجل ردّ على

تساؤلنا بعرضين: الأول يقضي بالإبقاء على بوابة السور الغربية مشرعة طوال النهار، على أن تقفل أبوابها بالليل. ويرحب العرض الثاني بأي عائلة من القبيلة لعبور السور والدخول للمدينة. وسوف يعمل السلطان على أن يعامل الأزجيين معاملة أهل واو الأصليين سواء بسواء. كما تعهد السلطان بدفع أتاوة مقابل استعمال البئر واستغلال الأرض.

تبادل الوفد نظرات سرية. تمايلت عمامات وتناطحت رؤوس. ارتفعت المهمة فقطعها الشيخ:

- كما ترون فإن العروض حتى الآن عادلة ومَنْ رأى منكم غير ما أرى فليجاهر بالرأي. فما رأي الجليل بكّة؟

ولكن بكّة كان ينصت لسكون الأبدية. لكزه الشيخ باخي ولكنه لم يخرج عن صمته. اعتدل باخي وسوّى اللثام حول أنفه وتولّى الرد عن صديقه:
- لا تلمنا يا شيخ آده. الزعيم الحليم مَنْ صبر على المخالفة. وأنهى يقول: لا يستقيم شيء بدون نقیض.

تمايل برأسه يميناً ويساراً وزفر مردداً: «أبييه» علامة الشجن والحنين إلى واو المفقودة. ثم ما لبث أن غاب مع بكّة وأنصت للسكون.

(٢)

سكون الصحراء...

لغة العزلة. حرم الأبدية. موال الخلود الحزين.

على مرتفعات الحمادة يدمدم بضجيج مدهش كصفير الرياح، وفي بعض الأيام يعزف موسيقى كأنغام «امزاد»، وفي الصحاري الرملية يقرع الطبول في الليالي، وينصت فيه الشيوخ لمحاورات الأسلاف ووصاياهم للأجيال الضائعة.

وتقول الأسطورة أن الخالق فضأ العالم وجرده من الحياة كي يتفرغ لخلق.

المخلوق فصنع الصحراء الكبرى. خلق المخلوق وراقته سكنة الصحراء
فباركها وخلق في قلبها واحة واو وتنفس الصعداء. ولا زالت التهيدة الجليلة
تسمع في سكوت الصحراء حتى اليوم، والأصوات التي تدمدم في الفراغ
كالأنعام هي أنفاسه الجليلة. فأصبح الانصات للصمت عبادة. ولم يكن لغير
المعمرين، الذين ذاقوا طعم السكنة، أن يفهموا سرّ هذه اللغة. فاتخذوها
«واو» أخرى يقضون في رحابها اللحظات الممدودة من حياتهم الفانية. وكثيراً
ما يضرب الحكماء منهم صدورهم النحيلة ليرددوا: «واو الحقيقية هنا. قفص
الصدر أسوارها والسكون لغتها. والبلهاء هم الذين يبحثون عنها في المفازات
الخالية».

(٣)

خرج موسى من دار الأميرة مع القيلولة. استوت الشمس على عرشها
بكبرياء وسكنت الشعاع الناري على رأس الصحراء العارية فتسكع السراب
في الخلاء باللسنة من لهب. مثنى نحو البوابة الشرقية ولكنه عاد قبل أن يبلغ
ساحة السوق. نزع زمالته الملتفة حول رقبته كثعبان ولفها حول رأسه بإحكام
وترك وجهه مكشوفاً. احتفى بجدران واو وتوغل في الأزقة المعتمة بالجريد.
انتعش بالظلال وراقته الأزقة المترية الخالية، على اليسار جلس على الأرض
ثلاثة عسس زنوج يستندون إلى الجدران المطلية بالجير ويلهثون باسترخاء.
أطولهم قامة جلس على رؤوس الأصابع متكئاً على باب ضخم صنع من
جذوع النخل. يهش الذباب الملحاح ويمضغ التبغ بكسل. وعندما واجه
الباب سمع مطارق الحدادة فعرف أن الباب يؤدي إلى الرواق السري الذي
حاول أن يدخله خلصة منذ شهور. على اليمين، فوق الأرض، تربع عساس
آخر، بدين، ذو أنف أفطس ومنخارين كبيرين. يواجه النار ويعدّ الشاي.
يمسك بمسعر من الطلح يزيح به الأعواد المشتعلة جانباً ويكدّس الجمر المتوهج
حول وعاء الشاي. بجواره تكوّمت حزمة من الحطب. إلى يساره جلس
الثالث، مستنداً إلى الجدار، ماداً رجله نحو الممر، ينظر إلى الفراغ وينصت

لطرقات الحدادين وهم يضربون الحديد .

كانت بنيته أضعف من رقيقه، ويبدو أنه أقصر قامه أيضاً .

مشى موسى خطوات ثم توقف . أخرج من جيبه السوار . تفحصه قبل أن يتقدم نحو العسس . انحنى فوق رأس الزنجي البدين . رمقه بعينه الحولاء . رسم على شفثيه ابتسامة بلهاء فبرزت أسنانه الأمامية الناتئة .

سال من فمه خيط فضي طويل، رفيع، من اللعاب . تدلّى من شفثيه ببطء وسقط في النار . تلقته الجمرات المتوهجة والتهمة في فحيح ولهفة . وراء اللعاب أسقط موسى السوار الذهبي في النار . كان سواراً نادراً، مضافاً بعناية كما تضفر النساء جدائلهن الأمامية، مفتوحاً في نهايتين مهيبتين متوجّتين بثعبانين متقابلين . يكشف فك أحد الثعبانين عن لسان شره يمدّه إلى الأمام نحو خصمه المقابل حتى يكاد يسدّ الفتحة الضيقة المخصصة لمروء معاصم الحسان . وقع السوار فوق جمرات خابئة تعلوها طبقة فضية من الرماد، بجوار الوعاء، وتدحرج حتى غاب رأس الثعبان ذو اللسان الشرس في الحطب المشتعل .

رفع العساس البدين رأسه نحو الدرويش . فلاحظ موسى أن منخاريه ازدادا اتساعاً برغم الأنف الأفطس المستجير بالوجنتين، ورأى في عينيه الحيرة . رشق المسعر في الرمل ومدّ يده والتقط السوار من النار . ألقى به في صينية مليئة بالماء إلى منتصفها مخصصة لغسل كؤوس الشاي، فاستغاث الثعبان بفحيح مكتوم . دس البدين إبهامه وسبابته في الثرى والثفت إلى المارد الجالس على رؤوس أصابعه بجوار الباب . قال :

- هل يُختبر ذهب تينبكتو بالنار يا بوبو؟

بصق المارد لعاب التبغ وأهال عليه حفنة من التراب قبل أن يهز رأسه بالنفي . ابتسم النحيل بغموض وعلّق بلا مبالاة :

- أراهن بناقّة أن هذا السوار من مجوهرات الأميرة .

أخرج البدين السوار البديع من الماء وتفحصه باهتمام فأكمل النحيل دون أن يرفع رأسه:

- ما رأي الدرويش؟ هل يراهنني بناقه؟

تمتم موسى:

- ها - ها . . أصبت . من مجوهرات الأميرة . ولكنه يبدو مثل النحاس .

صاح البدين مخاطب المارد:

- هل يشبه ذهب تينبكتو النحاس يا بوبو؟

بصق المارد لعاب التبغ مرة أخرى . هشّ ذبابة ملحاحة أمام وجهه وهزّ رأسه بالنفي . فعاد البدين يتساءل:

- هل يستطيع النحاس أن يبني تينبكتو يا بوبو؟

ابتسم المارد باستخفاف وامتنع عن الإيماء بالرأس . استمر البدين يقلّب السوار في يده ثم أعاده إلى الدرويش وتكلم بلغة آير المجهولة:

- لو كان النحاس يبني مدناً لما شقي الناس وقطعوا الصحراء بالقوافل من الشمال إلى الجنوب . لو كان النحاس يبني مدناً لما أصبحت تينبكتو قبلة التجار و«واو» الباحثين عن النعيم . تينبكتو فريدة لأن الله خصّها بمعدن آخر فريد . السرّ في المعدن يا موسى الم رابط!

مسح العرق بكم جلبابه الفضفاض ورفع عقيرته بموال «أساهغ» يمجّد ذهب تينبكتو . تمايل النحيل مع إيقاع اللحن وردد المارد خلفه أبيات القصيدة حتى انتهى الشاعر إلى المقطع الذي يتحدث عن مهاجر تائه ، أفقده العطش صوابه فتعرّى في الصحراء استعداداً لملاقاة ربه ، فلمعت في الأفق أهلة الجوامع ببريق التبر . اقترب من الأسوار فوجدها مبنية بسبائك من الذهب . دخل المهاجر المدينة فلاقاه أهلها بالضيافة وسخّروا لخدمته الحوريات فسقينه أمتع الشراب وأطعمنه ألد الطعام وغفا ليرى أجمل الأحلام . وعندما صحا

وجد نفسه هاجعاً تحت طلحة بائسة في صحراء «أضاع» والشمس تصهر الأرض. اختفت المدينة ولكنه لم يعد يحس العطش والجوع. فقليل إنه زار واو في حين أنه زار تينيكوتو.

ضحك الدراويش ولكنه كتم ضحكته عندما رأى دموعاً في عيني العساس النحيل. قال البدن وهو ما يزال يهزّ منكبيه انفعلاً بالموال:

- الدراويش لم ير تينيكوتو فما أدراه ما الغربية؟

تكلم المارد لأول مرة بصوت غريب، خافت، مبجوح:

- الدراويش غرباء من أصلهم. الدراويش يولدون غرباء.

انحنى موسى فوق كوم الخطب. انتزع عصاً من الطلح وانطلق عبر الممر. ظلّ يسمع البدن يواصل مواله الحزين بالفتتح: «دي- ي- ي- دا - ا - ا...» حتى أفضى به الممر إلى ساحة السوق الغربي دون أن ينهي الرجل الموال بالأهات الفاجعة التي تسبق الأبيات في ألحان «أساهغ». في الساحة العارية انحرف قرص الشمس غرباً ولكنه استمر يسكب أشعة وحشية سخية. بجوار السور امتدّ ظل قصير فاحتفى به موسى من قساوة الجلاد الخالد. في شق السور المقابل، عند النهايات، تكأكأ رجال البنيان وتسلقوا الجدار. بينهم رأى الخير ينتقل بين البناة ممسكاً بحبل مفتول من الشعر الأسود مشيراً إلى أعلى بعكازه القديم. التفت نحو رجل مجاور فلاحظ موسى أذنه المكشوفة وطريقته المثيرة في لفّ العمامة. على صدغه لمع خيط من العرق. فهقه بصوت عال معبراً عن الدهشة لأنه رأى خيط العرق من هذه المسافة.

توقف عند نهاية الضلفة الغربية من السور ونزع لثامه. مزّق منه طرفاً بمساعدة أسنانه وعاد يلويه على رأسه بإهمال. أخرج السوار من جيبه وربطه بالخيط في رأس العصا. ابتسم لنفسه وهو ينزل المرتفع المشرف على البئر. توقف عند الفوهة وتفرج بحزن على أنقاض التحصينات البائسة التي حاول بها أخوا أن يحمي البئر من غزو الغبار. رفع العصا إلى أعلى فومض تب.

تينبكتو في سوار الذهب: وميض قاس، لعوب، غامض، يخفي أسرار
الأدغال ويوحى بجلال الجن.

ضحك بصوت مسموع. مسح اللعاب بكفه وواصل مسيرته إلى
النجم.

في منتصف الطريق، وراء الرابية المعممة ببقايا البركان القديم، قابل
كوكبة من النساء، يحملن القرب لاستيراد الماء من البئر. بينهن عرف
الشاعرة. بجوارها تتمايل الحسنة «تيميا» التي أقسمت أن تتزوج أوحا
وراهنت، ييقن أدهش القرينات، أنه لن يكون من نصيب بنت الأغراب.
هذا اليقين أفزع الصبايا وجعل العاقلات في النجم يتهايمن بموهبتها في
تعاطي السحر السري، فعاملتها النساء المحربات بما تستحقه من التجليل
والحذر.

بدأن في صعود الرابية عندما باغتهن موسى وكشف عن السوار المشؤوم
الذي برق، تحت أشعة الشمس، بوميض آير المجهول. وميض الأغواء،
الخفي، الواعد، الذي يغمز بألف عين، ويستدرج بألف إمائة، تنتفض له
قلوب العذارى، وترتجف أطراف النساء الخبيرات، لأنهن يتذكرن المهاجر
المنتظر الذي سيقبل يوماً على ناقة، من الغرب، مزدانة بالأساور والأقراط
والقلائد، مصنوعة كلها من ذهب تينبكتو الأسطوري. يلمع النحاس المقدس
ويضيء الصحراء فتهدف له القلوب، يركض خلفه الفتيان وتتبعهم الفتيات.
ينطق المهاجر المنتظر بوعده ويقول إنه سيقودهم إلى واو، فيهرع خلفه الباقون
من ضعاف النفوس طمعاً في الفوز بواو وبالأشياء الجميلة، اللئاعة. ولكن
المهاجر اللئيم يطرح لهم كليماً على هاوية في منتصف الطريق داعياً أتباعه إلى
وليمة موهومة ينال فيها الجمع حصصهم من جواهر الذهب. يتدافع إليه
ضعاف النفوس فيسحب المهاجر بساطه ليتساقط الأنباع في هاوية بلا قاع.

والآن جاء المهاجر بالبريق الخفي.

شهقت الشاعرة وأشاحت بوجهها . تراجعت تميماً برأسها إلى الوراء
فكشفت بحركتها المفاجئة عن عقد من حبات الخرز الملون . ضحك الدرويش
بخبث ومدّ الثعبان المعلق مهدداً . تفرقت النساء واستغاثت بعض الزنجيات
بولولات مكتومة . شاء أن يبالغ في المداعبة فطاردهن بالثعبان الذهبي فتفرقن
هاربات . سقطت القربة من منكب الشاعرة فتركتها عند قدمي الدرويش
واحتمت بتميم . توقف موسى وغرق في ضحكة طويلة حتى انحسر لثامه عن
فمه . هددته تميم المكابرة بسبابتها ، وغمغمت زنجية فرعاء بسبّة فاحشة . فيما
قرأت الشاعرة تعويذة بصوت مسموع .

هرول إلى النجع .

استقبلته «نافوت» في مدخل الخباء . أحكمت لحافها الأسود حول رقبتها
وابتسمت . فاضت عيناها بيهجة ودعته لتناول شاي العشية . كبر الفرح في
عينيهما الكبيرتين . ليس فرحاً . شيء آخر غامض ممزوج ، ربما ، بالفرح .
قالت :

- الدنيا تشتعل وأنت تنتقل في النار . ادخل . الظل اليوم جنة .

- ها - ها . . جلبت الهدية .

بدأ يفك الخيط ويحرر الثعبان من العصا . اختفى التعبير البهيج من عيني
الفتاة . غزت عيناها عتمة . تشرّبت وجنتاها بالشحوب . رأت الشيطان المهاجر
في الثعبان الذهبي ذي الرأسين البشعين فتحرّكت شفاتها الذابلتان بتميمة
قديمة . التيممة الأولى . الدرس الأول الذي يتلقاه الطفل من أمه عندما يبدأ
في تعلم الكلام والحياة فيسمع أنه جاء إلى الصحراء ضيفاً على الجن ، وعليه
أن يراعي تقاليدهم ولا يمسّ ممتلكاتهم حتى يعود إلى المجهول . والذهب
معدنهم المفضل . وامتلاكه اعتداء على حقهم وخرق للعهد المبرم بين
الصحراويين وأهل الحفاء .

ركعت الفتاة على ركبتيها ودسّت يديها في التراب الرامض . نزعتهما

وعادت تهدهد الأرض بباطن كلتا اليدين دون أن تتوقف عن التمتمة الجلية
بالتعاويد. في الخباء غمغم الطفل فسمع الدرويش صوت امرأة تلاعبه بأغنية
كثية. مدَّ السوار فتلقته تافاوت بكلتا يديها. لمع تحت الشمس فنزلت به في
صمت وجلال ووضعت على الأرض. انحنى الدرويش فسقطت قطرة من
لعاب على الحصى فابتلعها التراب العطشان وتبخرت. راقب كيف تملكته
تلك القتامة المبهمة فشاخ وجهها وشقته الغضون.

امرأة عجوز حزينه حلت في تافاوت. أدهشه التحول فركع بجوارها.
اختلط بريق التبر في الثعبان بوميض حبات الرمل تحت أسياخ الشعاع.

همهم موسى:

- لم أظن أن الهدية آثمة. قالت الأميرة إن الله خلق الذهب كي يهديه
الرجال للنساء.

بكى الطفل في الخباء فدللته المرأة بأغنية جديدة. قالت بحزن:

- هذا في آير. يهديه رجالهم لنسائهم في آير. ما أن يشبَّ الفتى حتى
يتعلم كيف يغزو قبائل الأدغال ليأتي بالذهب. لأن نساءهم لا يعشقن رجالاً
لا يستطيعون أن يعودوا بالذهب من الغزوات.

- ولكنها أقسمت أن عين كل امرأة على الذهب.

أكملت تافاوت في خشوع:

- ... يتعذبون، يشقون، يقاتلون، ليعودوا بمعدن النحاس مغموساً
بالدم.

- يفعلون ذلك كي يتقربوا للنساء. هنَّ السبب.

- ... تأتي القوافل من الشمال، من آخر حدود الصحراء، وتحجُّ إلى
تينبكتو لتقايض كل شيء مقابل الذهب. كل الدنيا تسعى إلى تينبكتو. كأنها
واو الموعودة، كي تجلب حصتها من التبر. يعود بعضهم إلى بلدانهم سالمين،

ويهلك الكثيرون في منتصف الطريق .

- كي يرضوا الزوجات والحبيبات . المرأة أصل البلاء .
- ولكن قيلتنا ما زالت على عهدنا . يجب أن تعيد الأمانة إلى أهلها .
- الأميرة؟

- الجن!

ضحك ببلاهة فقالت ببرود خفي :

- عدّ في المساء . بعد المغيب . سندهب معاً .

أخفت السوار في طرف اللحاف ، ودخلت الخباء .

غاب الجلّاد وخلف وراءه حريقاً في الأفق .

عاد في عتمة المساء فوجدها تنتظر في العراء الخلفي . خلف خيائها تمتد
رقعة من الخلاء تفصلها عن الروابي مجموعة من البيوت ومرابط الأغنام .

سلكت الطريق الجنوبي الشرقي المتجه نحو «واو» كي تتجنب
الفضولين .

مشت بجواره صامته . لوت حول رقبتها نفس اللحاف الأسود .

أضفى الحزن قساوة على جمالها فحقق قلب الدرويش لسحره وسره .

قطع طريقهما قطيع من الغنم عائداً من المرعى . تصايح خلفه ثلاثة
رعاة . في الهواء ارتفع القبار ورائحة التيوس . سدّ موسى أنفه بلثامه وسأل :

- لم أر «أوداد» منذ شهور . مضى عمر على وعده بأن يعلمني الغناء .

- لم أره منذ عام . عاد من رحلة إلى تاسيلي وذهب إلى أبراجه المعلقة في
تادراوت . ولكن عشقه للجبال لم يمنعه من أن يحوم حول ديار الأميرة .

- ها - ها . . .

- كلكم تحومون حول «واو» كما تحوم الفراشات حول النار .

حذجته خلسة وأضافت :

- الأميرة نار ستحرقكم جميعاً. أتم بلهاء ولا تعرفون بنات آير.
- ها. نعرف أنهن اخترعن السحر. . . . نعرف أنهن أول من سخر
الذهب في أغراض السحر.
- ما فائدة أن تعرف وتحري، مثل الآخرين، وراء الموكب!
- أنا؟!

نشجعت بالعتمة فحدجته بنظرة مجهولة. وراء الجبال البعيدة أعطى
القمر إشارة بالقبس فقال تافاوت:
- مكتوب في آني أن يوماً سيأتي يخون فيه الصحراويون العهد.
يقايضون الفضة مقابل الذهب، فويل لمن باع أعضاء القمر مقابل تبر
النحاس.

- أجزاء القمر؟
- نعم. الفضة. عملة الصحراء منذ الأزل. عندما ماتت تانس واختفت
ملكة الصحراء انتقلت جدتنا الحسنة وأقامت على القمر. من هناك أرسلت
للناس قطعاً من جسد القمر كي تقيم لهم الدليل بانها خالدة على أجمل
كوكب. الفضة عملة مقدسة لأنها عطية من تانس. لون الفضة حزين مثل
القمر، مثل وجوه الصحراويين، مطفاً وحزين عكس الذهب اللباع اللعوب.
دحرج موسى بنعله حجارة شرسة. انحرفا يساراً قبل أن يبلغا روابي
البئر. قال الدرويش:

- ولكن المملكة. . أين اختفت المملكة؟
- من يدري؟ ربما لم تختف. يقولون إن مملكة تانس هي واو الموعودة.
- وهل اختفت واو؟
- من يدري؟ يُقال إنها ما زالت موجودة في مكان ما في الصحراء.

رآها القليلون ولكنهم يخفون السرّ ولا يتكلمون أبداً. ويقول البعض إنها
اختفت منذ أخرج منها السلطان جدنا الأول مطروداً. ويؤكد هؤلاء أن شهود

العيان الذين يدعون أنهم فازوا بالدخول إلى واو لم يدخلوا في الحقيقة إلا مدن الجن.

- وهل مدن الجدن كثيرة حقاً؟

حدجته باستنكار قبل أن نجيب:

- مدن الجن في الصحراء أكثر من مدن الإنس. وها نحن نطرق أبواب أقدم عواصم الجن.

بدأت تتمتم بالتائم والأدعية.

أفضى العراء إلى واد مكسو بتجاعيد رملية ونباتات يابسة تلتصق بالأرض كأنها تفتش عن النداء وتستجدي الماء. سارا عبر الوادي شمالاً. رأى موسى شبح «ايدكران» يقود ناقته العجفاء عائداً من المراعي. قطع الوادي الشاحب واتجه غرباً كي يتجنب قدم الجبل الوعر ويأوي إلى مغارته من الجهة الأخرى. سمعه يدرج الحجارة بمداسه ويرطن بأبيات بلغة بامبارا، فلم يعرف موسى ما إذا كان الغريب يغني أم يقرأ بعض التعاويذ.

بلغا قدم الجبل.

على ظهرهما سلط البدر ضوءاً بكرأ، باهتاً، تسلق سفح الجبل في خجل. توقفت نوافوت بجوار كوم من الحجارة. قبر قديم مستدير. غرقت في ترديد الأدعية والتعاويذ. عمّ سكون الأبدية فلم يسمع موسى سوى همسات نوافوت الغامضة. حلت عقدة لحافها وأفرجت عن السوار الذهبي الملفوف في قطعة من الجلد. التفت نحوه وهمست:

- ردد ورائي، وإفعل كل ما أفعل..

استمرّ يراقبها بدون اكتراث. ركعت بجوار القبر ورفعت رأسها بخشوع نحو الصرح السهوي المربع. أشعة البدر المبكرة أغرقته بفيض الضياء فازداد جلالاً وغموضاً. رددت بصوت مستعار:

- باسم «آمان»^(*) الذي يجري في عروقنا.

وجرت السوار فوق معصمها الأيسر متابعة عروق الدم. أفلت موسى ضحكة مكتومة فأسكتته بنظرة فرع. ردد وراءها: «باسم «آمان» الذي يجري في عروقنا».

- باسم «آضو»^(**) الذي نتنفسه.

ونفخت في السوار بأنفاسها. ردد الدرويش: «باسم «آضو» الذي نتنفسه».

- باسم «أمضال»^(***) الذي خلقت من ترابه أجسادنا.

ومررت السوار فوق صدرها وركبتها. ردد موسى: «باسم «أمضال» الذي خلقت من ترابه أجسادنا».

- باسم «ايكدي»^(****) الذي أقام عودنا وجعلنا ندبُ على قدمين.

وضربت بالسوار على أسنانها أولاً، ثم على عظام معصمها الأيسر. ردد وراءها: «باسم «ايكدي» الذي أقام عودنا وجعلنا ندبُ على قدمين».

حفرت حفرة صغيرة. وضعت داخلها السوار وأهالت عليه التراب. أنزلت اللحاف على وجهها وقرأت التائم طويلاً. وعندما نهضت وودعته للانصراف رأى الشيخوخة في وجهها كما رآها لأول مرة قبيل العشية عندما وضع في يدها «الهدية». قال مداعباً:

- لم أعرف أنك ساحرة. كل سكان الكهوف سَحرة. ها..

حذّره بصرامة:

(*) آمان: الماء.

(**) آضو: الريح، الهواء.

(***) أمضال: الأرض، التراب.

(****) ايكدي: الحجر (تماق).

- لا تلتفت! إياك أن تلتفت!

- ها - ها .

- لا تضحك. يجب أن تكفّ. في مثل هذا الوقت لا يليق بالدرويش أن يكون طفلاً.

اتجها شرقاً كي يتجنبنا بيوت الفضوليين فارتفع في مواجهتهما قرص البدر الفضي، المطفأ، الحزين.

(٤)

طوّق السور فوهة البئر وانتهى «إيمستغ» من عمله. طاف النذير الأعمى بالبيوت وبشرّ بنية السلطان في إقامة الوليمة.

في الصباح انفلت الريح وجاءت أمواج القبلي بالغبار والأعشاب البرية اليابسة. خرج النذير مع غزوة القبلي الأولى. اهتدى بعكازه المصقول، المكسو بتنوءات بارزة كالدمامل، وتسكّع في النجع بقامته القصيرة، وثيابه البائدة ذات الأكمام الواسعة، يأوي إليها الريح. تنتفخ كالقربة، فتدفعه في الاتجاه المعاكس حتى يترنّح ويكاد يسقط على الأرض. ولكن النذير لا يتوقف عن ترديد النداء: «عاقلكم ينّبّه غافلکم. حاضرکم يبلغ غائبکم...». يتلح الريح الصوت، يطير بالنداء إلى قمم «إيدينان» ليلقيه في سمع الجن. يعيد النذير النداء، ويعيد، لأنه يعرف حيلة الريح، ولأنه يعرف أيضاً أن للجيرة حقاً، والجن أيضاً مدعو لحضور الوليمة. يكرر البشارة لسمعها كل الناس. يحسّ بالحرق في حنجرته ولكنه لا يكفّ عن النداء حتى تسمع العجائز والشيخوخ الذين أصابهم العجز بالصمم وأثقل الزمان سمعهم. أنقل طول الإصغاء للسكون الصحراوي الأبدي آذانهم وأنساهم صوت الإنس، لغة الإنس التي تتحول معها المفردات إلى طنين ذباب أو كتلة من الضجيج. وهو، النذير، الأعمى، الوحيد، الذي فقد البصر منذ الصبا، يعرف معنى أن يكون الصمت تسليية وحيدة. يعرف أن العجائز والعميان

فقط يفهمون لغة السكون.

لحق به الدرويش. أمسك بجلبابه المنفوش وأسنده من الناحية الأخرى كي يعدل توازنه ويعاونه في دفع الريح. وضع في يده جراباً جليداً. فاحت منه رائحة لذيدة. رائحة سمن و.. فطائر.

همس موسى:

- فطائر بالسمن وحبّات تمر. لم أرك منذ زمان.

ابتسم النذير وتوقف عن النداء. وضع الجراب في مخلاة صوفية تتدلّى على كتفه مستورة تحت الجلبات الواسع. ضغط على يد موسى وقال بصوته المهيّب:

- لئلا ينقطع الخير في الصحراء ما دام فيها دراويش.

- ها - ها - ها -

مرّاً بجوار خيمة الزعيم فسمع موسى نداء. اقترب منها زنجي مكشوف الفم وأخبر أن الزعيم يريد أن يتحدث إلى الدرويش.

زعم موسى بـ «ها». وركض نحو بيت الزعيم دون أن يحسّ النذير بكلمة وداع. قبل أن يبلغ خيمة الشيخ بخطوات سمع النذير يرفع صوته الجليل، المبحوح، الجميل، كأنه دعاء فاجع يلقيه الأعمى في يد الريح كي تبلغه إلى السميع المجيب في المجهول. يقترب الصوت الفخيم ويتعدّد حتى يغيب تماماً لأن الريح تستقطع حصتها لتبلغ نداء آخر، يخفيه النذير في البشارة، غير الدعوة إلى حضور وليمة مهاجر واو.

أجلسه الزعيم بجواره. في المدخل تجمّع عدد من العبيد، يدقون أوتاداً إضافية لثبيت جناح الخباء الأمامي. في الزاوية تربّعت فتاة خلاسية حول صينية الشاي. ابتسم موسى وهو يراقب حصن الحجارة الذي طوّقت به الفتاة البارعة حفرة النار كي تحمي أطراف الخيمة من شظايا الجمر وشرر النار التي تنطير كلما تنفس الريح في ثقوب الخباء.

بدأ الشيخ :

- قيل إنك عدت من زيارة إلى واو .

- ها - ها . أنا أدخل واو وأعود كل يوم ، وربما كل يومين .

لم يتعود الزعيم أن يستعمل لغة الإيماء مع الدرويش ولكنه وجد حرجاً
هذه المرة . ثنى طرف الكليم ليصل إلى الرمل . رسم مثلثاً في شكل هرم
وقال :

- ولكن الزيارة الأخيرة اختلفت عن الزيارات السابقة . هم . .

التفت موسى مستفهماً . رفع الشيخ رأسه فرأى الدرويش ما أخفاه الزعيم
في العين . هتف :

- ها . نعم . لقد عدت من هناك بسوار من الذهب .

ابتسم الشيخ وقال بتأنيب :

- ولماذا لم تخبرني بأن السلطان يتعامل بالذهب؟ أنت تعلم ما يجلبه هذا
المعدن الخبيث من سوء للصحراء .

- الحق أني كنت أشك في البداية . دخلت مرة إلى الرواق السري فطردي
العسس ولكني لم أتيقن أن ما يسكّه الحدادة ذهباً إلا بعد أن أعطتني الأميرة
السوار مقابل خدمة أديتها .
- خدمة؟

- وصية . ولكن ذلك سرّ .

وضعت الصبية بينهما صينية الشاي . عليها صُفّت ثلاثة كؤوس داكنة ،
حاصرة من الرغبة . رشف موسى من كأسه وأعادته إلى الصينية النحاسية .
اشتكى :

- مرّ . الشاي مرّ . سأشرب من الدور الثاني .

هبت موجة من الغبار . صفقت أجنحة الخباء كأنها تنوي أن تطير .

قال الزعيم :

- طالما سمعت أن واو المزعومة قامت بالذهب ولكني لم أصدق ..

- أنا أيضاً سمعت .

- هل سمعت مثلي بأن الوباء تسلل إلى دارنا أيضاً؟

غرق الدرويش في ضحكة طويلة . مسح دموعه بطرف لثامه وقال
مازحاً .

- هذا استدراج . ليس من السهل يا شيخنا أن يُستدْرَج الدرويش
للشرك حتى لو كان الذي يمسك بالشبكة هو الزعيم نفسه . ها - ها .

- الصديق لا يستدرج صديقاً حتى لو شك في نواياه .

رمق الشيخ بخبث ثم قال :

- يحزنني أن أخبر شيخنا أن شكوكه صحيحة . الوباء تسلل من زمان .
منذ الأيام الأولى .

- هل هو ظن؟

- ها . شيء من هذا . وربما يقين . أراهن أن العرّافة تكتنز الذهب منذ
وصول المهاجرين .

- العرّافة؟!!

أعقب السؤال بضحكة قصيرة ثم قال مداعباً :

- لا بدّ أن يغتنم الدرويش الفرصة كي يرمي العرّافة بحجر .

- العرّافة مزيفة . هل نسيت أنها رفضت أن تعقل الريح؟

توقف الزعيم عن تخطيط الأرض . تناول كأسه ورشف الشاي في ثلاث
جرعات . قال :

- عَجَّزَني بشرط . طلبت رأس إنسان مقابل ذلك .

- رأس إنسان؟

هزَّ الشيخ رأسه بالإيجاب فازدادت عين موسى الحولاء بياضاً. همس
لنفسه بغضب:

- المجوسية!

علّق الزعيم بحزن:

- لا أظن أنها المجوسية الوحيدة. إذا عرف الوباء طريقه إلى النفوس
فتهياً للدخول في معبد المجوس.

في الخارج عوّى الريح وأق بصدى بعيد لنداء النذير.

سأل الشيخ فجأة:

- ماذا فعلت بالسوار؟

- ها. علّقته في طرف العصا كما كنت أفعل مع الأفاعي في الطفولة
وأفزعته به الصبايا. ها - ها . .

- . . .

- ثم . . فعلت به ما يجب أن يفعله أي رجل بالمعدن اللعوب: قررت أن
أخطف به قلب المرأة فأعطيته لتافوت. ها.

باغته الزعيم بنظرة ذات معنى فواصل الدرويش بانكسار:

- ولكنها وهبته للجبل بدل أن تضعه في المعصم.

سكت الزعيم. بدأت الفتاة تخلط الدور الثاني من الشاي. في الخارج
صفّر القبلي في الخلاء فارتجفت أطراف الحباء وصفعت الأرض كأنها تنوي
الرحيل.

سأل الزعيم:

- هل رافقتها إلى الجبل؟

هزَّ موسى رأسه بالإيجاب وأخفى فمه بطرف لثامه. دمر الشيخ رسومه
على الرمل بحركة واحدة وقال بغموض:

وَتُصَابُ قِطْعَانُ الْمَاعِزِ عِنْدَ سَمَاعِهِ بِالشَّلَلِ . نَدَاءٌ تَقْشَعِرُ لَهُ أَبْدَانُ الرِّعَاةِ ،
وَتَلْقَنُ الْعَجَائِزُ أَطْفَالَهُنَّ بِحِيلِهِ وَطِبَاعِهِ مِنْذَ السَّنَوَاتِ الْأُولَى . وَيَحْظِي بَيْنَ
الشُّيُوخِ بِتَبَجُّلٍ لَا يَلْقَاهُ عِنْدَهُمْ إِلَّا أَهْلُ الْخَفَاءِ .

الْحَيَوَانُ الْوَحِيدُ الَّذِي يَسْتَوِي عَلَى حَصَةِ الْأَسَدِ فِي رَوَايَاتِ أَهْلِ الصَّحْرَاءِ
وَقَصَصِهِمْ . يَنَادُونَهُ بِالْفِ اسْمٍ ، بِالْفِ كُنْيَةٍ ، بِالْفِ لَقَبٍ ، إِلَّا اسْمَهُ الْحَقِيقِيَّ .
لَأَنَّ النَّطْقَ بِاسْمِهِ عَلَى اللِّسَانِ دَعْوَةٌ لَهُ ، وَكُلُّ لَفْظَةٍ «إِيْجِي» (*) فِي فَمِ طِفْلِ ،
أَوْ عَجُوزٍ ، أَوْ رَجُلٍ ، تَقْرَبُهُ مِنَ الْقَطِيعِ أَلْفُ خُطْوَةٍ . «إِيْجِي» : الْاسْمُ الْحَرَامُ
الَّذِي يَجَاهِدُ الْعَرَّافُونَ وَيَنْفِقُونَ كُلَّ مَا أَوْتَوْا مِنْ عِلْمٍ خَفِيٍّ كَيْ يَعْقِلُوا سَيْفَانَهُ
وَيَعْمُوا بَصَرَهُ وَبَصِيرَتَهُ وَيَبْعِدُوهُ عَنِ الْقَطِيعِ . يَقُولُونَ إِنَّ ذَلِكَ يَأْخُذُ مِنَ الْجَهْدِ
أَكْثَرَ مِمَّا يَأْخُذُهُ إِعْدَادُ عِقَالٍ لِأَقْوَى شَيْطَانٍ فِي الصَّحْرَاءِ . وَبِرْغَمِ ذَلِكَ فَلَيْسَ
ثَمَّةُ أَسْهَلٍ مِنْ بَطْلَانِ هَذِهِ التَّعْوِيدَةِ . يَكْفِي أَنْ يَنْطِقَ غِلَامٌ شَقِيٍّ بِالْاسْمِ
الْحَرَامِ لِيَتَفَسَّخَ الْحِجَابُ وَيَدْخُلَ الْحَيَوَانُ فِي الْقَطِيعِ . وَإِذَا دَخَلَ فِي الْقَطِيعِ فَإِنَّ
النَّارَ اشْتَعَلَتْ فِي الْقَشِ . يَقْضِي عَلَى الْقَطِيعِ كُلَّهُ قَبْلَ أَنْ يَنْتَهِيَ الرَّاعِي مِنْ
إِتْمَامِ الشُّطْرِ الْأَوَّلِ مِنْ أَغَانِي «أَسَاهِغ» .

وَلَكِنَّ الرِّعَاةَ الْحَكَمَاءَ هُمُ الْوَحِيدُونَ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ السَّرَّ فِي صَوْتِهِ أَيْضاً .
يَعْرِفُونَ مَتَى يَكُونُ جَائِعاً ، وَمَتَى يَكُونُ شَبَعَاناً . يَعْرِفُونَ أَنَّ فِي نَدَائِهِ حِيلَةً : إِذَا
شَبَعَ بِكَيْ ، وَإِذَا جَاعَ ضَحَكَ . وَيَقُولُونَ إِنَّهُ يَصِيحُ بِعَوَاءٍ فَاجِعٍ عِنْدَمَا يَشَبُعُ
لَأَنَّهُ يَعْرِفُ أَنَّهُ سَيَجُوعُ طَوِيلًا قَبْلَ أَنْ يَفُوزَ بِضَحِيَّةٍ أُخْرَى . وَيَصِيحُ بِنَدَاءٍ
مَرِحٍ ، بِهَيْجٍ ، عِنْدَمَا يَجُوعُ ، لَأَنَّهُ يَعْرِفُ أَنَّ الْجُوعَ مَهْمَا طَالَ فَسَوْفَ يَنْتَهِي
بِوَلِيمَةٍ مِنَ الْحِمْلَانِ وَيَعْقِبُهُ الشَّبَعُ . وَلَا أَحَدٌ غَيْرُ هَؤُلَاءِ الْحَكَمَاءِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمَيِّزَ
حَالَ هَذَا الْوَحْشِ وَيَقْرَأَ لَغْتَهُ فِي الْعَوَاءِ .

نَزَلَ الْوَادِي مُهْتَدِياً بِرَائِحَةِ الدَّمِ وَالزَّيْتِ . وَ . . رَائِحَةُ إِنْسَانٍ مَا زَالِ
يَتَنَفَّسُ .

(*) إِيْجِي : الذَّنْبُ (تَاهَق) .

كان صغيراً. في حجم جدي بلغ من العمر ثلاثة أشهر. في حجم ثعلب بالأصح. أشعث، مكسواً بشعر كثيف، شاحباً، بلون حجارة السهول، في الصحراء الجنوبية. كلما تحمس الأرض بَخَطْمه الشره المستطيل، مقتفياً الآثار، باحثاً عن الدم والحياة، كشف فكاه عن نايتين بارزين شرسين. هذا هو المخلوق الذي يبجله العقلاء وتنسج العجائز حول شراسته وقوته الأساطير، ويُحَرِّم على الصحرَاويين أن يدعوه باسمه الحقيقي، ويقضي العرَّافون العمر كاملاً كي يؤلفوا ضده تيممة تعميهِ وتضلِّل سبيله إلى القطعان. موخامد! هذا هو اسمه المستعار. بهذا الاسم المستعار خاطبه الدرويش أيضاً من فراش الموت، في تلك الليلة التي عان فيها القمر من التعب والشحوب. في البداية، عندما عاد له الوعي، لم يعرف أين هو ولا ماذا حدث ولا كم مضى من الوقت وهو صريع في هذا الموقع. أحسَّ فقط بالدوار وألم لا يُطاق أسفل السرة. حلقه جفَّ وفمه تبخَّرت منه آخر قطرة لعاب. في أنفه اختلطت رائحة الشياطين بالدم بدخان الحطب. وقبل أن يفتح عينيه ويبصر القمر الشاحب كان ضيفه ينهمك في عمل مقدس قديم ورثه عن أجداده القدماء. أبلغوه في الوصية أن يتعد عن الصحرَاويين، وشددوا في التحذير من مواجهة الناس. لأن لؤمهم وخبثهم وحيلتهم حيرت الخالق نفسه. وأباح الوصية المُبَاغَةَ. إذا هجع الإنسان فإن نومه ثقيل. ولكن أن يهجع لا يعني أنه نائم أيضاً. يتوسد التراب وتتنظم أنفاسه، وقد يهدم مثل ميت، فإذا اقترَب الذئب أصابه بأذى. هذه حيلة أخرى من حيل الإنسان اللئيم. مع الحيلة لا تنفع سوى الحيلة. فإذا وجدته هاجعاً فيجب أن ترجمه بالتراب كي تتأكد أنه نائم. فإذا لم يتحرك فتأكد أن نومه عميق. إحفر تحت رأسه حتى يتدلَّى رأسه وتبرز عظمة حنجرتِه في الرقبة. عندها فقط تستطيع أن تخاطر وتترع العظمة بأنيابك التي لا تُقارن، في قوتها وخفتها، لا بعقل الإنس ولا بسلطان الجن.

ركع القمر المتعب. أرسل إلى الخلاء بضياء شاحب فتضاعف غموض

الصحراء. تفقّد «موخامد» الموقع. تحسّس بخطمه الأرض. ابتعد عن الجمر الخائب بقفزة فزع. ثم عاد واقترب من الضحية. يحذر. شمشم التراب وتناول حفنة بين مخالبه. استدار إلى الخلف ورشق الدرويش بالرمل في وجهه. انتظر ردة فعل الإنس لحظة. عاد يدير ظهره للضحية ويهيل على وجهه وجسده حفنات سريعة، كثيفة، متتالية، من الرمل. في هذه اللحظة انتفض الجسد وبعث الدرويش من صدره حشرة الموق. تراجع «موخامد» خطوات إلى الوراء. أنصت للسكون وأنفاس الجسد وأقعى على ساقيه الخلفيتين وانتظر. فتح موسى عينه الحولاء فرأى الضيف الجليل يجلس فوق رأسه بمهابة حاجباً وجه القمر المتعب. تتمم الدرويش:

- هل هذا أنت يا موخامد؟

لم يتحرك الشيخ فواصل الدرويش بصوت متقطع:

- هل جئت كي تعيد الحفيد إلى عشيرة الأجداد؟

تراجع «موخامد» خطوات أخرى. توقف بجوار طلحة وأقعى على ساقيه الخلفيتين متفكراً، محاولاً أن يجد في رموز الوصية القديمة جواباً على سؤال الضحية المدهش. ولكن ذاكرة الدرويش كانت أصفى وأنقى، ربما لأن غيبوبة الموت تطهّره من عتمة الشر وتقربه من الحرم. تعيده إلى أصله البتول فيجد نفسه على أبواب واو الأولى. «واو» البداية و«واو» المنتهى.

تذكّر الدرويش في غيبوبته نسب الجدّ. جد الدرويش الذي ضاع في الصحراء مع أمه وأبيه. مات الأب والأم بالعطش وتبنت ذبّة تربيته مع صغارها في الجبل. سقته من حليب نديها ومزّقت بأنباها الخرافية ثعباناً كان ينوي أن يخنق الطفل الشقي بجسده الكريه. كبر جد الدراویش في رعاية الذئاب وتعلّم لغة الوحوش. تعلّم أن يضحك في العواء إشارة الجوع ويبكي في العواء إشارة الشبع. علّمته الذبّة الرحيمة كل حيل الذئاب. حتى جاءت حواء.

نزلوا قطعاً مهيباً على وادٍ غني بشجر الرتم. شمت الذئاب رائحة الأغنام وقرر الحكماء أن يفتنموا الفرصة ويغيروا على القطيع قبل أن يتوصل عرّافو النجم إلى إعداد العقال ويتتهوا من رموز التعويذة. أغار معهم الجّد وهجم على معزة يريد أن يمسخها بمخالبه ويخنقها بأنابيه. هنا رأى.. حواء. وقفت الراعية مذعورة. تمسك بعضها من الصدر، تحيط خصرها النحيل بحزام من الجلد. على صدرها البكر تهذّل الأحجة الجلدية وجدائل من الشعر الفاحم، ضُفرت بدقة وعناية. انسكبت عليها أشعة الغسق فلمع في الجدائل الدهن بوميض من تبرٍ. في عينيها دهشة وعلى شفتيها البنفسجيتين المتوترتين فزع. ارتخت أظافره الشرسة القابضة على عنق المعزة الشقية فأفلتت ولكنها وقفت في مكانها مذعورة كأنها لم تصدق النجاة. ولكن الراعية الحسناء استمرت تتراجع. وكلما خَطّت خطوة إلى الخلف كلما زحف الجّد وراءها خطوة. اصطدم قفاها ببقايا أثلة قديمة ميتة، أكلها التراب وزحف على رأسها الرمل والملح، فوقعت على ظهرها. اقترب منها ووقف فوق رأسها. تحس جسدها الناعم «بمخالبه» الخشنه فأغمضت عينيها من الفزع. لم يكن يعرف ماذا يفزع هذا المخلوق الجميل. لأنه لم يكن يعلم أن مَنْ عاش مع الوحوش ورضع من حليب الذئاب هو ذئب ووحش. ولم تكن هي تعرف أن خلف هذه الكتلة القبيحة من الشعر والأظافر يرقد قلب درويش بريء أضع الطريق إلى واو فوضع من حليب الذئاب. لم تكن الراعية المسكينة تدري أن الإنسان مهما تاه في البرية الأبدية فلا بدّ أن يجد الطريق إلى حواء، لأن المرأة هي المخلوق الوحيد الذي يستطيع أن يعيد الوحش إلى حظيرة البشر حتى لو كان درويشاً من فصيلة الذئاب.

في ذلك المساء، في عتمة المغيب، عاد الوحش إلى الناس. استطاع جسد الراعية الناعم أن يذكرّه بالناس ويعيده إلى الواحة التي تغرّب منها قبل أن يعي الحياة.

في الليل لم يشارك الجّد إخوته الذئاب احتفالهم بالغنائم. جلس على

رؤوس أصابعه وغرس «مخالبه» الأمامية أمامه في التراب وحدّق في الظلام. أحسّ بأن عصفوراً صغيراً شقيماً يغني في صدره ويرفرف بجناحيه. أنصت لغناء الطائر العجيب دون أن يعرف أن الطائر هو قلبه بلغة البشر، وغناءه هو حنين الرجل الأيدي للانفصال عن الأم والالتصاق بالمرأة، بأنثى أضاعها عندما خرج من كهوف المجهول.

الذئبة الأم فقط فهمت السرّ. لأنه لا شيء أبداً يستطيع أن يمنع الذئب من الاشتراك في وليمة الأغنام إلا إذا كان يخفي في صدره قلب إنسان مرهوناً في مكان آخر غير الصدر. راقبت أولادها وهم يتخاطفون قطع اللحم الدامية وأحسّت بالحزن.

في الفجر هرب الدرويش إلى النجع. وكانت الأم تحس بأنه سيفعل ذلك. اقتفت أثره وصعدت الرابية. فتحت فكيها بالدعاء الفاجع:

- عو - و - و - و - عو . و - و - و - و - و . . .

تصدى الجبل البعيد للصوت فعاد الصدى اليها، فاجعاً، أكثر مما مضى .
رفرف العصفور في قلب الإنس الهارب وعاد إلى أمه . دس رأسه في صدرها
وقال لها إنه لن يستطيع البقاء . قالت له بلغة الذئب إن قدره حكم عليه أن
يعيش ممزقاً بين النقيضين : الإنسان والحيوان ، المنفى والأصل ، الجسد
والقلب . ولن يجد السكينة إلا إذا حدث المستحيل وتوحد النقيضان . وإذا
ظن أن التغرّب عن الأم التي أرضعته من حليبها ليلتحق بالأنثى ، ليلتصق
بالمرأة الأخرى سيهديه إلى السكينة فهو واهم . إنه يهرب إلى الخلف ، إلى
ظلمات الكهف الأول . إلى الخواء والجنون . ثم اقتربت منه وهزّته بمخالبها
الأمامية وقالت بلغة قاسية ، واضحة : «مَنْ زرع الشرّ في صحرائنا التي لم
يخلق الخالق بقعة تنافسها في الجمال والروعة : الإنسان أم الذئب؟ مَنْ أباد
الغزلان وقضى على الودّان : الإنسان أم الذئب؟ مَنْ استنزف مياه الآبار
وأفسد عيون الماء : الإنسان أم الذئب؟ مَنْ نزع الأشجار الصحراوية من

جذورها وأحرق النبات وخرب العشب: الإنسان أم الذئب؟ مَنْ تجاسر وقتل طيوراً غير ذات نفع، الغربان والغرائق وأصغر العصافير: الإنسان أم الذئب؟ مَنْ رفع يده وقتل أمه وأخاه وأباه: الإنسان أم الذئب؟ والآن: مَنْ منّا الوحش: الناس أم الذئاب؟ أنت تهرب من عشيرة وديعة لا تبحث إلا عن لقمة صغيرة مرة في الشهر فقط كي لا تموت من الجوع، وتلجأ إلى عشيرة تأكل بلا جوع، وتشرب الماء إسرافاً للماء، وتخرب بلا حاجة، وتقتل بلا سبب». فقال الدرويش باكياً إنه لن يستطيع أن يقاوم النداء، لأن الطائر في صدره طار ودخل في الراعية الحسنة، وجسده البشع فقط بقي هنا، في السهل، معها. فهمت الأم المسكينة أن الإنس لا بد أن يعود إلى حظيرة أهله، كما يعود الذئب من نجوع الناس إلى قطيع الذئاب. عانقته طويلاً ولكنها أخفت دموعها. وعندما غاب الدرويش خلف الروابي، يمت شطر القبلة ووجهت خطمها الطويل إلى القبس الفجري الصحراوي البكر وفتحت صدرها للشكوى والفجيعة:

- عو-و-و-و...

ويروى أن عواء الوداع استمرّ عاماً كاملاً، وفي روايات أخرى اثني عشر عاماً. أصبح النداء الفاجع، منذ ذلك التاريخ، لغة الذئاب.

سمع موسى قصة هذا الاغتراب، وعرف، منذ الطفولة، كيف تزوج جدّه الأول من الراعية الحسنة بعد عودته من حياة الذئاب. والآن، تذكر هذه القصة ليس لأنه رأى ذئباً فوق رأسه. ولكن لأنه تخلّص من العضو الذي كان سبباً في هروب الجد من أمه، العضو الشيطاني الذي أغواه بالراعية وجعله يحرق قلب أم التقطته من العراء وأنقذته من العطش وآوته ومنحته الأمان والحياة. لم يستطع أن يمنع نفسه من الحق على جدّه الأبله منذ سمع هذه القصة المخجلة. واليوم انتقم لجدته وحزّ سبب الغربة. لعق شفته بلسانه محاولاً أن يربط فمه ويستحلب اللعاب. تتمم بجهد:

- الآن تستطيع أن تبشّر جدتنا بأنّي فضلت العودة إلى عشيرتنا وهذا هو البرهان . خذه وأخبر جدتنا برغبة الحفيد الضال في العودة إلى العشيرة .
و . . أغمي عليه من جديد .

(٦)

في الصباح التقطه رجال البكاي وحملوه إلى الزعيم . أقام شيخ القبيلة وليمة كي يعتني بالمرضى . أمر زنوجه وأتباعه فنصبوا خباء خاصاً لاستقبال الزوّار . نحر الذبائح واشترى من أسواق «واو» الطعام والسكر والشاي لإطعام الضيوف والاحتفال بالوافدين المهنتين بسلامة الدرويش من عدوان الذئاب .

هكذا أشاع الزعيم . أو هذا ما أراد الدرويش أن يسمعه الناس من فم الزعيم . فبعد أن جاء به التجار وتلقاه آده في خبائه تبادل مع الشيخ نظرة طويلة خفية أثارت دهشة رجال البكاي . نظرة أودع فيها موسى سرّه وتوسّل بها للزعيم أن يكتّم هذا السرّ دون أن يضطر لاستعمال الكلمات . لأنه يعرف أن الشيخ هو المخلوق الوحيد في السهل الذي توقع ، ربما بخبرته ، وربما بموهبته ، انه سيفعل شيئاً بقلبه ربما أكبر مما فعل . والحق أن ما رآه في عيني صديقه النبيل من المرونة فاق توقعاته هو نفسه . انتظر أن يرى الإدانة ، أو اللوم ، أو الغضب ، ولكنه لم ير في تلك اللحظة الخاطفة التي تقابل فيها بصريهما ، سوى الألم .

أنزله من الجمل ثلاثة رجال بحذر شديد ، ووضعوه في الخباء ملفوفاً في بطانية رمادية أكل الاستعمال لونها الأصلي فبهتت ومالت إلى البياض . توقف الزيف في الليل ولكن ثوبه كان مبقعاً بالدم والزيت . من ثيابه انبعثت رائحة الزيت والشياط فذبل وشاخ واسودّ وجهه تماماً . على نهايتي شفتيه برزت طبقة رقيقة من الزبد الناصع ، انحسرت الشفة العليا عن أسنانه فازدادت بروزاً وتواءماً . العينان مطفأتان ، تدور فيهما مقلتان كبيرتان من البياض . ينتفض

ويرتجف بقشعريرة الحمى ويحطم رأسه الصداع والوهن.

استدعى الشيخ عجوزاً زنجية، جاءت تحمل أوعية خشبية دست فيها مرهم الأعشاب ومستحضرات العطارين والعجائز. لفته بالأغطية في زاوية الخباء ودست يداً ملوثة بمرهم لزج بين رجليه فأطلق صرخة أليمة. قال أحد التجار:

- حول رأسه الذئب طول الليل.

دعاهم الشيخ للبقاء ولكنهم اعتذروا خشية أن يتأخروا في بلوغ مرزق. حيث ينتظرهم الحاج البكاي. شيعهم الشيخ حتى قدم الجبل ثم عاد فوجد المريض يهذي بالحياة الرائعة التي عاشها في عشيرة أجداده الذئاب. ظلت العجوز ترم شفتيها باشمئزاز وتحجج الشيخ خلصة حتى قال لها بصرامة:

- لقد هاجمت الذئاب في وادي الطلح.

حدجته بشك فسدد لها نظرة صاعقة. تمتت بفزع:

- نعم. نعم. هاجمت الذئاب.

قال وهو يقف في المدخل ويستعد لإقامة الطقوس للمهثئين:

- هل أنا الذي أخبر بأن الذئاب حامت حول رأسه طول الليل؟ هل أنا

الذي يرقد في الفراش وهذي بالحياة الممتعة في عشيرة الذئاب؟

رددت العجوز كالطفل:

- هاجمت الذئاب في وادي الطلح.

وسكنت إلى الأبد.

جاءت مربية موسى العجوز وبكت فوق رأسه طويلاً حتى اضطرب الزعيم أن يخرجها من الخباء بالقوة. جاء الشيوخ والعجائز، والفتيات والصبيان. جاءت تامغارت وتافاوت وأوخا وآخاد والإمام والنذير و... العرافة تيميط.

ولكن العرّافة لم تدخل الخباء . وقفت بجوار الأوتاد الخلفية ترافقها مجموعة من النساء وراقبته من شق في الخيمة . بعد أيام جاء «أوداد» من الجبال وركع بجواره طويلاً دون أن ينطق بكلمة . عيناه شقيتان ونظرته خاوية ، حزينة ، غائبة . حتى أن موسى ظن أنه مريض . وعندما سأله عن حاله ابتسم بكآبة وأوماً بأنه سعيد . اشتعل جسد الدرويش بالحمى وغاب في آلامه فتسلل أوداد وسافر إلى تادراوت .

وفي اللحظات التي يسترجع فيها موسى وعيه تعمّد أن يبالغ في وصف قطع الذئب الذي هاجمه في وادي الطلح حتى أيقنت القبيلة (التي تعرف غربة الدراويش عن أصلهم القديم) أن الوحوش جاءت كي تستعيد حفيدها ، وعندما قاوم موسى هاجمته وجرحته أسفل السرة . ولم تكن الألسن المتعطشة دائماً لاختلاق الخرافات ، تحتاج إلى دعم آخر كي تصنع من هذه القصة أسطورة جديدة . بعد أيام ، في قلب الليل ، جلس الزعيم بجوار مريضه فقال موسى :

- أنا لم أكذب . لقد زارني الذئب حقاً بعد الطهارة .

طاطاً الشيخ رأسه ومدّ النار الخابية بقبضة من الأعواد . تكسرت أعواد الحطب في النار وخذشت سكون آخر الليل .
همس الدرويش كأنه يكلم نفسه :

- لو لم أظهر لما جاء رسول جدتي . هل تظن أن الرسول يأتي لزيارتي لو لم أكمل طهاري؟

استمر الزعيم ينكس رأسه ويراقب ألسنة النار وهي تحتفل بقبضة الحطب .

استمر الدرويش :

- أنا أعرف أنك تسخر مني . ولكني أذكر ختان الطفولة . الفقيه لم يقطع الإثم من جذره فحنّ قلبي إلى حواء عندما كبرت . ولو فعل يومها لما تجرأت

المرأة أن تسرقني من نفسي كما فعلت مع جدّي .

أوماً الزعيم برأسه في حركة مجهولة وواصل المريض :
- جدتنا الذئبة ارتكبت خطأ كبيراً لأنها لم تخلّصه من الإثم . لو طهرته في
الطفولة لما هرب منها عندما كبر . شيطان حواء يقود الرجل من هنا .

وأشار للجرح بين رجليه .

لم يعلّق الزعيم . اقترح المريض :
- لديّ رجاء

لم يلتفت الشيخ فأكمل :
- أن تترك أمري سرّاً بيننا .

رفع نحوه الشيخ رأسه لأول مرة منذ بدأ موسى خطابه . رأى الدرويش
في عينيه ألماً ووعداً فاستلقى على ظهره ونام .

٣ - «واو» الأرض و«واو» السماء.

«ثم دخل على المفازة وحازها، ثم جازها، فما لأهل،
والمهل، من الجبل والسهل».

«الطواسين» - الحلاج

(١)

بعد أن أمر السلطان برفع الحظر عن السرّ تغير وجهه واو.

سَطَر «إمستغ» البنيان على امتداد جناح السور الذي استلقى شمالاً، وتوقف عن التشييد قبل أن ينعطف الفك العنيد، المسنن بمثلثات المعمار الغدامسي، غرباً، ليلتقي بقرينه الآخر ويتلعا معاً «حلمة الأرض». على جانبي الجدار الآخر أيضاً قامت صفوف بنيان واطئة، مطلية بالجير، اتخذها الباعة دكاكين لتسويق كل البضائع التي جاء بها تجار القوافل من شمال القارة ومن جنوبها. ولم يصدّق أهل السهل أن يروا في خلانهم المهجور، في زمن قصير، بضائع كانت قوافلهم تقطع مسافات تستمر شهوراً وأعواماً كي يأتوا بها من غدامس أو القيروان أو طرابلس أو كانو أو تينيكسو أو أغاديس أو تامنغست. وجدوا مغريات هذه المدن الخرافية التي يتباهى ابن القبيلة طول العمر إذا حالفه الحظ وزارها مرة واحدة حاضرة في صحرائهم النائية. وحتى الثمر والحبوب التي تعودوا أن يقايضوها بالسمن والجن ورؤوس المواشي مع فلاحي الواحات سعت إليهم الآن وعرض التجار أفخر أنواعها أمام دكاكينهم. وكان يروق لوجهاء القبيلة أن يتسكعوا بين الدكاكين ويتحدثوا عن الأعجوبة التي لم يكن لستم لولا تدخل الجن بواسطة المعدن المسوس. ونسى الكثيرون العهد القديم بأسرع مما توقعوا أنفسهم فرددوا بإعجاب أن هذا

المعدن السحري لا يدخل أرضاً إلا وتركها جنة. وانتحل الحكماء لضعاف النفوس الأعدار وهم يشاهدون سخاء البضائع التي ضاقت بها الدكاكين فاضطر التجار أن يعلقوها على جدران المحلات الخارجية، أو يعرضوها في أكياس وغرائر وأواني في العراء المواجه للمتاجر بعد أن اكتظت الأرفف في الداخل وفاضت بالخيرات. عبت في المدينة، بل في السهل كله، روائح التوابل والبهارات والطيب كالعطور والمسك والبخور. فاحت رائحة الشاي الأخضر والأحمر وعرض التجار السكر بنوعيه: العادي والمسبوك في قوالب على شكل أكواخ الفلاحين في الواحات والملح أيضاً بنوعيه: العادي والمسبوك في قوالب. غرق السهل بأنواع الحبوب، وكلما أقبلت قافلة جديدة، حملت مزيداً من أكياس القمح والشعير والذرة والقصب. من الصحاري جاءت اللحوم المجففة: لحوم غزلان وودّان وأرانب برية، وجاموس بري وحملان وجمال. أمّا الأقمشة فخطفت قلوب العذارى بألوانها وخطوطها وأنواعها. وأصبحت النساء والصبايا تحوم حول دكاكين الأقمشة كأنها قبور الأولين وأضرحة الأولياء يوم العيد. ولم يجد الفتيان أو الفرسان أنفسهم في موقف مختلف. فأعدّ لهم التجار الشياطين مصائد لا تقل فتنة.

جلبوا الجلابيب الواسعة، الطويلة المشبعة بالنيلة الزرقاء، «تجولوست» بأنواعها: الأيرية والأهجارية والنوع الآخر الذي تخصص زنوج كانوا في نسيجه. كما لم ينسوا نعل التما المطرز بدسة من السيور المختلفة الألوان. كما وجد الفرسان المتعطّشون للغزوات السيوف والرماح والسروج والسياط. أمّا الشيوخ فاقتنوا التبغ والطرونة ومضغوا، وهم يجلسون على رؤوس أصابعهم أو يتوكأون على عكايزهم بجوار الدكاكين، وأنصتوا لجمعجة السوق منتشين.

بقي المعدن السري.

أمر السلطان بفتح دكاكين لعرض الحلى والمصوغات والمجوهرات على أن

يبقى الرواق مستودعاً يتجمع فيه الصنّاع والحدادون ليزودوا الدكاكين الخارجية بحاجتها من المصنوعات، فاستمر عمل الحدادة وتواصلت الموسيقى السرية، التي كانت إشارة البدء في بعث واو من المجهول ومفتحة العصر الذهبي للصحراء الوسطى.

(٢)

حلّ أول شهور الخريف واقترب ميعاد الوليمة. واصل النذير تجواله بين مضارب النجع، وطاف حول أسوار واو، صعد الروابي وقطع السهل كأنه يريد أن يلقي حجارة الخلاء وصخور الجبال وقمم الطلح بالبشارة بعد أن نقشها في ذاكرة القبيلة وسكان المستوطنة. وحفظ الرعاة والعاثرون اليوم الموعد.

لم يهب الله نذير القبيلة الصوت الجليل وحده، ولكن خصّه بمهوبة أخرى جعلته ينافس شاعرات الغزل والمديح وشعراء الفروسية والغزوات. يحتفل بالخبر ويضفي عليه سحراً بلغة الشعر حتى يصبح الحدث أسطورة شيقة يتوق إليها الناس. وكثيراً ما روت الأمهات أساطيره لأطفالهن المعاندين كي يأووا إلى فراشهم مبكراً. فلم يستغرب أهل الصحراء أن يسمعو من النذير أساطير جديدة عن واو لم يسمع بها أحد من قبل. برغم أن الحكماء أكدوا أن النصوص وردت في «آنهي» في الباب الذي تناقلته الأجيال وسردته الجدّات في القصص والوصايا والأسرار. لأن أهل الصحراء تعودوا أن ينسبوا إلى الكتاب المفقود تلك النصوص الباردة، الصارمة، التي تبحث في فلسفة الحياة وسرّ الممات وتحذر الأحفاد الأشقياء من التورط في الاستيطان واقتناء الممتلكات، في حين أرجعت الأجيال النصوص القصصية، التي تحمل روحاً تربوية، علاوة على جمال الأسلوب، إلى خيال الأجداد وحده. ويبدو أن الشيوخ والحكماء التقطوا هذه الروح الصارمة، القاسية، الباردة (وهي صفات تلازم الحكمة على ما يبدو) في قصص النذير الأعمى برغم إخلاصها لخيال الأجداد في المزاجية بين الهدف التربوي والمتعة الجمالية.

في السهل الكبير، المطوق برؤوس الجبال الغامضة، ارتفع نداء النذير
بقصتين عن «واو» المجهولة، نحتهما الأعمى بصوته النبيل في ذاكرة
الصحراء، مروجاً لوصية من الأجداد تقول للأحفاد: تجنبوا النهم واحذروا
الفضول...

أ - إخبار الأسطورة الأول

فتحت أبوابها للمهاجر الضائع بعد أن يشس وبدأ يخلع لباسه كي
يتعرى. ولا يعرف أحد من حكماء الصحراء لماذا تأتي الرحمة متأخرة إلى هذا
الحد. فلم يحدث أن أنقذ تائه وفاز عطشان بالماء قبل أن ييأس وينزع ثيابه.
كما لم يعرف أحد عما إذا كان الصحراويون الدهاة يلجأون إلى هذه الحيلة
متعمدين استعطاف السماء وإعلان التوبة أم أن قطرة الحياة الكامنة في الماء،
لا تجبر المهاجر أن يركع ويقبل الرمل إلا بعد أن تتبخر وتطير، مع البخار،
ببقايا العقل فينسى الصحراوي المكابر الخجل على أبواب الفناء. لأن الفناء
هو البوابة الوحيدة التي لا تعترف بالكبرياء والعار ولا تقبل إلا العراة. ويُقال
إنه ورد في «أنهي» الضائع تفسير بشأن هذا الامتحان القاسي. فالسما تتعمد
أن تؤجل الرحمة حتى يطهر العطش بدن المهاجر من الكبرياء وينزع لثامه
المهيب عن عورة الفم. وكل من أنقذ من هذا الوحش وهو عريان سار
مكسوراً، مطأطء الرأس طول الحياة. ويقول أنهي إن المعاندين المكابرين
الذين لم يسمح لهم كبرياؤهم بنزع اللثام والثياب وتقيل الأرض فُفِلَتْ أبواب
واو في وجوههم، وضلّ الملائكة الجوالون في الصحراء الطريق إليهم،
ووجدوا أمواتاً بشياهم، تأكل الديدان أجسادهم، وتحوم الصقور والغربان
فوق رؤوسهم.

ولكن مهاجرنا لم يكن من المكابرين. تجرد من كبرياته مع ثيابه كما يفعل
الصالحون، فجاءت السماء بـ «واو» نفسها وأرست أسوارها المهيبة عند قدميه
أسفل المرتفع الرمي. نزلت معها غلالة من العتمة فلم يعرف المهاجر عما إذا

كانت الشمس قد غربت وحلّ المغيب أم أن العطش الكافر هو الذي قاده من يده إلى الظلمات. ترتجّ وسقط على الأرض. غاب وجهه في التراب. امتلأ فمه وفتحتا أنفه بذرات الرمل. تنفس الغبار ومضع الحبيبات المالحة الشقية. رفع رأسه وشاهد أضواء واو اللعوبة، تضيء وتخفي، تقترب وتبتعد، تغمز وتتوارى، في إغراء العذراء. ظنّ أنه يقف على مشارف الملكوت فانتظر ملكاً القصاص واستعدّ للحساب. هذا من عجب واو أيضاً. فيحدث شهود العيان أن الواحة الموعودة لم تظهر لهم إلا بعد أن يثسوا منها ونسوها في زمن بعيد. وورد في أنهي أيضاً أنها مثل الظل، تهرب من الباحثين عنها، وتجري وراء اليائسين منها.

مهاجرنا أيضاً نساها وحسبها ملكوت السماوات.

تدحرج من التلة الرملية وهو في برزخ الغيبوبة. سعى على أربع. زحف على البطن، انكفأ ثلاث مرات وقبّل الرمل الرامض قبل أن يبلغ أعتاب الواحة. فقد الوعي، لأنه لا يذكر أن سواعد قوية التقطته من سقطته، ولا يذكر أيضاً أن ضعفه يمكن أن يسمح له بدخول البوابة على قدميه. وجد نفسه يستلقي على ظهره على فراش من ريش، تحيط به وسائد منفوشة، محشوة بالقطن والصوف والريش. الجدران شفافة، مغطاة بغلالة ناصعة، تبعث ضياءً فضياً هادئاً كضياء البدر. عند القاعدة، على طول امتداد قدم الجدران، تتصافر ألانة خضراء من العشب، يشطرها في الوسط شريط طويل من الزهور الصغيرة الحجم، مثل زهيرات الرّثم، ولكنها متعددة الألوان، حتى أنها تبدو مثل قوس قزح مستقيم على الجدار الفضي المطفأ. رائحتها الحادة، الخرافية، ذكرته أيضاً بزهور الرّثم، فظلّ يشك ويسأل نفسه طوال الوقت عن سبب الدوار: هل هو بسبب العطش أم بسبب زهور الرّثم؟ فوق رأسه جلس شيخ مهيب، ثقل الوجنتين، مطفأ العينين، كثيف الحاجبين، ترقد على صدره لحية بيضاء تميل إلى الإصفرار يغطيها طرف لثامه الباهت الشفاف. يمسك بيد موسومة بالتجاعيد بكأس ذهبي ويقطر في حلقه ماء

الحياة بخيوط مفتولة من الحرير الأحمر. في الواحة خيم سكون جليل. السكون الذي يعبد الحكماء ويعيش في جنته المعمرون القدماء. ولكن ثمة شيء مدهش يחדش من قداسة هذا الحرم. يسمع عن بعد، وفي فترات متباعدة، متقطعة، غناء الطيور. غناء خفيف، متناسق، بهيج أثار في نفسه حيناً غامضاً وذكره بأنه لا بد أن يكون في ملكوت الفردوس الصحراوي. الواحة الموعودة التي يحلم بها ابن الصحراء منذ يولد إلى يوم يموت. رفع رأسه عن الوسادة الطرية واستند عليها بمرفقيه فابتسم له الشيخ وهز رأسه المهيب علامة الموافقة. فأدرك الثائه أن الرجل قرأ خاطره. خلف الشيخ شاهد رؤوس الأشجار وغابة من البساتين تمتد حتى نهاية الأفق. ابتعد الغناء البهيج وعاد السكون الجليل يبتلع كل شيء. فتح المهاجر فمه بسؤال الفضول:

- قل لي يا عمنا الشيخ: ما سرّ واو؟ متى يستطيع المهاجر أن يعثر على واو؟

عاد العجوز يبتسم ابتسامة الحليم الذي تعود أن يغفر خطايا الأشقياء ويحجب على تساؤلات الأطفال. تكلم لأول مرة فسمع المهاجر صوتاً هادئاً، نقيّاً، بهيجاً، مثل أغاني الطيور في البساتين الساكنة، فتمنى أن يتكلم ويتكلم ولا يسكت أبداً. قال:

- لا يدخل واو إلا من عبر وادي الألم وولد مرتين. ضيّع نفسك تجدها!!

أراد الثائه أن يستمتع بالاستماع إلى الصوت أطول زمن حتى يحس بالدفع الغامض ويملا قلبه البائس بفيض السكينة فسأل بلا وعي:

- وماذا أيضاً؟

هز الشيخ عمامته نقيّاً وفي عينيه رأى نظرة لوم. قال باقتضاب:

- هذا كل شيء!

ثم.. أحس الثائه بأنه جوعان. فخطر له أن يجاهر برغبته ولكن لم يكد

يفتح فمه حتى أقبل طابور من الحسان، يرتدين لباساً شفافاً كغلاطات ملونة .
حرير شفاف، ملون . يغطين شعورهن بقطع خضراء، تنسدل على مناكبهن
وتندلى على الصدور النافرة . الفساتين حمراء، شفافة أيضاً، طويلة، تستر
قاماتهن الطويلة حتى الرسغين . في أرجلهن خلاخيل كثيفة من الذهب،
وحول رقابهن عقود من الجواهر اللامعة، المتألثة الألوان . في أيديهن الرشيق
أساور من فضة، ومن الأذان تتدلى أقراط من ذهب مطعمة بأحجار كريمة
زرقاء . جئن يحملن أطباقاً شهية، ذهبية، مليئة بأنصاف الطعام . وضعن
بجواره أيضاً ملائق من فضة وكؤوس من الذهب مليئة بشراب متعدد
الألوان . أدرك المهاجر أن أهل واو ليسوا في حاجة لأن يستخدموا لغة
الكلمات طالما يفهمون لغة الخواطر وحركة الروح .

في الخارج عادت الطيور السماوية تنشد مواويلها البهيجة في مناهة
البساتين ولكن السكون العظيم ظل اللغة الطاغية .

أكل وشرب وشكر إله السماوات والأرض وصلّى ركعتين . شكر أهل واو
أيضاً وعانق الشيخ الجليل مودعاً . شيعه العجوز حتى أبواب السور . هناك
وجد المهاجر ثلاثة جمال، محملة بالبضائع والزاد، في انتظاره . هنا أيضاً تحرك
الوسواس الخناس في صدر التائه الشقي فطلب زاداً من الحطب أيضاً ليعدّ
ناراً لطهو الطعام، ناسياً أن أهل واو يقرأون لغة الروح أيضاً . ابتسم
العجوز ابتسامة هادئة، ولكن غامضة، وأمر له بجمل آخر محمّل بجريد
النخيل وأعواد الحطب .

خرج المهاجر من واو في العشية . صعد المرتفع الرملي وتوارى وراء
التلال . انتظر حتى المغيب فحفر في العتمة حفرة وغرس أول عود علامة
تهدي إلى واو . أكل الفضول قلبه وقرر أن يضع إشارات تدله إلى الواحة
المفقودة وتدل إليها عشيرته أيضاً ولم يعرف أنه خان العهد في اللحظة التي
أشرك فيها عشيرته بكنزته، مقررّاً أن يقيم لها الدليل ويقودها في أثره ليغزو بها

الواحة المتنقلة. كان سعيداً لأنه لا ينتمي إلى فئة الطَّماعين الجَوَّالين الباحثين عن الكنوز والذهب، ونسي أنه ثرثار بغيض لم يحفظ في حياته سراً. تمنى أن تحل اللحظة التي سيصل فيها النجع ليحكى للعشيرة عن اكتشافه الذي يقضي أهل الصحراء أعمارهم بحثاً عنه. وكان المهاجر اللئيم يعلم أنهم لن يصدقوه فبدأ يغرس الحطب ويرشق جريد النخيل كي يجد الطريق إلى واحة السراب. فاسمعوا نذيركم يا أهل الصحراء: الفضول رذيلة لا تقلُّ بشاعة عن الجشع! ولينّه عاقلكم غافلكم، وليبلغ حاضركم عابركم! نصب المهاجر أعواده يوماً كاملاً، وعندما حلَّ المساء وتبّأ لإعداد طعام العشاء تجهّمت السماء واسودَّ وجه الصحراء. هبَّت العاصفة قبل منتصف الليل، واستمرت تحرث الكثبان الرملية ثلاثة أيام. طيرت علامات المهاجر البلهاء، وجردته من جماله وزاده. ووجد نفسه ضائعاً، وحيداً، تائهاً، عاجزاً، يكتم العطش فمه ويَعْقِل رجليه ويعمي بصره وبصيرته.

ولم يكن الرّحالة ليحلم بالنجاة مرة أخرى دون أن يعلّق في رقبة رذيلة تُضاف إلى الفضول. فيا أهل الصحراء: إذا رحمتكم السماء وفتحت لكم واو أبوابها فلا تنسوا أنكم دخلتموها عراة حتى من ورقة آدم وحواء عندما عرفا أنها عريانان. انسوا أنكم عثرتُم على الكثر واكتموا السرّ. اعلموا أن الطمع في العودة إليها إثم، لأن واو الخجولة لا بدُّ أن تهاجر إلى المجهول لتطهر من إيواء عرق الإنس.

ب - إخبار الأسطورة الثاني

المهاجر الثاني تاجر. فقد السبيل إلى البئر وهو في رحلة إلى زويلة. تخلّى عن جماله الثلاثة ليتحرر من الأثقال وترك طريق القوافل واتجه شمالاً ظاناً أنه سيختصر الطريق إلى الواحات. المهاجر يجهل، حتى ذلك اليوم، حيل الصحراء عندما تقرر أن تستضيف المسافر وتدعوه إلى جوفها، فتستعين بالخوف من العطش، والخوف من العطش يسلب العقل، وإذا تخلّى العقل

عن المسافر وقع في الشرك وقاده السراب إلى الاتجاه الآخر، المعاكس.
فارتكب المهاجر أول خطأ عندما هاله امتداد الصحراء وفزع من الضياع.
وارتكب الخطأ الثاني عندما تخلّى عن طريق القوافل وسلك الطريق
الصحراوي المجهول معتمداً على ذاكرة بلا عقل. قاده الطريق المجهول إلى
المجهول ولم يبلغ الواحات أبداً.

جاءت اللحظة التي يتحرّر فيها الصحراويون من الحياء فيمم التائه شطر
الشمس القاسية ونزع ملابسه كلها. رقع على الحجارة الملتهبة عارياً وصاح
بيأس: «يا رب...» وانكفأ على وجهه في العراء المشتعل... سافر إلى
الصحراء الأخرى... إلى المجهول.

ولكن واو اعترضت طريقه فوجد نفسه في الفراش الوثير، بين وسائد
الريش والقطن والصوف، تحيط به الجدران الناصعة الشفافة، الموشاة بأكاليل
سخية من زهور الرتم. يتحلّق حول فراشه عدد من الرجال الذين لا تفارق
الابتسامة عيونهم. ابتسامة غامضة ولكنها فاضلة وحليمة. في الناحية الأخرى
من الفراش جلست مجموعة من الصبايا الحسان، يلتحفن باللباس الملون،
الشفاف. في الخارج أنشدت الطيور أغانيها البهيجة في متاهة عظيمة من
البساتين. وعندما أفاق المهاجر من الغيبوبة وعاد له الوعي سمع خرير مياه.
وخامرته خاطر بأنه سمع هذا الخرير الممتع عندما كان نائماً، في المجهول، بل
سمعه دائماً منذ الميلاد، قبل أن يولد، في يوم ما، لا يدري متى. خرير الماء،
وهو يحرث الأرض، شقاوة الماء وهو يشاكس الصخور، يمازح الأحراش
ويغازل الحجارة. ما أجمل لغة الماء وهو يجري. ما أجمل السيل. السيل
الدائم، الأبدي، الذي حرم الله منه الصحراء. تُرى ماذا فعلت الصحراء
حتى استحقت هذا القصاص؟

أنصت طويلاً للغة الماء الشقية، الخفية. ثم التفت إلى أقرب رجل
ليسأله عن السيل فأجابه الرجل مبتسماً قبل أن يفتح فمه بالسؤال:

- نعم . إنه السيل الخالد . النهر!

- النهر؟!!

هزَّ الرجل عمامته بالموافقة دون أن يجيب فقال المهاجر:

- في الصحراء أيضاً أنهار . أنهار قديمة . آثار لأنهار محفورة في جسدها كالتجاعيد الأليمة ، الحكيمة ، في وجوه المعمرين . ولكن الماء لا يجري فيها إلا مرة كل مائة عام ، وربما ألف عام . لأن الصحراء العطشى تهرع إلى الوادي وتبتلع عطية السماء . في الصحراء يعطيك الإنسان عمره إذا أريته وادياً يجري بالماء . فهاذا فعلت الصحراء حتى تُحرِّم من الماء وتستحق لعنة السماء؟

رفع رأسه دون أن ينتظر جواباً وناح بآلم:

- ما أشقى الصحراء! ما أشقى الصحراء!

تنقَّل بعينين غائبتين بين الوجوه الوقورة ، الهادئة وأضاف:

- لا أحد يعلم ما يعانيه أهل الصحراء كي يفوزوا بزيارة واحدة لـ «واو» . أنتم لا تعرفون ما يعني أن يسمع الصحراوي خرير الماء وهو يجري في البساتين ، بين الحجارة التي صقلها بلسانه ، والأحراش التي يطوقها بشقاوة وإغراء . الماء! الماء! ما أجل الماء .

لمعت عيون الجماعة بالبسمات والبريق . جاء ثلاثة غلمان يحملون طبقاً فضياً صفقت فوقه كؤوس صغيرة من الذهب مليئة بالشاي . وضعوا الطبق فوق الفرش الوثير فتناول التاجر كأسه . قلبه في يده وتابع شكلاً مجسماً بفسيفساء من الجواهر لغانية راقصة ، هيفاء ، تشني إلى الوراء في حركة إغراء . خدش نسيج الفسيفساء بظفره ، فسطعت الجواهر اثر انعكاس الضوء على الحبيبات . اقترب بوجهه ليتفحص الكأس فغزت أنفه رائحة خليط مدهش من الأعشاب البرية . فحُيِّلَ له أنه يعرف هذا المزيج من الزهور ، ولكنه لا يعرف متى ولا يدري أين . ربما في الحمادة الحمراء في موسم الربيع ، وربما في جبل نفوسة .

رشف من السائل فأحسّ بدوار خفيف تلاه صفاء واسترخاء. ظلّ منتشياً بالشراب طويلاً ولكن الانتشاء لم يقتل الوحش الذي استيقظ في صدره. وحش قاده من أنفه وطاف به كل القارة الصحراوية. من غدامس إلى كانو، ومن تينبكتو حتى زويلة، ومن تامنغست حتى القيروان. ولم يكف عن التنقل منذ أخذه أبوه ليرافقه في أول رحلة منذ خمسين عاماً. تنقّل بين المدن العريقة ولكنه لم ير فيها إلا الأسواق. بل لم ير في كل البقعة الصحراوية غير الصحراء. لم ير الربيع في الحمادة، ولم يستمتع بزهور الرُّثْم وهي تتفتّح بعد المواسم الممطرة، لم يتمتع بقطعان الغزلان وهي تترح في الوديان في هدوء وأمان. لم يشاهد الودّان العريق في مرتفعات الصحراء الوسطى برغم أنه يتغذى بلحمه كل يوم. حلم بالأناهار الجارية ولكنه لم يتسلّق الجبال الزرقاء في حدود الحمادة الجنوبية ليرى كيف تجاهد القمم الخفية لتجمع ماء المطر قطرة قطرة لتصنع نهيرات حقيقية صغيرة تتدفق من الشُعَبِ العالية وتصبّ في الوديان السفلية. لم ير هذه المعجزة لأن العطش في قلبه وليس في الصحراء. وهيهات أن يعيش في الصحراء، أو يتمتع برموز الصحراء، مَنْ عاش في نفسه صنم التجارة وعبد فيها ضجيج الأسواق. لقد نسي النهر واستيقظ فيه وحش الاكتناز منذ رأى الكأس الذهبي وسطع في وجهه نسج الفسيفساء.

تراجع خرير الماء وهرب النهر. طارت البلابل وكفّت عن الإنشاد. سمع صوت الوحش يهتف فيه: هذه كؤوس واو المطعمه بفسيفساء الفردوس. يكفي أن يعرف التجار في غدامس أن الواحة الضائعة فتحت لك أبوابها ليرتفع سعر الكؤوس إلى السماء. ستساوم وتضارب كما تقضي شريعة السوق حتى تضرب ضربتك وتعوّض خسارة سنوات الكساد. وجهاء العثمانيين سيدفعون أي ثمن عندما يعلمون أن الكأس جاء من الواحة الخفية!

أفرغ السائل في جوفه وغافل الجلساء ووضع الكأس في جيبه. بعدها أصيب بالعماء والصمم. لم ير غير الكؤوس ولم يسمع سوى رنينها في الطبق. انقضت أيام الضيافة الثلاثة فتأهب للسفر. شيعه الوجهاء بوجوههم الباسمة

حتى بوابة السور، وودّعه بالحفاوة والجلال.

خرج التاجر من واو وفي جيبه ثلاثة كؤوس مطرزة بغانيات من فيفساء الفردوس. قضى ليلته الأولى في واد عارٍ من الشجر. تفقّد كتزه فغمزته الغانية بإغواء. ارتجف في قلبه الوحش وتأملها طويلاً. أوقد النار وأعدّ لنفسه عشاء فاخراً من الزاد الوفير الذي حمّله له وجهاء واو الأسخياء. طبخ قدرًا من لحوم الغزلان وأعدّ خبز القمح في أحشاء الرمل ودهن لحيته الشرهة بسمن الماعز ودهن اللحوم. يروق له دائماً أن يمسح يديه في لحيته فيتغذى الشعر وتلمع اللحية بالدهن والجلال. تعلّم هذه الحيلة من تاجر داهية يملك نصف دكاكين غدامس وقطعاناً من الإبل في الحمادة. نام بدون أحلام وفي الصباح واصل رحلته. قطع مسافة ثلاثة أيام قبل أن يكتشف التحوّل ويجد أن النحاس حلّ في الكؤوس. لم يصدّق عينيه وكذّب خبرته التجارية الطويلة في التعامل بالذهب والمعادن في أسواق الواحات. اختنق بالحق ولم يتوقف حتى دخل سوق زويلة. قصد تجار الذهب واختلى بتاجر عجوز سبق أن تعامل معه في صفقات تجارية في زيارات سابقة. امتحن العجوز «البضاعة» في النار وأعاد الكؤوس للتاجر قائلاً إنها نحاس. والغانية المنسوجة من فيفساء الجواهر تحولت إلى غانية بائسة، مطفأة، منسوجة من حبات الخرز الأعمى.

فيا أهل الصحراء: إذا فتحت لكم واو أبوابها فاخرجوا منها عراة، لأنكم عراة دخلتم إليها.

(٣)

«اسفحوا الدم. أريدكم أن ترووا الأرض بالدم. لا تبخلوا على الصحراء بالقرايين. انحروا النوق والمعيز، الودان والغزلان، وليشبع القاطنون والعاثرون، التجار والرعاة. استضيفوا حتى الوحوش والجوارح. لأن غزارة الدم ودعاء الوحش والطير يلينان قلب الأرض فتقبل استضافة واو وتحمل على صدرها عبء الأسوار والجدران».

امتثل العبيد لأمر السلطان، فنحروا الذبائح وسفحوا دماء القرايين.
ارتفعت ذيول الدخان مخلوطة برائحة الشواء حتى بلغت أبعد المراعي وأقصى
الواحات، كما أخبر عابرو السبيل، فأقبل الرعاة والتجار، الرحل وأهالي
الواحات، أهل الصحراء وسكان الكهوف، الذئاب والصقور. أصبحت واو
قبلة الصحراء في أسابيع قليلة.

زار ايدكران أيضاً الزعيم ليحدثه عن القرايين.

قابله منذ أيام في السوق الغربي. تجوّل مع بعض الوجهاء وتوقفوا أمام
دكان يعرض مصنوعات الذهب. حيّاهم ايدكران بيده المحفورة بالجدري
فاستقرّه الإمام. قال ساخراً: «الأجدر أن تبحث عن الكنوز في واو بدل
الكهوف والصخور. انظر، أيها الغريب، كيف سبقك التجار الشياطين
وجاءوا بكل كنوز الصحراء إلى الواحة الموعودة». ابتسم ايدكران وستر عينيه
بطرف عمامته العلوي وغاب في زحام السوق. ولكن الشيخ آده أخرس الإمام
بنظرة استنكار فقطع ضحكته وهرب بعينه إلى الناحية الأخرى حيث تجمع
الرجال حول تاجر عجوز جاء من الحمادة لبيع الترفاس المجفف. التقى الزعيم
بالغريب كثيراً، ودعاه لتناول العشاء مراراً، ولكن الضيف الغامض كان
يعتذر بلباقة في كل مرة ليؤجل الدعوة.

اليوم جاء للزيارة بدون دعوة قبل بزوغ القمر.

استقبله الشيخ في العراء خارج البيت ووقف يرحب ويعيد الجمل
الوقورة ليعبر عن ابتهاجه بالزيارة، ويؤدي واجب الطقوس التي سنّها ناموس
الصحراء. دخل الخباء وعاد بالكليم. فرش في الجانب الغربي من الخيمة
مستمراً في الاستفسار من ضيفه عن حاله وصحته وأحلامه وغربته وكيف
قضى ليلته الأخيرة. بالمقابل ظلّ الضيف يجيب على الأسئلة المكرورة ببطء
وصبر وخبرة منّ عاشر أهل أزجر وعرف المراسم.

فرغ الزعيم من طقوس الاستقبال وجاء دور الصمت. حلّت تلك

اللحظة العvisية التي تستعصي على العرافين ويختار الحكماء في إيجاد مفتاحها السري. اللحظة الفاصلة بين مراسم الترحيب الجليلة وهوة الهموم اليومية، بين حرارة القلب وبرودة الحياة، بين لغة الشعر الساوية ولغة النثر الأرضي. ليس ثمة أصعب من الانتقال من دنيا الفردوس الذي يشيده القلب الإنساني وبين مناهة الجحيم التي يعود فيها القلبان المفتوحان، منذ لحظة، من رحلتها الخرافية إلى الحبس الأرضي: حبس المكان والزمان والحياة اليومية. والشجاع هو من وجد الكفاءة في نفسه كي ينتقل فوراً من نعيم القلب المفتوح إلى جحيم الحياة الدنيا. اكتشاف هذا المفتاح هو الذي يسميه أهل الصحراء: الحكمة. والحكمة هنا لا تعطي الحق لأي من الطرفين أن يتجاسر ويفتح البوابة ليتحدث عن واو، لأن الحكمة لا تبيع، في عرف الصحراويين، تسمية الأشياء باسمها، لأن الحكمة لا تعني الشجاعة. وكثيرون يعتقدون أن الله خلق المزاج الصحراوي المتقلب خصيصاً كي يصنع لهم المفتاح السحري، الذي ينقذهم من ورطة أن يتحولوا إلى أصنام، فيجدوا كلمة سرّ ينقلون بها محدثهم من جنة القلب والحب إلى نار الأرض والناس.

ليست الحكمة التي أنقذت الزعيم من عبء اللحظة وإنما الوحي الإلهي. دخل الخباء مرة أخرى وعاد بكوز من الحليب الطازج. قدّمه لضيفه ونطق بكلمة السرّ:

- عشنا وشهدنا بعيوننا زمان العجب. إذا استمر القبل على هذا الحال، فإننا سنشهد قريباً قيام بحر الرمال العظيم في الصحراء الوسطى كما شهد أقدم أجدادنا قيام البحرين الرملين العظيمين في شرق الصحراء وغربها.

ابتهج باكتشافه وبدأ يوقد نار الشاي. وبعد قليل أحس أن سبب سعادته ليس في اكتشاف المفتاح السحري ولكن لأن النجاح الذي حققه سهّل على الضيف أن ينتصر على الحرج التقليدي ويخرج من القوقعة. اندفع الحديث في الاتجاه الدنيوي تلقائياً عندما علّق بصوته الهادئ، الساخر، الخفي:

- لا يعامل ظواهر الصحراء على أنها ظواهر بلهاء إلا البهائم والبلهاء.
أمّا الحكماء فيجدون فيها الإشارة. الإيماء. القبس.

بدأ قبس القمر يغمر الأفق ويفصل قمم الجبال عن الأرض. فركّ
الزعيم يديه ليداري الحرج الذي سببته ملاحظة الضيف المسترة، القاسية.
قال بعد فاصل صمت:

- أوافقك أن لا شيء يحدث في الصحراء عبثاً. الريح أيضاً لا تهبّ بهذه
القساوة بدون سبب، ولكنني أتحدث عن النتائج لا عن الأسباب...
قاطعته الزائر بلغة كأنها عدوان:

- والأجدر أن نتحدث عن السبب قبل أن نتحدث عن النتيجة. الحكيم
مَنْ سأل عن الأسباب والعشيم من أخذ بالنتيجة. فإذا علمنا أن الريح يحرث
أرضكم ويغيّر مجرى الوديان ويقيم الروابي منذ سنوات فماذا يعني هذا الغزو
الملحاح في حكم شيخنا الحكيم؟

- أستغفر الله أن أدعي الحكمة، ولكن هذا لا يعني أنني لم أفكر طويلاً في
الإشارة. اجتهدت في التفسير وحاولت التدبير. استشرت العرافة فوضعت
شرطاً لا يبيحه إلا شرع المجوس.

سكت مرة أخرى. التفت نحو النار وهي تتغذى بالحطب وترفع لساناً
شرهاً. التهمت القبس الوليد ولفظت الشرر. أكمل الزعيم وهو ينكس
عمامته:

- طلبت رأس إنسان!

- قراءة الرموز أقدم امتياز تخصص فيه أهل الصحراء، وإذا غفل حكماء
القبائل وتخلّوا عن هذه العادة فلا تستبعد أن تجد نجوعاً كاملة تحت كثران
الرملة.

- صدقت.

- لو لم يقرأ أجدادكم «آنهي» في الألواح الحجرية وفوق صخور الجبال لفقدوا دليل الحياة وانقطعوا من الصحراء. فهل كان العرّافون وحدهم مَنْ تولّى هذا الدور؟ إذا ضللت الطريق فهل تنتظر أن يأتي عرّاف ويقرأ لك رموز «تيفيناغ» في الحجر كي تهتدي إلى البشر وتفوز بالحياة؟

- اعترف أن انتظار العرّاف في هذه الحال حماقة.
- فإذا انحرفت العرّافة فَمَنْ غير العقلاء يتولّى الأمر برغم أن العرّافة لم تخطيء في المبدأ؟

- لم تخطيء!
- لم تخطيء رغم أنها أخبرتك بنصف الحقيقة، وأنت لم تخطيء أيضاً عندما اهتمتها باعتناق دين المجوس.

- إذا لم تخطيء هي ولم أخطيء أنا، ألا يعني هذا أن كلانا على حق؟
ضحك الغريب حتى استلقى إلى الوراء. اعتدل في جلسته ومال برأسه نحو الزعيم فرأى الشيخ الآثار العميقة التي خلّفها الجدري في وجنتيه المحروقتين بصهد الجنوب. قال الضيف بصوت مرح:
- هذا قد يعني أيضاً أن كلاهما على خطأ. ولكن دعنا نتفق أولاً: مَنْ هو المجوسي في رأي شيخنا الجليل؟

هدأ جشع النار. وضع الزعيم حفنة من أوراق الشاي في الوعاء وملاه بالماء من إناء خشبي تأكل بسبب الاستعمال. وضع الوعاء فوق كوم من الجمر فصله بالمهاز عن أتون النار وقال:

- إذا أغفلت قراءة الإشارة في الريح فلا أظن أن ضيفنا الفاضل يمكن أن يرى في هذا سبباً كافياً كي يضمني إلى القوم الغافلين. وإذا حجب الله عني جلال الحكمة في صحراء الحياة فقد وهبني واحة من الفياء في التجريب. ولم أمل من أن أردد دائماً أن المجوسي ليس مَنْ سجد للحجر لأن الله موجود أينما وليّتم وجوهكم بما في ذلك الحجر أيضاً، ولكن المجوسي الحقيقي هو مَنْ باع الله مقابل المال واستبدله في قلبه بحب الذهب..

هتف الضيف مقاطعاً:

- أحسنت . أحسنت .

- لم أدع يوماً العلم بأمور الدين ولكن مصير شيخ الطريقة يعطيك الدليل . حكم عليّ بالمنفى كي يطيب له حكم السهل فجاءه صندوق التبر عطية من المجهول كي يقضي عليه .

- يُقال إن عرّافكم هي التي بعثت له بالصندوق .

- هذا ما يُقال .

- إذا كان هذا صحيحاً فإن ذلك يعني أنها تعرف سرّ الذهب . وإذا

كانت تعرف السرّ فإن هذا يضاعف من جرميتها أمامك .

اختلس الشيخ نظرة دهشة نحو ضيفه . واصل الغريب:

- أردت أن أقول إنها محوسية حقاً لأنها لا تؤمن في قلبها بإلّاه غير

الذهب . أغدقت عليها الأميرة بمعدن الشياطين فأثرت السكوت وأخفت

عنك حقيقة الريح ، برغم أنها لم تتدعك أيضاً عندما طلبت رأس إنسان شرطاً لإعداد قيد للقبلي . ولكنها تعرف أنه شرط تعجيز .

حمد الزعيم أمام ضيفه . خبا جمر النار وغمز وميض خجول تحت شيب

الرماد . من الشرق سكب قمر كبير ضوءاً باهتاً فوق قرون الجبال . فار الشاي

الأخضر وغزا أنفيها براثحة ممتعة يحكي الرعاة والمهاجرون عنها الأساطير .

قال الشيخ :

- أعترف أني سمعت شائعات تتهمها بالتورط في التعامل بالمعدن الحرام

في أسواق واو، ولكن لا يليق برأس القبيلة أن يبيني أحكاماً على القليل والقال .

شرع يخلط الشاي . توقف فجأة ولاحظ :

- أفهم من هذا . . يا ربي . أنت لم تكن باحثاً عن الكنوز في يوم من

الأيام . أراهن .

ضحك ايدكران . هتف بفرح :

- أنت لن تحتاج إلى رهان .

- هل أنت عَرَّاف؟

التقت نظراتهما في ضياء القمر فقراً الشيخ جواب الغريب . تتم آده .

- شككت في هذا منذ أول يوم . الله حسيبي .

- نزع أجدادي إلى الجنوب عندما فتح المرابطون تينبكتو . عشنا في

الأدغال وأورثنا أجدادنا وصية صنع منها الزمان تعويذة . قالوا لنا إن الأرض الأولى قدر الإنسان ، لأنها من تراثها عجنه الله ونفخ فيه من روحه كما تقولون في دينكم الجديد . .

قاطعه الزعيم :

- هل أنت مجوسي؟

سكت ايدكران طويلاً . حدّق في الجمر النائم تحت شيب الرماد ، طأطأ رأسه وحرث الأرض بسبابته حافراً رموزاً بالتيفناغ . رفع رأسه وحدّق في عيني الزعيم :

- ألم نتفق مَنْ هو المجوسي ومن هو المؤمن؟

لم يعترض الزعيم . لم يشأ أن يجرّح ذلك الحنين المقدس الذي رآه في عيني جلسه وعرفه بنفسه سنوات المنفى في الحماة الحمراء .

عاد ايدكران إلى العجينة الأولى التي اتفق الناس وأطلقوا عليها اسم «الوطن» :

- قالوا لي إنك عشت هذا المصير بضع سنوات ولكنك لم ترثه عن الأجداد . إن الحنين أقسى عندما تعلم منذ الطفولة أنك فرع مقطوع من أصل بعيد ، مجهول ، كنت يوماً ما جزءاً منه . تكبر ويكبر معك الحنين حتى يتحوّل إلى صلاة وعبادة . كنت أتصوّر تينبكتو التي رأيتها في أساطير جدتي وأبكي .

أبكي وأحسّ أني ضائع . عشبة صحراوية بخلت عليها السماء بالمطر فذبلت
وماتت وطار ببقاياها الريح . وهذا هو السبب في أن الغرباء يعيشون ويموتون
أطفالاً . لأن الله لا يحسب لهم عمراً ضيعوه في الغربة . وما هي واو التي تنفق
عمرنا بحثاً عنها إن لم تكن ذلك الوطن الأول ، المجهول ؟

قدّم له الزعيم كأس الدور الأول . وضع ايدكران كأسه فوق الرمل ،
عند طرف الكلیم . استمرّ :

- واصل الذهب هروبه من مدينة الذهب طوال تلك السنوات . وتابع
الحكماء على حكم السلطنة إلى أن جاء أورغ بقلب المجوسي الذي لا يحلو في
عينيه إلاّ بريق التبر . قايس تينبكتو مقابل الذهب واستطعت أن أدخل الواحة
الموعودة برفقة زعيم بامبارا .

مال بجسمه نحو الشيخ وقال باستفزاز :

- لا يخفى عليك أن التبر كان وسيلتنا كما أصبح اليوم الوسيلة التي قهر
بها أناي أرضكم وجعلك تسلّم في البر بلا مقاومة .
تجاهل الشيخ الاستفزاز . انحنى على الرمل ورسم بإصبعه بعض
الخطوط .

سأل ايدكران فجأة :

- هل زرت تينبكتو ؟

- ثلاث مرات .

- هل زرت اماناي ؟

- في عهد السلاطين كان ما زال ملفوفاً في قماط الحجارة .

- نعم . كان محبوساً في المعتقل . وعندما اضطر السلطان أورغ أن يطلب
من زعيم الأدغال مدّه بمزيد من التبر لإنعاش أسواق تينبكتو انتهز الزعيم
الفرصة وطالب بالإفراج عن الإله . ولكن الإله القديم لم يكتف بالحرية وإنما
طالبنا بالقربان . أشاح بوجهه إلى الهاوية غاضباً وسلّط علينا أقسى أعداء
الصحراء : القبلي !

من واو ارتفعت زغرودة بعيدة. تلاها إيقاع على الطبل. مرَّ بجوار خباء الزعيم عدد من الرجال يتجهون إلى واو. أنصت الضيف لتمتمتهم لحظات ثم عاد إلى تينبكتو:

- تشاور العقلاء وأشار علينا الزعيم بالقرعة فوق اختيار الآلهة على بنت السلطان.

توقف الشيخ عن تخطيط الأرض. هتف:

- تينيري؟!!

- نعم. الأميرة تينيري.

سكت مرة أخرى. التفت إلى القرون الجبلية وراقب القمر. أضاف بنبرة خائبة:

- ولكن أورغ خدعنا بترتيب من الداهية أناي وهرب الفتاة إلى أزجر.

انتظم إيقاع الطبول في واو، وتناهت أصوات النساء وهي تغني «هلى - هلى».

عاد ايدكران إلى قصته:

- اقتص منّا أماناي وتنفس الصحراء بالقبلي. ولم يكن صعباً على عقلائنا أن يقرأوا في الريح الإشارة التي تتوعد بطمر تينبكتو وتهدد مدينة الذهب والتجارة بالزوال. تشاور مجلس العقلاء واحتكمنا إلى القرعة من جديد، ولكن اختيار الآلهة وقع على العبد الهزيل الذي يجلس أمامك كي يتولى الأمر.

رشف من كأسه البارد الذي انقشعت عنه الرغوة. لاحظ الزعيم تحت ضياء القمر أن شفته العلوية محفورة ببقع الجدري. تذوق الشاي وصنع صوتاً مزعجاً بلسانه قبل أن يواصل:

- حَدَّثْ معي ما حَدَّثْ مع عاشق العروس الحجرية في وادي كوكو(*).

هل تعرف القصة؟

(*) وادي كوكو: الاسم القديم لنهر النيجر.

هزّ الشيخ عمامته بالنفي فتطوّع المجلس بالسرد:

- لم يرد في «أنهي» ولا في أساطير الأجيال أن الصحراء السفلى تلقت نكبة، في تاريخها، كذلك التي تعرّضت لها ذلك العام بجفاف الوادي الأزلي. ومما ضاعف من وقع القصاص أن الناس البلهاء الذين لم يعرفوا الجفاف، ولم يذوقوا طعم الحياة في الصحاري العليا المشطورة بأنهار يابسة جفّت منذ خمسة آلاف أو خمسين ألف عام، هؤلاء الكسالى الذين دلّهم الماء الوفير الذي سكبته الآلهة تحت أقدامهم بسخاء قربى فيهم النهر الأبدي الاسترخاء، هؤلاء، يا زعيمنا الجليل، لم يتخلّوا، بعقولهم البليدة، أن الماء يمكن أن ينضب، والنهر يستطيع أن يتوقف عن العدو، أو يغوص في الأرض ليروي الحقول السفلية الخفية، بدل هذا السباق الأبدي الذي يبدأ من المجهول لينتهي إلى المجهول، عابراً حقول قوم كسالى أفسدتهم النعمة وبلّد عقولهم الترف. قرر النهر أن يغيّر المسيرة ويعود على عقبه. يعود إلى المجهول الأول في واو الخفية. غاب كي يعلم الناس أن المسيرة ليست خالدة وأن الآثار العميقة التي تشق الصحراء العظمى كلها هي آثار أنهار أيضاً ظنّ القدماء أنها خالدة، ولكنها توقفت وزالت. هلك قطعان المواشي ومات الزرع والنبات. مات الناس بالعطش وحصدت المجاعة أولئك الثعالب الذين تحايّلوا على القدر وركنوا في ظلال الكهوف وشربوا مياه البحيرات المختفية بين الحجارة والصخور عبر المجرى الطويل. وكلما نضبت بحيرة بحثوا عن أخرى، وإذا لم يجدوا أخرى، حفروا الأرض وبلّلوا حلوقهم بالطين، وإذا صادفتهم أرض صخرية انكفأوا على أنفسهم وشربوا البول. أدركت الآلهة أن البلادة التي سلّت عقولهم عن الاهتمام إلى الخالق لم تمنعهم من التحايل على قدره فسَلَط عليهم الجوع. قرأ الحكماء الرمز وفهم العقلاء الإشارة. اعتزلوا في المرتفعات وتفرّغوا للعبادة. ركعوا، صلوا، سهروا الليل، واكتشفوا أن للنجوم لغة وللريح رسالة وللبدن روحاً وللأرض نفساً، وكلها تسبّح بحمد الخالق الذي أنكره وضلوا الطريق إليه بحياة الترف والاسترخاء. استمرّ هؤلاء الأخيار

يعيشون مع علامات الطبيعة ويتعاملون مع الجان حتى جاء إلى العرّاف
الوحي الذي يستطيع أن يلين قلب الخالق الأعظم ويظهر القوم المترفين من
خطيئة الشبع. صعد الجبل واعتزل وصام وتعبّد وانهمك في نحت قربانه
الحجري. صنع من الحجر الأخرس مخلوقاً لم تشهد الصحراء الجماله نظيراً.
صوّر حسناء لم ترها الأرض ولا السماء. ويروى في آير حتى اليوم عن حسننها
الأساطير فيقال للمقارنة: «انظر ما أبهاها! إنها مثل عروس العرّاف
الحجرية». وعندما فرغ العرّاف من عمله انتظر الإشارة من خلصائه: النجوم
والأقمار، الشمس والرياح. حانت اللحظة فنزل بالحسناء إلى المجرى
المتشقق، الظامى، المزحوم بجثث الكفار والدواب. حفر الأرض العطشى
وزرع القربان وجلس على الضفة ينتظر الاخصاب. لم تتأخر الأعجوبة. لم
يتجمع الغيم ولم تسقط قطرة مطر. جرى القاع بالسيل المجنون حتى فاض
وغمر الضفاف. جاء راكضاً من المجهول كما اعتاد أن يجيء في الماضي. إذ لم
يسأل أحد، من البلهاء الذين ختم الشبع على عقولهم بالبلادة، نفسه، ولو
مرة واحدة، من أين يأتي النهر وإلى أين يذهب. اعتادوا أن يعبثوا بمائه
ويتمتعوا بخيراته فما حاجتهم إلى أصله؟ يقول بعض الرّحل الذين شحذ
المنفى عقولهم إن السيل الأزلي يأتي من واو ويعبر الصحراء ليعود إلى النهر
الأصلي في الواحة الخفية. ولكن لا أحد من المستقرّين على ضفاف الوادي
صدّقهم ظناً منهم أن المهاجرين يتعمّدون زرع البلبلة بين السكان كي يصبغوا
وجه النهر بقداسة الأصل الإلهي. وأنت تعلم، يا شيخنا، أن لا أحد في
قارتنا العارية يستطيع أن يبجل هذا السائل المدهش مثل الرّحال الذي شوّهته
نار الصحاري العليا وحرقه القبلي الجنوبي. وأنت لن تدهش إذا أخبرتك أن
أصل العرّاف يعود إلى هذه الفئة الشقية. وبدل أن يخرّ النحات ويحمد
السموات على قبول القربان بكى وناح ومزّق عمامته حزناً على الحجر الفقيد.
رآه كل من بقي على قيد الحياة وهو يتعرّى كالصبيان وينزل إلى الفجّ النهري
العميق باحثاً عن حسائه الضائعة. لقد اختطفها لسان السيل الشره منذ أول

الغزو وفُرَّ بها إلى واوالمجهولة، البعيدة، حيث تعود الماء أن يبدأ رحلته وحيث يُروى أنه ينهي رحلته. غاص العاشق في الأوحال واختنق بالمياه المخلوطة بالطين والقش وروث البهائم وحتى فضلات الرعاة، واستطاع أن يخرج من السيل مستعيناً بالأشجار المتناثرة في قاع الوادي وحول ضفتيه. ورآه الرواة وهو يتمدد على الحجارة الشرسة ويتقيأ العفن. نجا بأعجوبة. ولم يعرف أحد كيف غفرت له الآلهة هذا التطاول وهي التي لم تتعود أن ترحم من استجاب لنذير وتراجع وطالب باسترداد القربان تحت تأثير الوسواس الخناس كما تُسمونه في كتاب الله. ولكن العُراف البائس لم يئأس. وقيل إنه أمضى شهوراً وهو يتابع المجرى ويرصد المنعطفات آملاً في أن تعترض عروسه شجرة أو صخرة فتنجيها من يد النهر. مضت شهور أخرى، عبرت خلالها مياه تكفي لإرواء الصحراء الكبرى كلها، وهو ينتقل بين الوادي وكهوف المرتفعات حتى تحرر من الأوهام ويش من الفوز بالمعشوقة الحجرية.

اقرب ايدكران من الزعيم وسأله وهو يحذق في عينيه:

- هل تعلم ماذا فعل العُراف بعد أن يش؟

لم ينتظر جواباً. ضاقت عيناه حتى ظنَّ الشيخ أنه أغمضهما. ولكن حدقته اليمنى لمعت تحت ضياء القمر فأكمل:

- اختار أعلى جبل يطل على وادي كوكو وألقى بنفسه في النهر. اختفى منذ ذلك اليوم.

انشغل آده بخلط الدور الثاني من الشاي. في ناحية الشرق استمر قرع الطبول وعلت صيحات المجذويين. ميَّز الشيخ أيضاً من بين الأصوات أنين «امزاد».

انطلق الغريب في ضحك خفي، مفاجيء، ثم عاد فسكت لحظات قبل أن يضيف:

- أرجو ألا يسيء بي الزعيم الجليل الظن فيعتقد أني أنوي أن أصعد قرون
أيدينان كي أرتكب حماقة.

قال الزعيم ببرود دون أن يتوقف عن خلط الشاي :

- أعرف أن العرّافين لا يفعلون ذلك . العرّاف الحقيقي لن يفعل ذلك
أبداً.

- وما يدريك أن العرّاف العاشق كان مزيفاً؟

- من لهجتك . من نبرتك . لن تدّعي الانتماء إلى قبائل المهاجرين إذا لم
تعلم أن تقرأ الأصوات .

- ها - ها - ها . . إني أسمع أقدم صوت في الصحراء . إني أسمع
«أنهي» الذي ورثناه محفوراً على الصخور والحجارة . أعترف أنه كان عرّافاً
مزيفاً ، بل لم يكن عرّافاً تماماً . إنه نحات يحفر على الصخور . والنحات
الصحراوي عاشق بالطبيعة ، لأنه لن يستطيع أن يكتب على الحجر لو لم يكن
عاشقاً منذ الميلاد ، بل قبل أن يولد . والمتع أنه لا يعشق النساء الأرضيات
لأنه لا يراهن ولا يريد أن يراهن ، ولكن يعشق الحوريات الفردوسيات اللاتي
يعتقد أنهن لا يسكنن إلا في واو . وقد صبّ في العروس الحجرية كل حنينه
وكل لهفته ، وكل شوقه ، إلى الحوريات الخرافيات ، ونسي خلال عمله أن
الحسنة هي قربان سهاوي لإخصاب العراء وإعادة السيل إلى الوادي الميت .

- أفهم أن ضيفي أيضاً نسي مهمته التي هاجر من أجلها في آير ووقع في
عشق الأميرة؟

ضحك الغريب مرة أخرى . أنزل طرف لشامه العلوي حتى غطّى عينيه
ورفع الطرف السفلي فوق أنفه فأطبق اللثام على وجهه تماماً . تتم :

- ها - ها . . ما الذي يملك على هذا الظن؟

- أنت الذي قلت . أنت الذي قال : «حدث معي ما حدث مع عاشق
العروس الحجرية . .» .

- ها - ها . أعترف أن ذاكرة شيخنا قوية . ولكن ألا يعني هذا أي مزيف أيضاً إذ أخبرتك أي عرّاف؟

- أنا لم أقل إن العرّافين الحقيقيين لا يعشقون . أنا قلت إنهم لا يرتكبون الحماقات .

- ألا ترى أن المرء إذا عشق فلا بد أن يرتكب حماقة ، أي مخلوق بما في ذلك العرّاف؟

- أي مخلوق نعم . ولكن العرّاف لا .

- لا يمكنني إلا أن أنحي عرفاناً بحسن ظنك بعشيرتنا . هذا يعني أن عليّ ألا أتورط في العشق إذا أردت أن أتجنّب الحماقات وأكسب ثقة زعيمنا .

ابتسم الشيخ :

- أن تكسب ثقتي أمر لا يستوجب تجنب العشق .

- وإذا أخبرتك بقناعة تقول إن أي عشق لا بد أن ينتهي إلى ارتكاب الحماقة فماذا تقول؟

أعاد الزعيم وعاء الشاي إلى الجمر الخائب وقال بصوت مرتجف :
- أعترف أنها قناعة قاسية .

- قاسية نعم . ولكنها حقيقية . وأظن أني لن أخطيء إذا قلت إن القناعة مستوحاة من حياة الصحراويين بما في ذلك تجربة الزعيم آده نفسه .

رمقه الشيخ بدهشة فوجد أن العرّاف ما زال يخفي عينيه . انتبه إلى الحيلة . فعل ايدكران ذلك عمداً كي يراقب تأثير كلامه على جلسيه في حين حصّن عينيه بالزمالة الشفافة منعاً للخرج .

الزعيم لم يعلق .

عاد الضيف إلى الأميرة .

- أعترف أني هاجرت وراءها ليس إرضاء لـ «أمناي» وحده . .

سكت المجلس وانتظر الزعيم الاعتراف ولكن العراف تهرب:

- . . ولكن حرصاً على الأرض، انقذاً لتينكتو من غدر الغبار.
استجابة للنداء الخفي القديم الذي ورثته عن الأسلاف سنوات المنفى في
الأدغال. لا يعرف هذا السر إلا الغرباء. أنت عشت المنفى، وهذا يجعلني لا
أجد حرجاً في أن أحدثك عن النداء الغامض. عندما تعيش بعيداً على أمل
واحد هو أن تلتقي بهذا المعشوق الذي يسمونه الوطن فإنك تحس بأنك مدين
له بنذر مجهول، سرّي، جليل. هل هو نداء العجينة الأولى؟ هل هو الرغبة
المقدسة في تسديد ثمن حفنة الطين التي جعلتها أنفاس الخالق لا تقدر بثمن؟
ما معنى حياة المخلوق إذا لم يسدد ديناً جعله الخالق في يد أرض يدوس عليها
المخلوق كل ساعة وكل يوم؟ هذا النداء هو ما يحول الجبناء إلى أبطال يرمون
بأنفسهم إلى التهلكة، ويدفعهم إلى مواجهة الأعداء بصدر عارية كي يدفعوا
الأناوة للأرض ويرووا حفنة التراب بالدم.

دسّ الزائر كلتا يديه في التراب بحركة صيانية، ثم نزعها ببطء. راقبه
الشيخ وهو يدسّها مرة أخرى، وتبين آثار قروح الجدري في ساعديه. قال
الضيف بصوت هاديء، غائب، كأن الأرض امتصت توتره:

- لا شك أنك سمعت عن خلاف أناي مع أخيه. فهل تدري لماذا تولى
هذا الثعلب تهريب الفتاة برغم خلافه القديم مع أخيه؟ أنتم لا تعرفون
الداهية. كما كرّست حياتك للصحراء سخر هذا الثعلب حياته للتجارة. هذه
ظاهرة يشترك فيها كل التجار المحترفين. ففي هذه الحرفة الشيطانية سرّ
يستدرج ويغوي ويجعل من الكسب غاية. لعبة تبيع الإنسان وتسرق منه
نفسه فينسى أن عليه أن يزاوّل الحياة بدل مضاربات الربح والخسارة في
أسواق غدامس أو تامنغت أو تينكتو. وأناي من هذه الفئة التي نسيت
نفسها وسرقتها للعبة. ضرب صدره لأخيه السلطان وأخذ على عاتقه أمر
إنقاذ الفتاة من قدرها ليس من باب البطولة أو الشهامة أو إنجاز العمل

الفاضل كما ظنَّ أورغ المخدوع، ولكن تحقيقاً لصفقة تجارية.

أخفى يده اليمنى في التراب حتى المعصم. أهال عليها مزيداً من الرمال بيده الأخرى. رأى فيه الشيخ في هذه اللحظة طفلاً شقيماً. أضاف بنفس اللهجة:

- لم يتسلل من تينبكتو إلا بعد أن ضمن ممارسة التجارة وابتزَّ من أورغ إمدادات من الذهب كي يبني بها المجد في أسواق الصحاري الوسطى الكاسدة. ولا أعرف كيف خدعكم بهذه الحيلة الطفولية. أقدم حيلة في الصحراء. لجأ إليها كل الغزاة في الماضي كي يثبَّتوا أقدامهم في القارة السخية. وهي ليست أسوأ من الطريقة التي لجأ إليها شيخ الطريقة القادرية قبله. كل مغامر يجد في نفسه الشجاعة كي يتقدم من زعيم القبيلة المسكين ويطلب الإذن بالجوار واقتسام ماء البئر. والزعيم الذي اشتهر في كل الصحراء أنه أبرع من أمسك بالعصا من الوسط لن يجد مانعاً، خاصة وأن الرقعة المطلوبة في حجم ثور أو جاموس أو ودَّان أو أي حيوان بري آخر، دون أن يدري الشيخ المسكين أن الرقعة يمكن أن تُقص بأنامل حسناء بارعة في خيوط أرق من الحرير لتتحول إلى أفعوان خرافي ييلع الصحراء كلها. ومن أين للزعيم أن يعلم السرَّ إذا كان منشغلاً طوال حياته كي لا يجد نفسه في أعلى عليين أو أسفل سافلين، وكان الوسط هو النعيم الموعود؟

اعترض الزعيم:

- تتكلم وكأن كل شيء قد انتهى.

ضحك الغريب ضحكة مجلجلة، طويلة، جعلته يستلقي برأسه إلى الوراء. في عينيه لمعت الدموع تحت ضياء القمر. عادت له الحيوية فقال بانفعال:

- وهل ما زلت تشك يا شيخنا الجليل؟ ألم تر كيف رفع الحظر عن السر وأعلن بوقاحة أنه يتعامل بالمعدن المحرم في سهلكم؟ ألم تر أنه استولى على

البئر وعلى الرجال القادرين على الحرب، وسحب النساء بالنحاس الخبيث وتركك وحيداً مع بعض العَجَزَة الوجهاء؟ ألا ترى، بامنائي، أنك وحيد؟
أعقب تساؤلاته بدهشة جديدة، جسورة. اعتدل الزعيم في جلسته وسوّى لثامه حول وجهه وتولّى المرافعة:

- فليسمح لي العُراف المهيّب أن أدعوه إلى التمهّل ويأذن لي أن أوّكّد أنّي لم أهدأ بالاعتدال عندما وافقت على اقتسام الماء مع المهاجرين الوافدين، ولكن، وهذا اعتراف مني، خوفاً من ناموس الصحراء هو السبب. الناموس القديم الذي ورد في أنبي وحذر الصحراويين من البخل بالماء حتى على العدو. هل نسيتم التحذير في آير؟ وإذا كان الطرف المعادي لم يرتدع بعد أن سقيته ماء الحياة من يديك وجاهر بالعداء والانتقام فإن القِصَاص والفصل في النزاع لن يقع على عاتق الطرف السخي الذي تصدّق بنصيبه من سائل السماء وإنما يقع على الصحراء نفسها. الجزاء في هذه الحال متروك لها. وأنت لا تجهل حيل هذه القارة في معاقبة المعاندين والمفسدين عندما تحين اللحظة وهي التي تملك أشرس سلاح: الظمأ! وأخشى أن العُراف النبيل يحسن بي الظن كثيراً إذ يصفني بالمهارة في الإمساك بالعصا من الوسط. لا أنكر أن هذا شرف. ولكنه شرف لن يدعيه مَنْ أمضى في الصحراء حياة مغامرة، متطرفة مثلي. لا أريد أن أصدع رأسك بتفاصيل هذه التجربة، وإن رأيت أن العدل يقضي، بل ويجبرني، أن أخبرك بسرّ: الزعامة هي التي فرضت على سلوكي هذا المذهب برغم أنّي لا أستطيع أن أصف إيواء المهاجر أو اقتسام قطرة الماء مع تائه اعتدالاً بأي حال. هذا العمل، بلغة الصحراء، طساعة لأبسّط ناموس. سوف تعترض وتحتجني بالنتيجة، وسأعترض وأخبرك أن النتيجة لا تدخل في حساب فعل الخير الذي لا يضع في اعتباره الريح والخسارة.

رفع رأسه نحو ضيفه وبحث عن عينيه. ابتسم بحزن وهو يضيف:

- اغفر لي قساوتي ولكنني لن أراجع عن نيتي في الكشف لك عن رأيي.

إن ما يستفزك من اللعبة، أقصد لعبة أناي، هو أنك وقعت أيضاً في عشق
الأسيرة كما وقع في عشقها ثلاثة أرباع الفرسان في السهل بما في ذلك
الدرويش. ولما كان العاشق دائماً مخلوقاً بائساً وعاجزاً فلا بد أن يبحث عن
سبب لمأساته في أقرب نجع، في أقرب خباء في النجع، ومن حسن حظي أن
يكون الخباء المجاور لكهف العرّاف الزائر هو الشيخ آده الذي فاز باستضافة
المهاجر النبيل. ولا أظن أن للأساطير الممتعة التي سمعتها منكم منذ قليل أي
علاقة بالسهل.

أدار الضيف وجهه نحو الزعيم. في تلك اللحظة رأى الشيخ في عينه
الشقاء.

امتلك السهل السكون.

في واو البعيدة تنهى صوت غنائي متقطع، حزين، كأنه النواح.

(٤)

تواصلت الوليمة عدة أسابيع.

استمر نحر الذبائح وإعداد الأطعمة وارتفعت في سماء السهل أعمدة
الدخان وروائح البهارات والتوابل. تحولت الواحة الجديدة إلى قبلة للرعاة
والتجار والعابرين. داخل الأسوار، في الأمسيات، قُرعت طبول السمر
وزغردت النساء وغنى المهاجرون أقدم الأغاني عن واو الضائعة، وجأهروا
بحنينهم القديم، الحزين، إلى المجهول الموعود الذي أضاعوه منذ خرج الجد
مطروداً من الواحة المفقودة. وكالمعتاد في أيام الفرح والعرس والبهجة لا بد
أن ينسج الفضوليون الموضوع الشيق الذي سيكون زاداً ممتعاً، أسطورة يتسلل
بها النجع في أيام العزلة، والوحشة، والسكون، والخيبة، التي تعود الناس أن
يعيشوها بعد كل فرح. ولم يلحق فريق الفضوليين وعترتي الرواية شك في أن
الزاد المنتظر من عرس واو سيكون أكبر من كل القصص التي خرجوا بها من

كل أعراس الزواج وميعاد الأفراح التي شهدها السهل في تاريخه، لأنهم تعودوا أن يرهنوا الحصيلة بحجم الفرح.

لم يحب ظنهم هذه المرة أيضاً. فإلى جانب عشرات النواذر المتعلقة بالجديد في العشق والحب والغزل وارتكاب العار والهجاء والمديح وعدد المرات التي ضبظت فيها الصبايا الفرسان النبلاء متلبسين بالكشف عن عورة الرأس، إلى جانب القصائد الجديدة التي نظمها شعراء مجهولون رفضوا الكشف عن أسمائهم، فاز السهل بأسطورة المفتاح!

الدرويش أول من روج الرواية. جاء إلى ميعاد المغنيات قبيل الرقص وأخبر الشاعرة أن السلطان علّق المفتاح السحري في سلسلة ذهبية في رقبتة. وأخبر أيضاً أن المفتاح الذهبي خاص بخزائن واور. وقد تلقاه أناي هدية من أورغ بعد أن يش من إنقاذ تينبكتو الأم من سلطة المجوس في الواحة المكتوبة فأرسله لأخيه في آزر ليجر ليبارك به مقامه الجديد ويطيّر النحس عن تينبكتو الجديدة. وكى يؤكد موسى هذا الدور التطيري للمفتاح أشار ضاحكاً إلى قلادة التهام، المدسوسة في جلود الغزلان، التي أحاط بها السلطان السلسلة الذهبية. وروى الدرويش أيضاً، نقلاً عن خدام الحاشية، أن الكنوز مخبوءة في صناديق نحاسية في دهليز تحت الأرض. تلقّف تجار القوافل الرواية وهاجروا بها إلى أطراف القارة الأربع. أهل السهل رددوا الأسطورة لقتل الوحشة وإشباع الفضول ولكن التجار، خاصة التجار المطعونين بالإفلاس ومؤامرات الخصوم مثل الحاج البكاي، فإن المفتاح أثاره إلى حد جعل الأرق يرافقه لثلاث ليالٍ كاملة. ولم يكتف بذلك بل إنه تجاسر وطلب مقابلة عاجلة بالسلطان. ولكن السلطان، بالطبع، اعتذر عن المقابلة متعللاً بالأشغال التي اقتضاها ظرف الوليمة وتدشين الواحة مما أشعل ناراً جديدة في خيال البكاي وناراً أخرى في قلبه، وهو الذي ظلّ طوال السنوات الأخيرة يحاول أن يوفّق في عقد الصفقات التجارية ليستطيع أن يقف على قدميه من جديد بعد الضربة الموجهة التي وجهها له الخصوم. وطبيعي أن يثير هذا الاكتشاف تجاراً

أمثال البكاي . لقد كشف أمامه عورته ووضع بين يديه فضيحتة ، بل ، وهذا أبشع ما في الموقف ، بكى بين يديه واستعطفه بذل كي يتدخل ويجد له المخرج ، ولكن أناي يومها تعلل ببناء المدينة وبعدم استطاعته أن يؤمن كمية التبر اللازمة لإنقاذ شرف البكاي من أعدائه في غدامس ، واكتفى بأن عزاه وأوصاه بالصبر علّ الفرج يأتي مع الامدادات التي ينتظرها من تينبكتو الأم . وهو كصديق يجد للسلطان العذر في تدبير احتياط التبر كي يأمن تقلبات الزمان ويعدّ العدة لليوم الأسود ، ولكنه ، كتاجر منكوب ، ما زال يطمع في أن يلين قلب السلطان ويتطوّر لم يد المساعدة .

الزعيم لم يشارك في الوليمة . مكث في البيت وتسكّع في الوديان الغرية . ولكن أخبار المفتاح وصلته أيضاً . مرض الشيخ باخي بالحمى فذهب لزيارته . هناك التقى بالوجهاء وبعض المعمرين ، من بينهم العجوز بكّة أيضاً . تحدّثوا طويلاً عن الجذب والقبلي ومرض الحمى ولكنهم تجنبوا الحديث عن واو حتى لا يقودهم الحديث إلى قصة المفتاح المصنوع من المعدن الحرام .

(٥)

بعد يومين من اختفاء ايدكران استقبل الزعيم رجال السلطان .

راقبهم وهم ينتشرون في سفح ايديتان ، ويتصايحون أمام فوهة الكهف الذي اتخذ الزائر الغريب مأوى طوال إقامته في السهل . بحثوا عن الأثر عند قدم الجبل ، تفقدوا العراء المتمد شرق - شمال الجبل ولكن غزوة الريح الجديدة قطعت الأثر فأثروا أن يبحثوا عنه في بيت الشيخ . انقسموا إلى فريقين . غاب الفريق المكوّن من ثلاثة رجال خلف الجبل لتفقد السفح من الناحيتين الشمالية والغربية ، والفريق الثاني نزل إلى بيت الزعيم . ثلاثة رجال أيضاً . حارس زنجي ورئيس الحرس يتقدمهما القاضي الشنقيطي بابا .

وقفوا أمام البيت مع الأصيل . توعّدت الصحراء بالقبلي وتلثم الأفق بالعمّة .

تكلّم القاضي واقفاً:

- فليعذرنا الشيخ إذا أزعجناه باستفسارنا عن جاره المجوسي .
- كلكم جيران . الصحراء أيضاً جاري، ولكن لم أستقبل قبل اليوم من يستفسر عن مصيرها الشقي .

تبادل القاضي مع رئيس الحرس نظرة ذات معنى قبل أن يقول:
- حسب علمي أن جارتك الشقية لم تكشف لمخلوق عن سرّها حتى الآن، عكس جارك الآخر، المجوسي .
- سرّها . .

قاطعه القاضي:

- يُجذر شيخنا المبجل أن يتحمّل ويتذكّر أن هذه الصحراء الشقية آذاناً تسمع وعيوناً ترى . . .
أطلق ضحكة مكتومة .
ابتسم الزعيم وتمهّل قبل أن يعلّق بتسامح:

- هذا ما لم أشك فيه يوماً يا سي القاضي . وإن رأيت دائماً أن علينا أن نعكس الآية إذا أردنا أن نعطي حكمتك وزنها الصحيح فنقول إن للصم آذاناً تلتقط الهمس في سكون الصحراء وللعميان عيوناً ترى الأشباح التي يرسمها السراب في أفق الخلاء، فكيف بجواسيس السلطان الذين ينعمون بالسمع والبصر ولا تنقصهم الكفاءة ولا الخبرة . .

- أرجو ألا يؤاخذنا الزعيم إذا رأى في زيارتنا هتكاً لخلوته . جئنا بنية أن نستفسر عن مغامر هو أقرب الناس إليك من حيث موقع بيتك من الكهف . وليسأخنا الزعيم إذا أسأنا التعبير باستعمالنا لكلمة «الجار» .

- ليس في استعمال كلمة «الجار» ما يسيء . ما يسيء هو أن تبحثوا عن الغريب في بيتي بعد أن عاش في السهل سنوات .

- المذرة. هل في السؤال ما يسيء؟

- وما يدريني. ربما تطاول في الجبال المجاورة بحثاً عن الكنوز، وربما..

هرب!

- هرب؟

- ولم لا يهرب؟ إذا كان عراًفاً حقيقياً فلن يصعب عليه أن يعرف نوايا السلطان.

تبادل القاضي نظرة أخرى مع رفيقه قبل أن يهتف:

- ها أنت تعترف بأنه عراًف. المعروف في السهل أنه باحث يائس عن كنوز مزعومة.

- وهل في أن أعرف أنه عراًف مكيدة؟ لقد اعترف لي بهذا السرّ حقاً، ولكني لا أرى في اعترافه مكيدة موجهة ضد أحد. قابلت قضاة كثيرين ولكني لم أشهد أغرب من هذا الاستجواب.

أقبل الفريق الثاني. زنجيان ماردان يتقدمهما أحد الأتباع. كان أطول قامته من القاضي وأكثر نحافة أيضاً. يرتدي جلباباً أبيض بائداً وعمامة هزيلة سوداء. أما القاضي فيبدو، في ثوبه الناصع الفضفاض، الواسع الأكمام، أكثر بدانة. يلف رأسه بزماله مخططة، متوسطة الحجم. يده اليمنى مبتورة حتى المعصم. ويُقال إنه تلقى هذا القصاص على يدي قاطع طريق شهير حكم عليه بابا، عندما كان يمارس القضاء في بلاد شنقيط، بتر اليد مستنيراً بشعار الشريعة الذي يقضي بقتل القاتل ويتر بد اللص وحرق لسان النّام. ولكن اللص الشنقيطي العريق اعترض قافلة كان القاضي يرافقها وحكم عليه بنفس العقوبة. بتر يده اليمنى بالسيف وحشا المعصم بالزيت المغلي كي يوقف النزيف، وقال له: «العين بالعين والسن بالسن والباديء أظلم». فاضطر القاضي أن يهجر البلاد ويلتحق قاضياً في تينيكوتو. مكث هناك طوال العصر الذهبي للعاصمة، وعندما غدر بها الزمان وتحلّى عنها التبر هاجر، مثل غيره، وراء المعدن المسحور الذي يزرع الحياة في الصحراء ويبيع واو الخفية من المجهول.

انحنى رجل الأتباع نحو القاضي وهمس في أذنه لحظات، ثم فتح قبضته
عن بعرتين من روث الجمل. فركها بين يديه وقال بصوت مسموع:
- ما زالت طرية. خرجت من كرش الناقة أول أمس. وجدناها أمام
فوهة النفق.

تفقد القاضي البعر المسحوق وعاد لاستجواب الشيخ:

- ما رأي الزعيم: هل يستطيع المهاجر البائس أن يقتحم بيت الجن
ويدخل النفق؟
- لم يجسر مخلوق أن يفعل ذلك في الماضي، ولكن للمجوس وحكماء
الأدغال ناموسهم الخاص.

- ضيفك لم يغادر السهل. الأثر الوحيد وجد أمام فم النفق. الدلائل
تشير إلى أنه دخل الدهليز المظلم، فهل يعقل أنه دخل الجحيم بنفسه؟
- الله أعلم. الحكيم لا يدخل إلى الجحيم إلا إذا كان هارباً من جحيم
أسوأ.

هزَّ القاضي رأسه موافقاً. ردد وهو يحدق في الزعيم بعينيه الصغيرتين
العسليتين:

- صدقت. الحكيم لا يدخل إلى الجحيم إلا إذا كان هارباً من جحيم
أسوأ. أقسم أن هذه الحكمة سوف تفوز بإعجاب السلطان. أقسم بأجدادي
الأربعة أنها ستفوز...

رفع يده المتبورة للتحية قبل أن ينصرف ويغيب في موجة الغبار التي
نفثها الصحراء.

(٦)

انكسر كبرياء الشمس وسكبت في الأفق سحابة أرجوانية. زحف المساء.
اجتاز العراء الذي يفصل الحباء عن ايدينان. صعد الرابية وراقب الخلاء

العنيد الممتد إلى الأبد. صبر طويلاً على الانقباض. فكّر أن يبحث عن العزاء بين المعمّرين الحكماء، ولكنه تراجع ليس هرباً من مواجهة بكّة أو أحد أفراد الفريق المؤيد له، وإنما لأنه عرف سرّ الانقباض. عرف أن هذا الداء لا يزول بين الجماعة إذا لم تقتصه العزلة. إنه داء قاتل، وباء، إذا لم تقتله سلطة الخلاء. فخرج وحيداً، مستجداً بالصحراء. خرج لأنه عرف أيضاً أن السبب ليس في ضربة التحدي التي وجهها له السلطان، ليس في قراره برفع الحظر عن التعامل بالذهب، وليس في تهربه من لقائه عندما طلب المواجهة، وليس لغارته على مغارة ايدكران أيضاً. السبب في إحساس خفي قديم ولد، بعد المنفى الأول، وتحول مع الأيام إلى قناعة غامضة رفض طوال الوقت أن يعترف بها. وكما يحدث للمريض الذي يأبى الاعتراف بمرضه في البداية، فإن تجاهل الإحساس لم يقض على القلق، بل ضاعف المرض وتحول إلى هاجس غامض، مزمن. فهل هو الثقة بالبهاء بالناس؟ هل كُتِبَ الشقاء على كل مَنْ وهب قلبه للناس وآمنهم على حق الأرض وحق السماء مفترضاً أن يبادلوه حسن النوايا؟ إذ كيف يستقيم الحكم بين الخلق إذا استبعد الزعيم التعامل بهذه العملة؟ أم أن السرّ يكمن في تلك المفارقة المجهولة التي تجعل من الشيخ مداساً يدوسه العابرون من الجنوب كما يركله الغزاة القادمون من الشمال، كما يحدث مع الفلاحين في الواحات، لمجرد أنه رأى أن يحكم بين الناس بالعدل ويجعل لله ظلاً على الأرض؟ ولكن «أنبي» يروّج لسرّ آخر، ويرى السبب في مجاهل أبعد. يرى أن مَنْ أقام بأرض وآثر الاسترخاء والعبودية لن يستحق لقب «العابر» المقدس. لأن مَنْ وجد في نفسه الشجاعة ورفض تلقي الخبز هبة من يد الأرض يكون قد رفض ضمناً عطية السماء، فيستحق أن يفوز باللقب الجليل، ليس لأنه أصبح، بهذا المنفى الأبدي، المخلوق الوحيد الحرّ، بل لأن عبء المسؤولية، عبء الحرية، التي تطوع ووضعتها أمانة في عنقه تجعل منه ذلك المكابر الذي لن يرى، في بحثه عن واو، سوى الأفق والسراب والملكوت. نعم. السرّ ولد من جوف الاستقرار. ولولم يطب له المقام بالقبيلة في السهل، مشدوداً بجبل البئر، محاصراً بالجدب والجفاف

والقبلي طوال السنوات الماضية، لما تجاسر شيخ الطريقة أن يقطع رحلته إلى توات ويعود ليضع القيد في رقبته، ولولا الاستقرار والاسترخاء لما استطاع أنأي أن يبني هذا المعتقل الفظيع أمام عينيه ويسميه «واواً» كي يغوي ضعاف النفوس والمتعطشين إلى النعيم الكاذب. ولولا الاستقرار لما استغفل السلطان البلهاء وأغراهم بالذهب كي يتبعوه للدخول في بوابة المعتقل كما قاد مهاجر الأساطير الناس إلى فوهة الهاوية واعدأ إياهم بالوليمة.

السّر في الاستقرار، وليس في الاعتدال وحكم العدل بين الناس. وهو لا يتفق مع العقلاء الذين لا يكفون عن ترديد الحكمة القاسية التي تقول إن الثقة في الناس دائماً مطعونة بالخيانة، ويرى أن المطعون بخنجر الخيانة هو مَنْ داهمه العابرون ساكناً، خانعاً، ذليلاً، مستقراً مثل أهل الواحات. فالويل لمن أُجِذَّ على حين غرة ووجده العابرون على هذا الحال. تعويذة الصحراء، عقيدة الصحراء، هي الاستنفار. وإذا غفل عنها الصحراوي لحظة عرّض حياته لخطر الزوال.

(٧)

لم يستغرب عندما استدعاه السلطان.

استقبله في القصر، في دار واسعة، تتوسطها الأعمدة، مفروشة بالسجاد العجمي الأحمر. فوق البسط تناثرت وسائد جلدية مزخرفة بالنقوش، محشوة بالريش والوبر. على الجدران عُلقَت الأدوات الحربية (سيوف وحراب وسهام) ومستلزمات الفارس المهاجر (السوط المقتول من جلد الجمل، والحراب المنقوش، وطبق النحاس، والجمال المصفورة من شعر الماعز التي تُستعمل لتثبيت السرج فوق المهري)، أما السرج نفسه فاستقر عند قدم العمود الحجري المركزي في قلب الدار، مزيناً بالمفارش الجلدية وألبسة القماش والكتان.

جلسا متقابلين بجوار الجدار. جاءت الجارية بمبخرة نحاسية (وربما

ذهبية) دقيقة. نفثت فتحاتها دخان البخور وتوجت رأسها مئذنة يعتليها هلال. وضعت المبخرة بينهما، على الفراش، وغابت في الرواق المؤدي إلى البهو. تابع الشيخ خيوط الدخان وهي تطارد الذباب وتسرح في الهواء لتصب في نهر الضوء المتدفق من شمس الأصيل عبر النافذة المثلثة المحفورة في الجدار الشرقي حيث جلس الشيخ متوكئاً على وسادة جلدية مستطيلة.

تكلم السلطان:

- ها أنت ترى بعينيك أن شيئاً في حياتي لم يتغير برغم أني أعرف مدى صعوبة أن تقنع الناس (الذين يرون الدنيا بعيون الفضوليين) بواقع الحال. ولكن ثقني بأن زعيمنا ليس بكبيرة الناس تجعلني على يقين من أنه سيراني وسيرى حياتي بعيداً عن أوهام العوام ومبالغات الدهماء. خاصة وأنني لم أفعل شيئاً سوى أني استبدلت خباء زعماء القبائل المصنوع من الجلد (كما في آير وآهجار، أو المنسوج من وبر الجمال أو شعر الماعز كما في أزجر) بيت من الحجر. خباء من الحجر على عادة سلاطين عاصمتنا القديمة تينبكتو. فهل في هذا ما يعيب؟

الزعيم لم يجب. استمر السلطان:

- لم يرد في بال الزعيم أن يؤاخذني على حياة الترف التي يرى العوام أنها مصاحبة للإقامة في البنيان، ولكنه استاء كثيراً (أراهن على ذلك) لأنني لم أتمكن من استقباله طوال الزمان الماضي. وإذا كنت أعيد للأذهان هذه الخطيئة الآن، في هذا اللقاء، فإني أسوقها هنا للتأكيد على الخطيئة لا للتكفير عنها. ولكن على شيخنا النبيل أن يمنحني فرصة الدفاع كما يليق بزعيم القبيلة، ويمهلني ريثما أعرض المبررات.

جاءت صبية خلاسية أخرى. تحمل طبقاً نحاسياً أيضاً مليئاً باللبن. خامر الشيخ شك في عفة الأواني. قال في نفسه إن هذا النحاس مقبضه ٤. نهر تينبكتو الذي سبكه شياطين الحدادة. قال في نفسه أودعها إن المبررات يغفر له هذا الاعتداء.

- لن أوجع رأسك بالحديث الطويل الذي يستلزمه بناء واحة في الخلاء .
فأنت عاصرت هذا الإنجاز ويرجع لك الفضل الأول في صنع الحلم
بموافقتك لنا في الاستقرار والجوار واستغلال البئر والسهل . ولولا شجاعتك لما
تحقق أمل الصحراويين في بعث واو حقيقة في الصحراء الوسطى ، لا واو
المستحيل التي قطعت ظهورنا جميعاً بالبحث والانتظار حتى أصبحنا نكذب
شهود العيان ونشك في وجودها من الأساس . ولكن دعنا نؤجل حديث
البحث عن واو إلى حين ، لأن النية سبقت لتقديم المبررات . حسناً . أعترف
أن الانشغال بالبناء واستقبال التجار والقوافل ليس السبب الوحيد لعزلي عن
جمعكم . هناك سبب آخر ، أهم ، أقدم ، لا يعرفه إلا الآلهة ، وظلالهم
الأرضية المجسدة في الزهاد المعزلة في الكهوف ، أو الهائمين في خلوات
الخلاء . ولا أدري مَنْ مِنْ سلاطين تينكتو اهتدى إلى السرّ ، وعرف أن الخفاء
هو الذي صنع عظمة الآلهة ، فاعتزل ، مثل الزهاد ، ليخلق مسوح الجلال
والهبة لجناب السلطان . ولا أظن أنك ستدهش إذا قلت لك إن سبب غربة
الأنبياء الذين تحدث القرآن عن عذابهم وتجريدهم من كرامتهم في أوطانهم
يعود إلى اختلاطهم بالناس بعد مباشرة الدعوة إلى الصراط ففقدوا الكرامة
الجليلة ، الإلهية ، التي نسجت العزلة الطويلة على وجوههم سنوات التعبد في
المغارات والخلوات قبل أن يفقدوا الكرامة الأرضية على أيدي المواطنين الرعاع .
الشياطين في نظر الدهماء أقوى من حجاب العزلة الذي تسجبه الآلهة على
وجوه الأنبياء والأولياء وعبد الوحدة . فكيف تريدني أن أربي الطاعة في الرعية
دون أن أحبس نفسي في الجدران وأبتعد عن طريقهم وأسواقهم وجموعهم ؟
كيف تكون سلطاناً على واو دون أن تستر وجهك بالظل ؟ كيف تتجنب وقاحة
الوجهاء الذين يسمحون لأنفسهم بأن يرفعوا أصواتهم فوق صوت ولي الأمر
لمجرد أنهم معمرّون أو مجرد ادعاء عن حرص مزعوم لحماية القبيلة من الفناء
كما فعل معك الشيخ الجسور بكّة ؟ هذا يقودنا لوضع الفرق بين حكم

الزعامة وحكم السلطنة. فأنت لن تلوم الوجهاء، ولا حتى الدراويش والبلهاء، إذا تجرأوا وجاهروا لك بالمعارضة في الرأي ما دمت تتسكع أمام وجوههم كل يوم. إن المخالطة لا تلد إلا الاحتقار والكراهية. المخالطة مقبرة الكرامة والكبرياء والنظام. أمّا السلطان فعليه أن يجتفي في أظلم كهف إذا قرر أن يتولّى أمر الضعفاء، إذا أراد أن ينقذ هؤلاء العجزة من ضعفهم ومن أنفسهم ويقودهم بالسلاسل إلى واحة السعادة. لا تظن أن واو كعبكم وحدكم في أزجر. إنها قبلة كل الصحراويين. وقد عبرت هذا الجحيم أيضاً، أقصد جحيم البحث، والحلم، والسهر، والتنقل القاسي من عراء إلى عراء، ومن جبل إلى جبل، ومن واو إلى واو. صرفت في الطلب نصف عمري في تلك السنوات عندما كنت أزال التجارة بين تينبكتو وأغاديس وكانوا وتامنغست وأدرار. لست في حاجة كي أخبر الشيخ الحكيم بمتاعب الطلب في الصحراء، بداية بالظما ونهاية بالجوع والضياع. نعم. عطشت كثيراً ولكن رجال الواحة الموعودة لم يهبطوا من المجهول ولم يدلوني على الطريق إلى الواحة الخفية. التقطني تجار القوافل ثلاث مرات، وأنقذني الرعاية في المرتين التاليتين. وظلت واو أملاً مستحيلاً، قاسياً، بعيد المنال. وفي ليلة ظلماء، في صحراء «آصاغ»، فكرت في الأمر طويلاً، ثم قررت أن أبدأ أسلوب العرّافين في تفسير الأمل. أسلوب أدركت فيما بعد أن العرّافين يتقاسمونه مع شيخ الطريقة القادرية في تفسير الرموز وفكّ طلاسم الكنوز. نعم. كان لكنوز الذهب ومناجم التبر الفضل الذي أوما لي بالإشارة الأولى. التقطت العلامة وفتشت في سرّ المعدن. في سرّ الشقاء الذي يدفعه الباحث للاهتمام إليه. وهو شقاء يقابل الشقاء الذي يدفعه الصحراوي للاهتمام إلى بنوابة واو. فلماذا لا يكون الكنز هو واو ولماذا لا تكون واو هي الكنز؟ لماذا لا يصنع الذهب واواً أخرى، حقيقية، هنا، على الأرض، كما يصنع بقية الأعاجيب؟ كما صنع تينبكتو وكانوا وأغاديس ومدناً أخرى عجيبة لا نعرفها؟ لماذا يعجز المعدن المسحور عن بعث واحة السعادة ولمّ شمل المهاجرين المشتتين في القارة

الجرءاء وهو القادر على إنعاش التجارة وإحياء الملكوت الميت في الصحراء السفلى وجعله ينبض بالحياة من خلال عفريت اسمه: التبادل؟ نعم. التبادل عماد الحياة، والذهب عماد التبادل. إذن السر الأول في الذهب.

رشف جرعة كبيرة من اللبن. أعاد الكوب اللامع إلى الطبق، ولعن شفته العليا بلسانه كي يسمح آثار اللبن وعاد إلى أير:

- يومها عرفت أني لن أنعم بواو ما لم أحصل على الذهب. قررت أن أكون غنياً مثل كبار التجار الذين يملكون مدن شمال القارة ومدن الجنوب ويستولون على أنفاس حياتها بقوافل من الجمال. ومن خلال تجربتي في التجارة عرفت أيضاً أني لن أفوز بثروة كبيرة إذا اكتفيت بالتنقل مع القوافل بين تينبكتو وأغاديس أو بين كانو وتامنغت. الثراء يشترط صفقة، والصفقة تستوجب إحدى معجزتين: المجازفة أو ضربة الحظ. ولما كانت ضربات الحظ مجهولة الأصل والغاية وقاصرة على الخيار فلم يبق لي إلا أن أجازف وأرهن كل ما أملك مقابل الحصول على بضعة أرطال من التبر الحام أو الذهب المسبوك لاستغلالها في الصفقة. ولما كانت ممتلكاتي لا تتعدى قافلة من الجمال تسرح في صحراء «أصاغ» وبيت حجري في تينبكتو فإن المقابل لن يتجاوز قيمة الرهن كثيراً. أقلعت عن هذا الحل وقررت أن أستدين. والحق أقول إن أحد التجار الدهاة هو الذي أشار عليّ بهذا المخرج. قال إن عليّ أن أستثمر بضاعة يراها التجار أبهى وأثمن هي شريان الدم الذي يربطني بالسلطان أورغ. أشار عليّ أن أستغل القرابة وأستدين المال من كبار التجار. ولكن التجار رفضوا العرض لأن تينبكتو كلها تحدت عن تصاعد خلافي مع أورغ بعد إجهازه الغادر على عمنا همّة. جاهرت برأيي المستوحى من آنهي وقلت للناس في الجامع أن لا خير يُرجى من راعٍ رفع يده على عمّه أو أبيه، والرعية في حلٍّ من طاعة ولي أمرٍ دُنس العُرف والناموس والدين، فاعتبر السلطان هذا الرأي تحريضاً على العصيان ومساساً بهيبة السلطنة وطمعاً مني في كرسي الحكم.

أطلق ورائي الجواسيس وحذّر التجار من التعامل معي ، وأخيراً منعني حتى من دخول تينيكوتو . ولم يبق لي إلا أن أسرح في الصحراء وأعتني ببيلي ، حتى تدخل القدر وألقى بالأميرة في الهاوية .

جاء زنجي بدين ، ملثم بزماله سوداء ، يحمل طبقاً ذهبياً مزخرفاً بنقوش الحدادين . فوق الطبق استقر وعاء شاي نحاسي (وربما ذهبي) وكوبان من الزجاج مملوءان بالرغوة إلى منتصفهما . ركع الزنجي على ركبتيه في الزاوية وصبّ الشاي بمراسم خبير . زحف نحو السلطان ووضع الطبق بجواره . تناول أناي الكوب المتوج بطربوش كثيف من الرغوة وتأمله في الضوء المتدفق من النافذة . مدّه للزعيم وتناول الكوب الثاني . رشف الرغوة وتذوقها في فمه مطلقاً بلسانه . تناول رشفة أخرى قبل أن يعيد الكوب إلى الطبق ويواصل :
- لا تسيء بي الظن . ولا تعتقد أني من أولئك الذين يجراؤون على انتهاز

الفرصة واستغلال موقف السلطان . ليس لأنه أخي ولكن لقناعتي بأن النبل أنفس نیشان على صدر الصحراوي ، إذا فقدته فقد جرد نفسه من السلاح . هذه القناعة هي التي جعلتني أقبل تحدي زعماء الأدغال وأهرب بالفتاة إلى أزجر . والله وحده هو الذي كافأني على الزهد ورثب لي كل ما حققته فيما بعد من نجاح في تنفيذ الخطة القديمة . شعر أورغ بالخطر وأدرك أنه وضع رقبته في يد المجوس إلى الأبد عندما قبل شروطهم في مد الواحة بالتبر . بعث لي بالقوافل المحملة بما يكفي لتشييد الحلم ونقل واو من رحابها السماوية المجهولة إلى الأرض ، في صحراء أزجر . وكان ينوي أن يلتحق بنا أيضاً لولا غدر الخدم الذين دسّوا له السم في الطعام تنفيذاً لمكيدة زعيم بامبارا . ولا أنوي أن أطيل عليك وأثقل رأسك بتفاصيل ما عانيتّه خلال هذه السنوات الثلاث ، خاصة وأن البنيان قام في السهل أمام عينيك وبفضل تعاونك ورغماً عن قساوة الغبار . كما لا أخفي عليك أن الرحلة لم تبدأ إلا اليوم ، بعد نحر القرايين .

استدار ليواجه الزعيم فانحسر لثامه الأزرق عن صدره فبرزت القلادة

الأسطورية المضفورة بالسلسلة الذهبية الكثيفة. في نهاية السلسلة، فوق السرة، تدلّ المفتاح السريّ، تعلوه نقوش سحرية، وربما تعاويذ آير أو آيات القرآن، متوج بمئذنة يعلوها هلال مشدود القوس، أمّا الفوهة فمستديرة، مسننة بأنياب وحشية كأنياب الأسد، في حين انتشرت النقوش على الرقبة والساق والقدم الذي يدوس فم الفوهة الشرسة.

اعترف السلطان:

- فكيف لا يحق لي أن أشارك الأهالي الفرح وقد أقمت لهم أرض السعادة وقدت واو الحقيقية، واو الأرض، إلى ديارهم، وجعلت منها قبلة تملك أكبر احتياط من الذهب كي يحجّ إليها أغني التجار ويجلبوا إليها أنفس البضائع في القارة؟

مال نحو الزعيم وأضاف بلهجة غامضة:

- لا أخفي عليك. تلقيت حتى الآن عشرات الالتماسات من أكثر تجار القارة ثراءً وجاهلاً لاتخاذ واو مقاماً، في الوقت الذي تبقى فيه قبيلتك الفئة الوحيدة في الصحراء التي تتردد في الدخول إلى السور وتُقاد إلى الجنة بالسلاسل لمجرد خوف من انتقام الجن إذا نكثوا العهد المزعوم وامتلكوا الذهب. فهل سمعت بالله أغبي من هذه الخرافة؟

رشف الشيخ آده كأسه واعتدل في جلسته. رفع طرف لثامه السفلي وثناه فوق أنفه وقال:

- ما دام يروق للسلطان أن يتحدث عن الخرافات فيجدر بي أن أحتذي بجنبه وأبدأ أيضاً بالخرافات على عادة أجدادنا الحكماء الذين لم يتركوا لنا ثروة غير آني. أخبرونا أيضاً بوصية قيل إنها وردت في نهاية الكتاب، تقول إن الصحراوي لا يحتاج إلّا للحكمة كي يكون سعيداً. وهذا هو السبب الذي جعلهم لا يتركوا لنا إرثاً آخر غيره. وأسوار واو في الزمان القديم محصورة بين دفتي آني. والصحراويون القدماء لم يبدأوا في البحث عن الوطن الضائع

إلا عندما أضاعوا الكتاب. وأظن أن حكماء آير يعرفون تفاصيل عن الوصية
 تفوق ما يعرفه عبد الله الذي بدأ يعاني من ضعف الذاكرة بسبب الاسترخاء
 وطول المقام. نعم، يا سي السلطان. الخرافة تقول إن الضيف الزائر كان
 أول من هاجم الطريقة وقال إن الخير مثل الحقيقة، مثل طائر البرية، يموت
 إذا حبسته في قفص. أوه، المذرة فإن الذاكرة تخونني مرة أخرى. الحق انه لم
 يشبه الخير بالطائر وإنما. وإنما، آه «تذكرت». شبهه بالماء الطليق والهواء
 الطليق. قال: إذا حبست الماء في الجابية ركد وفسد، وإذا أحكمت إغلاق
 الزمزية المملوءة بالهواء بالسدادة ركد الهواء وكسد. كنا نتحدث عن انحراف
 شيخ الطريقة القادرية يومها. واتفقنا معكم أيها السلطان في ذلك اليوم أن
 كل شيء إذا دخل الجابية، أو وقع في قناة، فسد وانحرف وانقلب إلى الضد.
 فإذا فعل الزمان بهذا القانون؟ الحق أن القانون ظل هو القانون لأنه سواي،
 ولكن يجدر بنا أن نسأل: ماذا فعل السلطان بهذه القناة؟ كيف خان قانون
 السماء وهرع لبناء السجون ناسياً أن واو الأرض غير واو السماء،
 والصحراويين العقلاء لم يبحثوا يوماً عن واو الأرضية ولو شاءوا أن يتمتعوا
 بالنعيم الأرضي لذهبوا إلى واو الناموس أو واو الكبيرة أو غيرهما من
 الـ «واوات» والواحاح التي لا حصر لها في الصحراء؟ كان يجدر بالسلطان أن
 يسأل نفسه لماذا تفسد الأشياء عندما تدخل في جب الطريقة قبل أن يشرع في
 بناء مشروعه الجريء. ولست أنا مؤهلاً كي أخبره بأن الأشياء تفسد في
 الطريقة إذا مستها يد الإنسان. الأشياء تبقى سواية ما لم تمتد إليها يد الإثم
 والنجاسة فتحتل وتذب فيها ديدان الفساد وتؤول إلى الزوال. وهي سيئة
 ختمت على هذه اليد منذ اليوم الذي تجاسرت فيه وامتدت لتقطف الحرام من
 البستان المقدس وتضعه في الفم، في العورة الحقيقية، لتسد نداء الجشع. ولو
 سأل جناب السلطان نفسه لما اضطر أن يتناول في السماوات ويقيم بنياناً
 مهدداً لمجرد أنه صنع من يد الإثم. من اليد التي لا تبني إلا للخراب ولا تلد
 إلا للفناء. واعترف لك الآن أي لم أشك لحظة، عندما رأيتك أول يوم، أنك

من الباحثين عن واو. ولو أعطيت أذنًا صاغية لهذا المهاجر لما تغيرت طبيعة السهل. ولكن هل تدري ما الذي ضلّني؟ لم أظن يوماً أن البحث عن واو يمكن أن يكون جماعياً. تعودنا في الماضي أن نلتقي في الصحاري بالمهاجرين المعتزلين، وتوارثنا عن أهلنا أن العزلة قدر الباحث عن واو. ولم يخطر ببالنا أن أرى نجعاً كاملاً يهيم في القارة بحثاً عن الوطن المفقود. وما أنا أدفع ثمن هذه الغفلة. ولكن لا بد أن يحضر إبليس كي يلقي بحجابه على الحقيقة ويوسوس في صدر المخلوق ليدفعه إلى الخطأ كما وسوس في صدره يوم دفعه إلى الإثم وأطعمه لقمة الحرام في البستان. أنت تتحدث عن السعادة وتظننا بلهاء لأننا نساق إلى جنتك بالسلاسل. أوافقك. نحن دراويش لا لأننا نرفض الدخول إلى الفردوس ولكن لأننا قايننا الحياة نفسها بعدم، بفناء، بضياغ أبدي اسمه: الحرية. وهو قرار لا ندعي أننا خلقناه، وإنما ورثناه مع آتني، ومع النبل، ومع اللثام الذي نستربه أفواهنا. رضعناه في الحليب، وتعلمناه منذ ههنا في الصحراء. فما هي هذه الهجرة الأبدية التي تراها إن لم تكن هرباً من الأصفاد والأرض والاستقرار والواحات؟ ما سبب التيه الخالد إن لم يكن تلك المحاولة الجلييلة، الشجاعة، في التخلص من الاستعباد والسعي العنيد إلى الفضاء؟ وما هو الفضاء إن لم يكن ذلك الوعاء الذي يستطيع أن يحمي الأشياء من الفساد ليبقى الهواء طليقاً نقياً، ويظل الماء قطرة مطر بكر معلقة في سحابة تتجول في سماء الصحراء؟ اخترنا، كما ترى، أن نبقي خارج «الطريقة»، بعيداً عن الجدران، حتى نستطيع أن نضمن لنفوسنا استمرار الوميض في العراء، تحت شعاع الشمس القاسية. وهذا البحث الشرس، هذا السباق العجيب في القارة التي لا نهاية لها، هو طلب واو الحقيقية. واو الخفية. واو المساوية، وليست واو الملوثة بيد الإثم. فكيف تريد للقبيلة أن تعود طوعاً إلى المعتقل الذي هربت منه منذ آلاف السنين لمجرد أنهم قرروا أن يلتقطوا أنفاسهم من الرحلة الطويلة ونسوا أنفسهم بجوار البشر فأقاموا أكثر من أربعين ليلة؟ أجل. فنحن الذين غفلنا وصنعنا القيد بأنفسنا قبل أن نأز

إلى السهل وتبني لنا حبسك الفظيع بتلك العصا المسحورة المسماة بالتبر. وإذا جاريناك وقبلنا الإغراء فإننا لن نستطيع أن ندّعي النقاء، الذي لا يضمّنه إلاّ التيه فحسب، ولكننا لن نستطيع أن نقبل لقب «الصحراوي». فهل جئت من آير كي تسرقنا من أنفسنا يا سي السلطان، لتودعنا حبساً هربنا منه منذ عشرة آلاف عام عندما كشفت لنا الصحراء عن صدرها وتعرّت خصيصاً كي ترينا أن واو أقرب لنا من جبل الوريد؟ هل جئت لتخدع بصرنا ببريق المعدن المنحوس وتعرض علينا واوامزيفة بدل واو الإلهية، واو السماوات؟

هيمن الصمت.

في الخارج علا رغاء الجمال وتصايح الرعاة. من السطوح بكى طفل وتضاحكت امرأتان بصوت مكتوم.

دخل الزنجي بالدور الثاني من الشاي فتكلم السلطان:

- لن تصدق إذا قلت إنني توقعت هذا الرد. توقعتته بالحرف. هذا يعيد لي ثقتي بخبرتي في الناس. هذه الثقة التي حاولت أن تنالها بضربة واحدة. لأن عرق الكبرياء لا بدّ أن يتكلم في الصحراوي. عرق الغرور الذي يجعل المثلّم يموت بالجوع مقابل ألاّ يكشف فمه، عورته، أمام الأغراب. هو نفس الكبرياء الكذاب الذي يضلّل العقل ويجعل المتكبر الأبله يخلط بين الشرف والركض وراء السراب، كما يخلط بين الحرية وسكينة الاستقرار. فالصحراوي الذي لا يكفّ عن طلب السكينة في الأفاق سيصعق إذا وجد أنها أقرب له من جبل الوريد، يكفي أن يتوقف عن مطاردة السراب ويزيح الأعباء عن جملة ليجد أن الخلاص في الاستقرار، و«واو» التي يبحث عنها في الصحراء هي في مكان آخر، أبعد من الصحراء. أعني أنها في نفسه. ومن لم يجدها هنا (ضرب السلطان صدره بقبضته) لن يجدها في أي مكان. وكل شهود العيان الذين عثروا على الواحة الضائعة إنما دخلوا مدن الجن التي تعلم يا شيخنا أنها لا تقل عدداً في صحرائنا عن واحات الإنس. فأين يكمن يا

ترى شيطان الإغواء الأول: في لسان السراب أم في بريق التبر؟ صدقني إن العزيز الجليل لم يخلق شيطاناً أقوى من سراب الخلاء. وهو وحده من أوحى للصحراويين البؤساء بالدنيا الخفية ووعدهم، كذباً، بواو مقابل أن يتبعوه ويعبدوه. وها أنت تضع تاريخاً لهذه المسيرة الشقية فتحدث عن آلاف السنين. وما هو سراب الصحراء إن لم يكن ذلك الشيطان الذي تتحدث عنه الأساطير وتقول إنه سيقبل في مسوح مهاجر حكيم ليغري الناس بالألعاب والبريق والوليمة ليلقي بهم في الهاوية الظلماء؟

- أولست أنت من يدعو إلى الوليمة ويوزع الألعاب؟ أوليس السلطان هو نفسه المهاجر المنتظر؟ ألا تنوي أن تحسرننا في السجن وتشترينا بالأرزاق والطعام؟ ألا ترى أن كل سكان واحتك قد باعوا أنفسهم مقابل حفنة من الدقيق؟

- انتظر. من بين سكاني اليوم يوجد عدد غير قليل من أفراد قبيلتك. تفتحت عيون كثيرة على خدعة السراب وعادت إلى العقل ودخلت السور.

- في كل قبيلة يوجد ضعاف النفوس. في كل قبيلة يوجد من يؤثر الاسترخاء والسلاسل على شقاء الترحال. وأنا لا ادعي أنني أستطيع أن أقنع كل من لف زمالة على رأسه بأنه من الأخيار الذين عليهم أن يكتشفوا واو. هذا المصير مكتوب على فئة قليلة. الفئة التي رفضت أن تأخذ الصدقة، العطية، من يد السلطان، لأنها تعرف أن في كأس الدقيق ثعباناً سيلتف على رقبتها بمجرد أن تمد يدها لتفتح الكيس. من اختار اللقمة اختار القيد. اللقمة عدو الصحراء، عدو من احترق الهجرة. وأنا أنصحك أن تقبل أهل الواحات في مدينتك إذا أردت ألا تشقى في تدريب الصحراويين المعاندين على الطاعة وحياة الاستكانة.

- السكينة. كان الأجدر أن تقول «السكينة» بدل «الاستكانة». سوف أعطيهم السكينة بدل التعب والمنفى والزوال المؤكد. وفوق هذا كله سأكافهم بـ «كيس الدقيق»، بـ «اللقمة». سيلزمون الأرض ليطلقوا جذوراً، يزرعون

أو يزاولون التجارة، يتزوجون الصبايا لينجبوا منهن أولاداً. سينجون من الهلاك الذي تهددهم به الصحراء كل يوم، ويعيشون سعداء. وأنا لا أعرف ماذا يريد إنسان الصحراء أكثر من أن يعيش سعيداً وينتظر الفناء في هدوء وسكينة.

- أنت تتعمد أن تخلط بين نوعين من السكينة كما سمحت لنفسك بأن خلطت بين «السكينة» و«الاستكانة» منذ قليل. فسكينة عيادها اللقمة المسمومة هي سكينة العبيد. وسكينة أخرى عيادها الخلاء والهواء وقطرات المطر والتجوال في الصحراء الواسعة هي السكينة الموعودة في واو المساوية. هي سكينة قديمة زرعها خالق السماء والصحراء في وجدان الجد الأول منذ حرمه من الجوار وفضاً له بقعة أرض، فأنزله فيها ليتخذها وطناً. من هنا نرى أن الخلط المتعمد بين السكيتين ليس تضليلاً في حق الناس فقط، وإنما تجديف في حق الدين أيضاً.

- اللقمة المسمومة! لم أتخيل يوماً أن الرجل الذي اشتهر في آزجر، بل في كل الصحراء، بأنه أهر من أمسك بالعصا من الوسط يمكن أن يستعمل هذا اللفظ الغريب، القاسي!

- انتظر يا سي السلطان. أنت تتعمد أن تخلط الدقيق بالتبن مرة أخرى. أمهلني كي أخبرك لماذا هي مسمومة هذه اللقمة. لن أبالغ إذا قلت إنها مسمومة مرتين. المرة الأولى لأنها شرك صنعه الإنسان ليصطاد أخاه الإنسان، ومسمومة للمرة الثانية لأنها مدفوعة الثمن بعملة يملكها سكان «ايدينان». نحن حرماً التعامل بهذا المعدن وفاء لعهد ورثناه. والجن لا يغفرون الحنث بالوعد. فمنذ فتحنا عيوننا على الحياة والصحراء ونحن نعلم بأمر الختم المكتوب على كل قطعة ذهب: «مَنْ ملك هذا المعدن ملكناه». في هذا الختم تقبع اللعنة. ولا يليق بالسلطان أن يجهل هذا السر طالما قرر أن يغزو السهل بسلاح أهل الخفاء.

التفت السلطان نحو الشيخ بعنف. تألق المفتاح على صدره وصاح بغضب:

- بل حجتك هي المسمومة. حجتك هي التي سممت عقول الحجاج الذين قرروا أن يضعوا حداً لشقائهم ويهجروك إلى واو. اسمح لي. اسمح لي.

بلغ ريقه مرتين وكنم انفعاله ثم واصل وهو ينظر في الفراغ عبر النافذة.

- أنت الذي وضعت نهاية الماء والملح بيننا. أنت الذي اخترت هذا الطريق.

رشق الزعيم بنظرة خفية وسأل بغموض:

- هل تفهمني؟

التقط الزعيم الإشارة في لحظة. ابتسم بحزن ونكس رأسه. هيمن صمت طويل قبل أن يرد الشيخ:

- أظن أي فهمت. فهمت قبل أن آتي إلى ديارك وقبل أن تحاورني لتلقي السؤال.

رفع السلطان رأسه وسأل بفضول:

- حقاً؟ أرجو ألا أكون قد أخطأت في تقدير حكمتك.

- فهم نية الخصم لا يشترط حكمة كبيرة يا سي السلطان.

- أنت افترضت الخصومة قبل أن تبدأ. فهل هذا اعتراف؟

- الخصومة لم تبدأ اليوم. الخصومة بدأت منذ خنت العهد وأقفلت الأبواب على الحدادين ليسكّوا لك المصنوعات الذهبية في الرواق الخفي في السر. لم أصدق الشائعات ورفعت أمري إلى العقلاء، ولما كان الاحتكام إلى هذا الحرم في زماننا، وربما في كل الأزمنة، مجازفة يجني ثمارها العقلاء فقد حكمت على نفسي بالمنفى منذ ذلك اليوم.

- المنفى؟ أرى أنك اخترت الجزاء أيضاً.

- لست أنا مَنْ اخترت الجزاء يا سلطان بل عرش العقل العاري دائماً،
الأعزل دائماً، المُضطَّهد دائماً. من الطبيعي في هذه الظروف أن ينسحب
الطرف الأعزل من الساحة. العقل لا يعجز في أن يملئ هذا المخرج برغم أنه
يعجز في الدفاع عن نفسه.

ضرب السلطان يداً بيد:

- اعترف أن فراستك تجاوزت تقديراتي. اعترف أن فراستك تفوق ألْعن
عرَّاف في آير ثلاث مرات على الأقل. لم أتوقع أبداً أن تأتيني بالقصاص
جاهزاً لأنني لم أتخذ الحكم إلّا بعد حوارنا. أنت سبقتني.
أقسم لك...

- الحمادة الحمراء وطني. جنّتي. واو السباوات التي سبق لها أن أطعمتني
من جوع وآوتني من خوف في عهد شيخ الطريقة. المنفى قدر الصحراوي
الذي رفض أن يتلقى كيس الدقيق، والاستنفار عقيدته. الصحراوي لا
يتوقع الرحمة من أحد.

تبادلا نظرة كئيبة. انتصب الصمت. جاءت جارية حبشية بدورق الماء.
الدورق ذهبي أيضاً، مزخرف بالنقوش.

قال السلطان بنبرة جديدة:

- لن أدعك تفقد شيئاً أبداً. لن أبخل عليك بالعبيد والأتباع وسأبعث
إليك بالقوافل والمؤن. أعرف أن الحمادة ستطعم عاشقها القديم من جوع
ولكن جذب السنوات الأخيرة شمل حتى الحمادة. لا ننس ذلك.

- اتفقنا أن عقيدة الاستنفار تحرّم على الصحراوي أن يتلقى الحسنات،
علاوة على أيّ لن أحتاج إلى تلك الأشياء التي يظن أهل الاسترخاء والواحات
أنهم لن يستطيعوا أن يعيشوا بدونها.

- هذا عناد المكابرين .

- بل قناعة المهاجرين .

- ربنا يهديك .

- ربنا يهدي الجميع .

شيعه إلى الباب مودّعاً فانحسر طرف اللثام عن الصدر وتألق مفتاح الخزائن . قال الزعيم :

- هل يعرف جناب السلطان لماذا يرفض الإنسان أن ينقاد إلى الجنة بالسلاسل؟ لأن الجنة تكفّ عن أن تكون جنة بمجرد أن يُجبر المخلوق على الذهاب إليها مسلسلاً في القيود . السرّ في الأصفاد نفسها، والمجازفة في الاستهانة بالخيار . المعزة تمشي بحض إرادتها فإذا أمسكت برقبتها وقدها بالإكراه عاندت وقاومت وغرست ساقها في الأرض إمعاناً في الممانعة . لن تندم إذا انتبهت إلى سرّ السلسلة .

ابتسم السلطان وتألق على صدره المفتاح مرة أخرى .

(نهاية الجزء الأول)

أوباري (الصحراء الليبية)

طرابلس - ليماصول (قبرص)

موسكو - سرت

في الفترة بين

١٩٨٩/١٢/٢٠ م و ١٩٩٠/٧/٢٢ م

الفهرس

القسم الأول

- ١ - القبلي ٧
- ٢ - شيخ الطريقة ١٩
- ٣ - الرسول ٣٧
- ٤ - القرين الضال ٤٩
- ٥ - طائر الفردوس ٥٧
- ٦ - أهل الردة ٦٩
- ٧ - «واو» ٨٥
- ٨ - بنو آوى ١٠٣
- ٩ - الميعاد ١١٥
- ١٠ - الرؤيا ١٢٩
- ١١ - الدرويش ١٤٣

القسم الثاني

- ١ - حلمة الأرض ٢٠١
- ٢ - السوار الذهبي ٢٦١
- ٣ - «واو» الأرض و «واو» السماء ٣٠٥

الشاعر

www.books4all.net

في هذا العمل الملحمي ندخل عالماً بأسرنا من الوهلة الأولى
بغرابته وفردته وجدته، عالماً تتقاطع فيه الأساطير الموروثة وتعاليم
الأسلاف بتأملات الحكماء والشيخوخة والعرفان وأشواق الباحثين
عن الله والحرية وصبوات الطامعين بامتلاك الذهب والسلطة.
لكن عالم الصحراء أوسع من أن يقتصر على الإنسان، فهو يمتد
ليشمل عناصر الطبيعة الصحراوية القاسية وكائناتها الخفية
وحيواناتها ونباتاتها. ففي هذا العالم حيث تطرف الطبيعة وقسوتها
تندفع الأشياء والكائنات والأحداث والبشر حتى النهايات القصوى
لتكشف عن مضامينها وأبعادها وحدودها، إذ لا مجال هنا
للتسويات والمساومات والمهادنات. فلا توسط بين الله والذهب،
بين تطلب الحقيقة وشهوة السلطة، بين نبالة الروح وشهوة التملك
طالما أن المجوسي ليس من عبد الله في الحجر ولكن من أشرك في
حبه الذهب.

ما من وجه واحد للمجوسي هنا إذ يتجلى في العديد من
الشخصيات اللاهثة خلف الثروة والمسال والسلطة والنفوذ،
فالمجوسي قد يكون حاكماً (السلطان أورغ) أو صوفياً مزيفاً (شيخ
الطريقة القادرية) أو تاجراً (الحجاج البكاي) أو عرافاً (العجوز
تيميط) أو باحاً عن الانتقام (القاضي الشنقيطي) أو... بل لعل
في كل إنسان يكمن مجوسي يتحين غفلة من العقل والروح ليطل
برأسه ويتلبسه.